بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه مجموعة من الحوارات بيننا وبين الغرب، ظهرت في صورة أسئلة محرجة، أو شائكة، رددت عليها بأجوبة بينة، بل حاسمة، سميناها: «نحن والغرب»، ولا بد لنا أن نحدد: من نحن؟ أو: ما نحن؟ ومن الغرب؟ أو: ما الغرب الذي يحاورنا ونحاوره؟

و «الغرب» في اللغة هو: الجهة التي تغرب فيها الشمس، والبلاد الواقعة فيها، مقابل «الشرق» وهو الجهة التي تشرق منها الشمس، والبلاد الواقعة فيها، وقد يعبر عنهما بـ «المشرق» و«المغرب»، وفي القرآن: **{رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** [المزمل: 9].

والغرب والشرق أمر نسبي، فكل بلد وكل مكان له غربه وشرقه. ووطننا العربي مقسم إلى: شرق وغرب، وقد اصطلح على أن الغرب يبدأ من ليبيا إلى موريتانيا مرورًا بتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وحين قسم الناس الكرة والأرضية إلى شرق وغرب، اضطروا أن يقسموا الشرق إلى أقسام بحسب موقعه، فهناك شرق أقصى، وهناك شرق أوسط، وهناك شرق أدنى.

وقد اصطلح الناس على أن الغرب هو أوروبا وأمريكا، أما آسيا وإفريقيا فهما شرق، وإن كان من أهل إفريقيا من يريد أن يلحق نفسه بالغرب، كما ذكر د. طه حسين، في كتابه «مستقبل الثقافة»: أن مصر إلى اليونان وإيطاليا وفرنسا أقرب منها إلى الهند والصين واليابان. وكما ينادي بذلك كثيرون في شمال إفريقيا من دعاة الفرانكفونية ومن دار في فلكهم.

هذا إذا نظرنا إلى الشرق والغرب من الناحية الجغرافية، ولكن الأهم والأخطر من ذلك: هو الشرق والغرب من الناحية الثقافية والحضارية، وهي الناحية التي لأجلها حدث الصراع، ووقعت الحروب طوال التاريخ، وإن كان أغلب ما دارت رحى الصراع كان بين الغرب والشرق الأوسط «الكبير» كما يسمونه اليوم.

كانت قيادة عجلة الحضارة لقرون طويلة في يد الشرق، حين ظهور الحضارات الشرقية القديمة العريقة: الفينيقية والفرعونية والآشورية البابلية والفارسية والهندية والصينية ... وكان الشرق هو مصدر المعرفة والمدنية والصناعة والرقي.

ثم انتقلت العجلة إلى الغرب لعدة قرون، حين ظهرت فلسفة اليونان، ومدينة الرومان، وبرزت الدولة الرومانية، وغزت أقطارًا كثيرة من الشرق، وتركت آثارها في بلاد شتى.

ثم عادت عجلة القيادة الحضارية إلى الشرق مرة أخرى على يد الحضارة العربية الإسلامية، التي قادت الدنيا بزمام الدين، وأقامت مدينة العلم والإيمان، وأنشأت حضارة ربانية إنسانية أخلاقية عالمية، ظل العالم يتعلم

منها، ويأخذ عنها حوالي ثمانية قرون، وقد ظهر لها فرع في الغرب في الأندلس أضاء نوره في أوروبا واقتبس منه كثيرون من أبنائها.

ونام المسلمون وتخلفوا، واستيقظ الغربيون وتقدموا، وكان لا بد لمن جد أن يجد، ولمن زرع أن يحصد، وأن يقبض الغرب على زمام الحضارة، ويهيمن على العالم، بخبرته العلمية، وبقدرته الاقتصادية، وبقوته العسكرية، وبقينا نحن معدودين في «العالم الثالث» أو في «البلاد النامية» أو في بلاد «الجنوب» العاجز المتخلف الفقير.

ومنذ ظهر الإسلام قدر له أن يصطدم بالغرب الذي كان يمثله هرقل إمبراطور الدولة الرومانية «البيزنطية» والذي أرسل إليه الرسول الكريم رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، وختمها بالآية الكريمة: **{يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ}** [آل عمران: 64].

ولم يستجب هرقل للدعوة، رغم إيمانه في قرارة نفسه بأحقيتها وصدق صاحبها، وصمم على المواجهة، وبدأ أتباعه بقتل بعض الدعاة، وكان لا بد من الصدام، وإن كانت القوى العسكرية غير متكافئة، فكانت سرية مؤتة، وكانت غزوة تبوك في العهد النبوي.

وفي عهد أبي بكر استمرت المواجهة، وكانت موقعة «اليرموك» الشهيرة، وفتح بلاد الشام وفلسطين، ثم مصر وشمال أفريقية، وهذه الفتوح والانتصارات كلها على حساب إمبراطورية الروم البيزنطية، وقد أصبحت هذه البلاد جزءًا أصيلًا وعزيزًا من قلب ديار الإسلام، وقد كانت من قبل

نصرانية الديانة.

وكثيرًا ما مرت فترات طويلة من السلام والسكون والمهادنة بين الطرفين، لا يعكرها إلا بعض المناوشات على الحدود.

ولكن الحدث الكبير الذي حرك السواكن، وهيج الكوامن، وأثار الشجون، هو الحروب التي بدأها الغرب بحملات متتالية للهجوم على الشرق الإسلامي، مستغلين ما أصاب أهله من فرقة وتشرذم، نتيجة لما أصابهم من جهل وغفلة، ومن انحراف ديني، وفساد أخلاقي، فكانت الحروب الشهيرة التي عرفت عند مؤرخي المسلمين باسم «حروب الفرنجة» وعند الغربيين باسم «الحروب الصليبية»!

وقد وقع من الغربيين في هذه الحروب من سفك الدماء، وهتك الاعراض، واستباحة المقدسات والمحرمات، ما يندى له الجبين، وما تقشعر من ذكره الجلود، ولا سيما في معركة الاستيلاء على بيت المقدس، التي جرت فيها الدماء للركب حقيقة لا مجازًا!!

وانتهت هذه الحروب المؤسفة بانتصار المسلمين في النهاية، واستردادهم بلادهم، ورد الغزاة الطغاة على أعقابهم، بعد معارك حاسمة في حطين وفتح بيت المقدس ودمياط والمنصورة، وغيرها. وقد بقيت في النفوس مرارات لا تزول بسهولة.

ثم جاء عصر الاستعمار، ودخل الغرب بلاد الإسلام مرة أخرى، أخذًا بثأره من نكسة الحروب الصليبية القديمة، فقال قائدهم الإنجليزي «اللنبي» الذي دخل القدس سنة 1917م: اليوم انتهت الحروب الصليبية! وقال القائد

الفرنسي «غورو» أمام قبر صلاح الدين في دمشق: ها قد عدنا يا صلاح الدين!

وبدخول عصر الاستعمار، عاد الصراع إلى أشده، فإن بلاد الإسلام رفضت الاستعمار، وقاومته شعوبه كل بمفرده، وكان هذا سر ضعفها، فلم تقابله كتلة واحدة، بل فرادي مبعثرين، مع حالة الضعف والعجز والخلل والتخلف التي كانت عليها الأمة، واعتقد أن حالة الضعف والعجز والخلل والتخلف هذه هي التي سماها مالك بن نبي «القابلية للاستعمار»، وإن كان في النفس من هذه التسمية شيء؛ لأنها توحي بقبول الاستعمار والرضا عنه، والتهيؤ له، ولا أحسب هذا مقبولًا ولا صحيحًا بحال، وإنما هو الفساد والاختلال الذي يمهد للغزو والاحتلال، كما أشارت إلى ذلك أوائل سورة الإسراء، حين أفسد بنو إسرائيل في الأرض، فسلط الله عليهم من يجوس خلال ديارهم، ويتبرون ما علوا تتبيرًا.

لقد قاومت بلاد الإسلام الاستعمار، لما يفرضه عليها دينها - فرض عين - من مقاومة الغزاة المحتلين بكل ما لديهم من قوة، ولكن الاستعمار كان له الغلبة وفق سنن الله: أن ينتصر العلم على الجهل، والنظام على الفوضى، والقدرة على العجز، والاتحاد على التفرق، والتقدم على التخلف، والقوة على الضعف.

ولكن الهزيمة الأولى لم تكسر الإرادة نهائيًا، فظلت الأمة تتربص وتنتهز الفرصة، وظل الرواد والأبطال يوقظونها، ويعدونها لليوم الموعود، حتى تحررت من الاستعمار، وكان آخرها الجزائر التي ظلت تحت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني قرنًا وثلثًا من الزمان، ثم عزمت على أن تتحرر،

ودفعت الثمن غاليًا: مليونًا أو أكثر من الشهداء. وعادت الجزائر عربية مسلمة، بعد أن أرادوا أن يفقدوها هويتها بالفرنسة، حتى تنسى دينها ولغتها، حتى كانت الأنشودة الجزائرية الشعبية بعد التحرير:

يا محمد مبروك عليك! الجزائر رجعت إليك!

ولكن الاستعمار قبل أن يرحل عن بلاد المسلمين، لم يتركها سالمة، بل إنه زرع فيها أمرين خطيرين:

الأول: أنه زرع فيها شجرة شيطانية، لا تزال تنبت الشر والفساد، ألا وهي إسرائيل، التي انتزعت من بين ضلوعنا قطعة من لحمنا ودمنا، وغرست في صدورنا خنجرًا لا زال جرحه يدمي، وأدخلت ضمن وطننا العربي المسلم، عدوًا يتربص بنا الدوائر، ويكيد لنا المكايد، ولا يبنى نفسه إلا على أنقاضنا، ولا يحيا إلا بموتنا، ولا ينتصر إلا بهزيمتنا، ولا تقر له عين إلا بتركيعنا وتطويعنا و«تطبيعنا»!

والثاني: أنه حين دخل بلادنا لم يكن همه الاستعمار العسكري وحده، كما فعل الصليبيون، بل خطط لانتصار ثقافي وتعليمي وتشريعي واجتماعي، يغير به البلاد من داخلها، ونجح في ذلك إلى حد كبير، ووجد من أبناء المسلمين دعاة صرحاء إلى تغريب أمتهم، والسير وراء الغرب شبرًا بشبر، وذراعًا ذراع. اطمأن الغرب عامة إلى أن غرسه لم يذهب سدى.

وفي وقت من الأوقات، ظن كثيرون أن رياح الأطماع قد سكنتن وأن نيران الأحقاد قد خمدت، وأن موجات المخاوف قد ركدت، وأن العلاقات يمكن أن تتوطد؛ فلا أطماع ولا مخاوف ولا أحقاد، وخصوصًا بعد أن ولي

عصر الاستعمار، ولا سيما أن الغرب احتاج إلى أبناء المسامين ليعملوا عنده، ففتح باب الهجرة إليه، فجاهرت ملايين من أبناء الشمال الأفريقي، وخصوصًا إلى فرنسا، ومن أبناء تركيا، وخصوصًا إلى ألمانيا، ومن أبناء الهند وباكستان، وخصوصًا إلى بريطانيا.

كما احتاج المسلمون إلى الغرب ليأخذوا منه العلم في مختلف ميادينه، فأرسلوا الألوف، بل عشرات الألوف من أبنائهم في كل اختصاص، ورأى الغرب أن يستفيد من ذلك فاجتذب إليه من هؤلاء أذكاهم وأنبغهم، فاستبقاهم عنده، وحرمت منهم ديارهم الأصلية.

وشاء الله أن تقوم في بلاد الإسلام صحوة إسلامية هائلة، لم يحسب أحد لها حسابًا، وهذا من عجائب هذا الدين، وقد أشار إلى ذلك «جب» في بعض كتبه بأنها تشبه «الانفجار» الذي لم يتوقعه أحد، قامت بعد أن ضربت الحركات الإسلامية ضربات وحشية موجعة، بل حسبها بعضهم قاتلة، ولكن رب ضارة نافعة، فقد نبهت هذه المحن الغافلين، وأيقظت النائمين، وحركت الساكنين، وظهرت في كل بلاد العرب والمسلمين صحوة شاملة، كانت صحوة عقول وأفكار، وكانت صحوة قلوب ومشاعر، وكانت صحوة إرادات وعزائم، وكانت صحوة التزام وسلوك، وكانت صحوة أخلاق وفضائل، وكانت صحوة نشاط وإبداع، وكانت صحوة دعوة وجهاد.

برزت هذه الصحوة في بلاد العرب، وفي العالم الإسلامي، وفي خارج العالم الإسلامي حيث يعيش المسلمون أقليات بين ظهراني مجتمعات غير مسلمة.

وتجلى أثر هذه الصحوة في كل صعيد؛ الصعيد الثقافي «المكتبة الإسلامية»، والصعيد الاجتماعي «الحجاب»، والصعيد الاقتصادي «البنوك الإسلامية»، والصعيد الجهادي «أفغانستان وفلسطين»، والصعيد السياسي «التنادي بتطبيق الشريعة» والتنادي بـ «التضامن الإسلامي» طريقًا إلى الوحدة الإسلامية.

وأزعجت هذه الصحوة الغرب عامة، وأمريكا خاصة، فرصدت مئات الملايين، وجندت رجالها المدربين، واستعانت بالعملاء من بيننا والخائنين، لمحاصرة هذه الظاهرة الإسلامية التي فاجأت الجميع، بعد دراستها والإحاطة بأسبابها ومحركاتها وغاياتها، وعوامل قوتها وعوامل ضعفها.

وفي هذه الفترة سقط أحد القطبين العظيمين المتنافسين على سيادة العالم: الاتحاد السوفيتي؛ وكان من أسباب سقوطه حرب أفغانستان؛ التي ساهم المسلمون فيها بالنصيب الأكبر، فقدموا خدمة مجانية للغرب، لم يقابلها بالاعتراف والشكران، بل قابلها بترشيح «الإسلام عدوًا بديلًا» للاتحاد السوفيتي.

وكتب المفكرون الاستراتيجيون مثل: فوكاياما وهانتنجتون وغيرهما، محذرين من خطر الحضارة الإسلامية «الناشزة» التي يصعب تطويعها، ولا سيما إذا اتفقت وتقاربت مع الحضارة الكونفوشيوسية «الصينية».

وبدأ التحذير من «الخطر الأخضر» يعنون «الخطر الإسلامي» الذي بالغوا في تضخيمه وتهديده للعالم، بعد أن تقاربوا مع «الخطر الأصفر» أي الخطر الصيني، وبعد سقوط الخطر الأحمر «الروسي».

ومن الإنصاف أن نقول: إن بعض الأكاديميين المنصفين، رفضوا هذا التهويل، وأثبتوا أن الإسلام ليس خطرًا مخوفًا كما يقال. ومن هؤلاء البرفسور اسبوزيتو المعروف الذي كتب في ذلك كتابًا «الخطر الإسلامي: حقيقة أم أسطورة؟!».

وكانت أمريكا تعد العدة لتقوم بأدوار جديدة في الشرق الأوسط، أو قل بصريح العبارة: في بلاد الإسلام. فكانت حرب الخليج الأولى، التي دفعت بها «صدامًا» للاعتداء على إيران. ثم كانت حرب الخليج الثانية، التي دفعت فيها «صدامًا» أيضًا بطريق خفي إلى غزو الكويت.

وكان ذلك كله مقدمة لغزو العراق، والدخول العسكري إلى المنطقة، والتحكم فيها بيد من حديد، ومحاولة تغييرها من داخلها تغييرًا جذريًا، تغييرًا يشمل التعليم والثقافة والإعلام، بحيث تتدخل أمريكا في كل شيء، جهرة جينًا، ومن وراء ستار أحيانًا.

ولم تعد تحتاج إلى لبس الأقنعة التي تخفي وجوهها، بل رأيناها بأعين رؤوسنا تعمل على المكشوف، وتدس أصابعها في كل شيء، حتى في تعليم الدين، تعليم العقائد والفقه والتفسير والحديث وغيرها.

وكانت أحداث 11 سبتمبر 2001م من أبرز الأسباب التي أعطت أمريكا المبرر لهذا التدخل السافر، وإن كان العارفون يعلمون أن هذه السياسة قد رسمت من قبل، وأن هناك وثائق وتقارير معروفة قد دلت على ذلك بوضوح.

شنت أمريكا حربًا كونية كبرى على «الإرهاب» فيما زعمت، ولكن

الدلائل كلها تنطق بأن هذه الحرب إنما هي على الإسلام وأمته وأوطانه، بهدف الاستيلاء على كل مقدرات هذه الأمة، والتمكن منها، والدخول إلى أعماقها، والتحكم في مسيرتها، حتى تملي عليها كيف تفكر إذا فكرت، وكيف تتكلم إذا تكلمت، وكيف تعمل إذا عملت. فهي ترسم لها طريق التفكير، وطريق التدبير، وطريقة التنفيذ، بل تعلمها كيف تتدين، وكيف تفهم دينها، وكيف تمارس الدين في حياتها، بل أعلنوا بصراحة أنهم يريدون أن يصوغوا للمسلمين دينهم من جديد. أي صناعة «إسلام أمريكاني» بدل «الإسلام القرآني» أو «المحمدي».

ولقد قال بوش في أول الأمر: إن هذه الحرب حرب صليبية طويلة الأمد، ونبهه خبراؤه إلى خطورة هذه الكلمة، ومدى أثرها على عقول المسلمين ونفوسهم، وما لها من إيحاءات تاريخية، فاعتذر عنها، وقال من قال: إنها زلة لسان، وزلات اللسان إنما تعبر عن مكنون نفس الإنسان.

ولقد قال سيدنا علي رر: غش القلوب يظهر على صفحات الوجوه، وفلتات الألسن! ثم تلا قول الله تعالى: **{وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ}** [محمد: 30].

بعد الحادي عشر من سبتمبر شنت حملة إعلامية ضخمة على الإسلام، بجوار الحملة العسكرية، واعتبر الإسلام مصدر الإرهاب والعنف في العالم. وأصبح المسلمون يواجهون أسئلة شتى من الغربيين في كل مكان، تكيل التهم للإسلام ولكتابه ونبيه وشريعته وحضارته وتاريخه وأمته، كيلا جزافًا.

ووجهت إلي - بصفة خاصة - عشرات من هذه الأسئلة من هنا وهناك،

من المخلصين من المسلمين يطلبون الإجابة عنها، بدل أن يرد على هذه الأسئلة العاجزون الذين يسيئون بإجابتهم أكثر مما يحسنون.

جاءتني أسئلة من رئيس البنك الإسلامي للتنمية د. أحمد محمد علي، أرسلها إليه عدد من الإخوة العاملين في مجال العمل الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية وجاءتني أسئلة من بعض الإخوة الذي يعيشون في الغرب، منهم أخونا ثابت عيد في سويسرا، ومنهم إخواننا في «ائتلاف الخير» في لندن وجاءتني أسئلة من بعض الصحف العربية. وحاورت بعض الصحفيين من أمريكا وإنجلترا وألمانيا[1].

ورأيت أن أجمع ذلك كله بعضه إلى بعض لأقدمه للقارئ الكريم، ليعرف عن بينة: موقفنا من الغرب وموقف الغرب منا، على ضوء هدى القرآن، وهدى السنة، وتوجهات هذا الدين العظيم، **{لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}** [الأنفال: 42]. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

الدوحة في: 15 جمادى الأولى 1426هـ

2005/6/2م

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

* * *

(1) لا شك أن القارئ سيلحظ تكرار كثير من الأسئلة، لأن موضوعها يشغل الجميع هنا وهناك. ولذا حرصنا أن نجيب عليها بالتفصيل في أول الأمر، ثم نجيب باختصار بعد ذلك على الأسئلة المكررة، ونحيل إلى الرجوع إلى ما مضى.

أسئلة من أمريكا

* * *

أسئلة من أمريكا

كنت قد تلقيت رسالة من الأخ الصديق الدكتور: أحمد محمد علي رئيس البنك الإسلامي للتنمية بجدة، حول عدد من الاتهامات والشبهات التي يثيرها الإعلام الأمريكي ضد رسالة الإسلام وحضارته وأمته، وكانت هذه الأسئلة قد أرسلها إلى رئيس البنك عدد من الإخوة العاملين في مجال العمل الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية ومنهم:

1 - الدكتور/ جمال برزنجي، نائب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في ولاية فيرجينيا.

2 - الدكتور/ طه جابر العلواني، رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في ولاية فيرجينيا.

3 - الدكتور/ نهاد عوض، المدير التنفيذي لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية «كير» في واشنطن.

وكان سبب هذه الأسئلة: ما أقامه الصهاينة ومؤيدوهم في الولايات المتحدة من حملة مسعورة، لا على بلد بعينه من بلاد الإسلام، ولكن ضد الإسلام ذاته بوصفه دينا وعقيدة، وأخذت الأوساط الصهيونية تبث الخوف والذعر من الإسلام بين المسئولين في الإدارة الأمريكية والكونجرس ووسائل الإعلام، وخصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م، وقد عمدوا في حملتهم هذه إلى تحريف معاني بعض الآيات القرآنية، وإخراجها عن سياقها، ووضعها في غير موضعها، مما أدى إلى أن أدارت الإدارة الأمريكية ظهرها تماما

لقيادات الهيئات والمؤسسات الإسلامية الأمريكية، وقطعت كل صلاتها بهم، وأصبحت القيادات الإسلامية تشعر أن علاقتها بالإدارة الأمريكية تمر بأسوأ حالاتها، وأحلك أوقاتها.

وقد أشرت على الأخ الصديق الدكتور/ أحمد محمد علي، بأن يرسل هذه الاتهامات والشبهات إلى عدد من الأخوة العلماء والمفكرين المسلمين الثقات، الذين جمعوا بين التمكن من الثقافة الإسلامية، والاطلاع على ثقافة العصر، على أن يكون الإجابة عن هذه الأسئلة إجابة علمية تخاطب العقل المعاصر، تم تكون لجنة تأخذ أفضل ما في هذه الإجابات، وتضم بعضها إلى بعض، وتصدر في صورة رسالة البنك الإسلامي للتنمية.

ولم يسعني - رغم أعبائي الكثيرة - إلا أن أدلى بدلوي لأميط اللثام عن هذه الشبهات الزائفة، والاتهامات الباطلة، التي طالما رددنا عليها.

وكانت الشبهات التي أثيرت حسب ما ورد إلى من إدارة الأبحاث والدراسات والترجمة؛ التابعة لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية «كير» على هذا النحو:

1 - شبهات حول علاقة المسلم بغير المسلم. وقد تضمنت هذه شبهات عدة منها: موالاة الأعداء، وبعبارة أخرى: موادة من حاد الله ورسوله، الجزية، تمييز أهل الذمة بزي خاص عن المسلمين، موقفنا من الأقليات.

2 - شبهات حول الإرهاب.

3 - شبهات حول الردة وعقوبة المرتد.

4 - شبهات حول المرأة في الإسلام.

* * *

1 - حول علاقة المسلم بغير المسلم

إن الإسلام قد حدد العلاقة مع غير المسلمين، في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: **{لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ 8 إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [الممتحنة: 8، 9].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين - عباد الأوثان، من قريش وأمثالهم - وقد شرع البر بالمسالمين منهم، والإقسام لهم، فاختار عنوان «البر» لهم، وهو الذي يستعمله المسلمون في أقدس الحقوق، بعد حق الله تعالى، وهو بر الوالدين.

حث القرآن هنا على: برهم والإقسام إليهم، والإقساط - أي العدل - أن يعطوا حقوقهم ولا يبخسوا شيئًا منها، والبر: أن يعطوا فوق حقوقهم.

كما أن الإقساط: أن تأخذ منهم الحق الواجب عليهم، ولا تزيد عنه. أما البر فهو أن تتنازل لهم عن بعض حقك، اختيارًا وكرمًا.

وهذا في شأن الوثنيين، الذين نزلت بخصوصهم الآيتان الكريمتان.

ولكن الإسلام أفرد «أهل الكتاب»: بعنوان خاص، وبمعاملة خاصة، حتى أجاز مصاهرتهم والتزوج من نسائهم، ومعني هذا أنه أجاز للمسلم أن تكون زوجته وشريكة حياته، وأم أولاده: كتابية «مسيحية أو يهودية». ومقتضى

هذا: أن يكون أهلها أصهاره، وهم كذلك أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء لهم حقوق «أولى الأرحام، وذوي القربى».

كما أن الإسلام اعتبر النصاري أقرب مودة للمسلمين من غيرهم، يقول تعالى: **{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}** [المائدة: 82]، كما قال نبي الإسلام أيضًا: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، في الدنيا والآخرة»**(2).

فهذا عن القسم المهادن المسالم من أهل الكتاب، أما من لم يسالم المسلمين، وأعان عليهم عدوهم، وحارب دينهم بكل سلاح مادي ومعنوي، فهنا ينهى الإسلام المسلم أن يهادنه أو يسالمه؛ يقول تعالى: **{إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [الممتحنة: 9]. ولا يوجد قانون على وجه الأرض يأمر الإنسان أن يحب ويسالم من يحاربه، وقد اشتهرت في تاريخ الإنسانية حروب معنوية ومادية بين أمم الأرض، والسبب في ذلك تجرؤ أمة على أمة، أو تجاوز أمة الحد مع الأمة الأخرى، أو إعانة أمة لعدو أمة أخرى، ولا ينكر على أمة أن تعادى من يعاديها، ويظهر لها عداوته.

* * *

(2) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1526)، رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3443)، ومسلم في الفضائل رقم (2365) عن أبي هريرة.

2 - موادة من حاد الله ورسوله

ومن الناس من اتخذ من قوله تعالى في سورة المجادلة: **{لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}** [المجادلة: 22]، اتخذوا منها دليلًا على أن الإسلام ينهى عن مودة المسلم لغير المسلم بصفة مطلقة، ويؤكدون ذلك بقوله تعالى في أول سورة الممتحنة: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ}**.

وأورد أن أبين هنا: أن آية المجادلة لا تنهى عن مودة من كان غير مسلم، ولو كان مسالمًا للمسلمين، بل تنهى عن موادة **{مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ}** أي حارب الله ورسوله، وشاق الله ورسوله فهذا شخص معاد للإسلام وأهله، فكيف يطلب من المسلم أن يظهر له الود والمحبة؟

ولو كانت مودة غير المسلم ممنوعة في الإسلام ما أجاز الشرع الإسلامي للمسلم أن يتزوج الكتابية، والزوجية في نظر الإسلام تقوم على أسس وأركان، منها: المودة والرحمة، كما قال تعالى: **{وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}** [الروم: 21].

ولذا قال ابن عباس: لا يجوز زواج الكتابية إذا كانت من قوم معادين للمسلمين، واستدل العلماء لقوله بهذه الآية: **{لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ**

ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ}. والمفروض في الحياة الزوجية ما أثبتته الآية الأخرى: **{وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}**.

فآية **{مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ}** تعني: الأعداء المحاربين للمسلمين.

{لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ}:

يؤكد هذا آية الممتحنة: **{لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ...}**.

فالآية قد عبرت عنهم بأنهم أعداء الله، وأعداء المسلمين **{عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ}** وليس مقبولًا أن يعادوا الله ورسوله والمؤمنين، ويقابل المسلمون معاداتهم بالولاء لهم، وإلقاء المودة إليهم.

وليس هذا لمجرد كفرهم بالإسلام، بل ضموا إليه إيذاء المسلمين وحصارهم وتعذيبهم وفتنتهم في دينهم، حتى أخرجوهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله. ولذا قالت الآية: **{تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ}**.

وقد ذكرت السورة قاعدة من أعظم قواعد السلوك والتعامل مع المخالفين، ولو كانوا أعداء، وهي: أن العداوة ليست أمرًا دائمًا وأبديًا بالضرورة، فقد تستحيل العداوة إلى مودة، ودوام الحال من الحال، وهذا ما قررته السورة بصيغة الرجاء، حيث قال تعالى: **{عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [الممتحنة: 7]. أي: والله قدير على تحويل القلوب من كراهية إلى مودة، والله غفور رحيم: يعفو عما سلف، ويسامح عباده فيما مضى.

وأهم من ذلك وأعظم: ما قررته السورة من دستور في معاملة غير المسلمين، سنتحدث عنه فيما بعد.

المقصود من آية: **{لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ}**:

وقوله تعالى في سورة المائدة: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ...}** يجب أن يفهم في ضوء السياق وأسباب النزول للآيات. فالآية التي تليها تشير إلى أن اليهود والنصارى كانوا معادين للمسلمين، وكانوا في حالة من القوة والمنعة، بحيث أصبح كثير من المنافقين ومرضى القلوب يحاولون التقرب إليهم، والموالاة لهم، على حساب دينهم وأمتهم وجماعتهم، وهذا لا ينازع منصف في أنه خطر على سيادة الأمة ووحدتها وتماسكها، ولا سيما في مرحلة تكوينها، وتأسيس بنيانها.

تقول الآية الكريمة التالية للآية المذكورة: **{فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ 52 وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ}** [المائدة: 52، 53].

فالواضح من هذه الآية الأخيرة: أننا أمام جماعة من المنافقين الانتهازيين المخادعين، الذين يخونون جماعتهم، ويوالون أعداءها، ويحلفون لهم كاذبين: إنهم لمعهم! ولذا يقول القرآن: **{حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ}**.

ولا غرو أن من يوالي الأعداء وينضم إليهم، ويلقي إليهم بالمودة على حساب أمته: أمر مجرم ومحرم وطنيًا ودينيًا، ولا سيما في أوقات الصراع

والحروب، فهو في نظر الوطنية: خيانة، وهو في نظر الدين: ردة، وهي معنى قوله تعالى: **{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}**.

ومن هنا جاءت الآية التالية تقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ}** [المائدة: 54].

كأن الآية تقول: إن هؤلاء الذين خانوا قومهم وانضموا إلى أعدائهم، وارتدوا عن دينهم، سيعوض الله الأمة خيرًا منهم، بجيل جديد أو أجيال جديدة على نقيض هؤلاء.

فهذه الآيات ليست في مطلق يهود ونصارى عاديين مسالمين للمسلمين، بل في يهود ونصارى ومعادين لهم، محاربين لدعوتهم، كاليهود الذين نقضوا عهد رسول الله، وانضموا إلى أعدائه من الوثنيين المشركين، الذين أغاروا على المدينة، وأرادوا القضاء على الرسول وأصحابه، واستئصال شأفة المسلمين، واقتلاع الإسلام من جذوره.

والآيات التالية في سياق النهى عن الولاء لليهود والنصارى تؤكد ذلك. يقول تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ 57 وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}** [المائدة: 57، 58].

فهؤلاء قوم أعلنوا الحرب على الإسلام وأهله، وهزأوا بعقيدته، وهزأوا بشعائره، وأعظمها الصلاة، واتخذوها هزوًا ولعبًا.

أما اليهود والنصارى العاديون المسالمون، فهم في نظر المسلمين أهل

كتاب، أجاز القرآن مؤاكلتهم كما أجاز مصاهرتهم **{وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ}** [المائدة: 5].

وإذا كان أهل الكتاب لهم مكانة خاصة، ومعاملة خاصة لدى المسلمين، فإن النصارى منهم يعتبرهم القرآن أقرب مودة للمسلمين من اليهود الذين بارزوه بالعداوة برغم مبادرة الرسول عليه الصلاة والسلام بعقد الاتفاقية معهم بُعيد هجرته إلى المدينة، وقد جعلهم فئة من أهل الدار، يتناصرون في السلم والحرب، ويتواسون في السراء والضراء ...

ولعل الآيات التي صدرت بها سورة الروم تدلنا بجلاء على قرب النصارى من المسلمين، فقد قامت حرب بين الدولتين العظيمتين في ذلك الزمن: الفرس في الشرق، والروم في الغرب، وانتصر الفرس على الروم في أول الأمر، فحزن لذلك المسلمون، وفرح المشركون، لأن الفرس مجوس يعبدون النار، ويعبدون إلهين: للخير والشر، أو للنور والظلمة، فهم أقرب إلى مشركي العرب عبدة الأوثان، والروم كانوا نصارى أهل كتاب، فكانوا أقرب إلى المسلمين.

وتجادل الفريقان وتراهنوا حول مستقبل الأمتين، ولمن تكون الغلبة بعد؟ وكان المسلمون بطبيعة الحال مع الروم، والمشركين مع الفرس، فنزل قوله تعالى: **{الٓمٓ 1 غُلِبَتِ ٱلرُّومُ 2 فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ 3 فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ 4 بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ}** [الروم: 1 - 5].

فانظر كيف بشر القرآن المسلمين بنصر الروم، وكيف عبر عن مشاعر المسلمين بقوله: **{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ ٱللَّهِ}**.

فهذا هو موقف الإسلام المبدئي من أهل الكتاب عامة، ومن النصارى خاصة.

وهذا لا يمنع أن تأتي آيات من القرآن تنقد اليهود أو النصارى أو أهل الكتاب عامة، فيما حرفوا من كتبهم، وما بدلوا من عقائد موسى وعيسى، ومن ملة إبراهيم، وما غيروا من شرائع أنبيائهم، فالقرآن قد جاء مصدقًا ومتممًا للتوراة والإنجيل، كما أعلن ذلك في آيات كثيرة، كما جاء أيضًا «مصححًا» لها، أو بتعبير آخر «مهيمنًا عليها» كما قال تعالى: **{وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}** [المائدة: 48].

كما ينقد القرآن مواقف أهل كتاب - وخصوصًا اليهود - من دعوة الإسلام، ورسول الإسلام، وأمة الإسلام، ومع هذا يأمر الرسول والمسلمين بالعفو والصفح، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ}** [البقرة: 109].

ومعنى: **{حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ}** أي حتى يشرح الله صدورهم للإسلام، أو يروا انتصار الإسلام وعلو كلمته أمام أعينهم.

وقد أكدت سورة المائدة - وهي من أواخر ما نزل من القرآن - ذلك في قوله تعالى في شأن بني إسرائيل، وقد نقضوا ما أخذ الله عليهم من ميثاق: **{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ**

وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} [المائدة: 13].

فرغم ظهور الخيانة من أكثرهم أمر الرسول أن يعفو عنهم ويصفح، فهذا من الإحسان الذي يحبه الله تعالى. وهذا في نفس السورة التي نهت عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.

ونلاحظ أن القرآن حين دان بني إسرائيل قال: **{وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ}** وذلك ليؤنس منهج العدل مع الخصوم في الرضا والغضب، ولذلك استثنى فقال: **{إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ}**.

وهذا هو نهج القرآن معهم، ففي سورة آل عمران بعد أن تحدث عن بعض مساوئهم التاريخية، وقتلهم الأنبياء بغير حق، قال: **{لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ 113 يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ 114 وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ}** [آل عمران: 113 - 115].

ويقرر القرآن أن من أقام منهم الأركان الأساسية للدين، وهي: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالخلود والجزاء في الآخرة، والعمل الصالح، فإن الله لن يضيع أجره، ولن يخيب سعيه، كما قال تعالى: **{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ}** [البقرة: 62].

وقد كرر القرآن هذا المعنى وأكده في آية أخرى من سورة المائدة **{إِنَّ**

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ} [المائدة: 69].

آية: **{وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ}**:

ومن الآيات التي تذكر كثيرًا، ويساء فهمها في العلاقة بين المسلمين من ناحية واليهود والنصارى من ناحية أخرى: قوله تعالى: **{وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ}** [البقرة: 120].

أرى كثيرًا من المتدينين المسلمين الذين لا يتدبرون الآيات، ولا يتأملون النصوص بعمق يجدون في هذه الآية حائلًا دون التفاهم والتعايش والتصالح مع اليهود والنصارى.

وهذا ليس بصحيح، ولا ينبثق هذا التفكير عن فهم سليم للآية الكريمة لعدة أمور:

أولًا: لأن الآية خطاب خاص للرسول صصص: **{وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ}** ولم تجئ بلفظ عام من ألفاظ العموم المعروفة.

ثانيًا: لو سلمنا بأنها خطاب للجميع، فإنها لا تدل على أكثر من عدم رضاهم عنا - الرضا الكامل، أو الرضا المطلق - حتى نتبع ملتهم. وهذا شأن كل ذي ملة متمسك بملته، حريص عليها. ونحن كذلك لا نرضى عنهم تمام الرضا حتى يتبعوا ملتنا. فهو موقف طبيعي ومتبادل بين أهل الملل أو أهل الأديان جميعا. وقد قال تعالى: **{وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖ}** [البقرة: 145].

وثالثًا: إن هدفنا ليس إرضاء اليهود والنصارى، حتى يكون عدم رضاهم

حجر عثرة في طريقنا، أو عائقًا دون تفاهمنا وتعايشنا، بل هدفنا هو إرضاء الله تتت قبل كل شيء - وسواء رضى الناس عنا أو سخطوا - ولن نبيع رضوان الله تعالى برضا أي مخلوق كان، ولا بأي ثمن مادي أو أدبي، ولو وضعوا الشمس في أيماننا، والقمر في شمائلنا، ما فرطنا مثقال ذرة في ابتغاء مرضاة ربنا.

ورابعًا: أن الإسلام - برغم وجود هذه الآية - لم يمنع المسلم أن يؤاكل اليهودي أو النصراني، وأن يصاهره، فيتزوج ابنته أو أخته أو قريبته، وينجب منها أولادًا، يبرون أمهاتهم وجداتهم وأخوالهم وخالاتهم، ويعاملونهم بما يجب لذوي الأرحام وأولى القربي من الحقوق والحرمات. كما قال تعالى: **{وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ}** [الأنفال: 75]. **{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ}** [النساء: 1].

* * *

3 - قضية الجزية

برغم الصحائف المشرقة التي تؤكد مبادئ العدالة والسماحة التي جاء بها الإسلام، وبرغم التاريخ الحافل بالتسامح الفذ في شتى صوره ومظاهره، رأينا بعض المستشرقين أثاروا بعض شبهات جمعوها من هنا وهناك، وحسبوها تشوه هذا الموقف الناصع، والتاريخ الرائع. والحقيقة أن هذه المسائل التي أثيرت حولها تلك الشبهات لو فهمت على وجهها، ووضعت في زمنها وإطارها، لكانت مأثرة للإسلام وأمته في علاقاته مع أهل الذمة.

فمن هذه الشبهات التي أثاروها ويثيرها المستشرقين: قضية «الجزية» التي غلفت بظلال كئيبة، وتفسيرات سوداء، جعلت أهل الذمة يفزعون من مجرد ذكر اسمها، فهي في نظرهم ضريبة ذل وهوان، وعقوبة فرضت عليهم مقابل الامتناع عن الإسلام. وهذه لا شك نظرة زائفة، ولا أساس لها من أحكام الإسلام وتعاليمه وفلسفته العامة.

ومن نظر إلى الأمم الغالبة قبل الإسلام: ماذا كانوا يفرضون على الأمم المغلوبة، تبين له عدل الإسلام وسماحته التي لا نظير لها.

وقد بينت في كتابي «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» وجه إيجاب الجزية على الذميين، وأنها بدل عن فريضتين فرضتا على المسلمين: فريضة لها طابع عسكري، وأخرى لها طابع مالي، فريضة الجهاد، وفريضة الزكاة، وخصوصًا فريضة الجهاد، فهي الأقرب إلى أن تكون الجزية بديلًا عنها. ونظرًا لـ «الطبيعة الدينية» لهاتين الفريضتين لم يلزم الإسلام بهما غير

المسلمين.

على أنه في حالة اشتراك الذميين في الخدمة العسكرية والدفاع عن الحوزة مع المسلمين فإن الجزية تسقط عنهم[3].

كما أني بحثت في كتابي «فقه الزكاة» مدى جواز أخذ ضريبة من أهل الذمة بمقدار الزكاة، ليتساووا بالمسلمين في الالتزامات المالية، وإن لم تُسم «زكاة» نظرًا لحساسية هذا العنوان بالنظر إلى الفريقين. ولا يلزم أيضًا أن تُسمى «جزية» ما داموا يأنفون من ذلك. وقد أخذ عمر ررر من «نصارى بني تغلب» - وهم قوم عرب - «الجزية» باسم «الصدقة» حين طلبوا منه ذلك، تألفًا لهم، واعتبارًا بالمسميات لا بالأسماء[4]. إذ المقصود أن يدفعوا ما يدل على إذعانهم لسلطان الدولة الإسلامية.

وزيادة في الإيضاح والبيان، ودفعًا لكل شبهة، وردًا لأية فرية، يسرني أن أسجل هنا ما كتبه المؤرخ المعروف سير توماس. و. أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» عن الغرض من فرض الجزية وعلى من فُرضت. قال[5]:

«ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين - كما يريدنا بعض الباحثين على الظن - لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة. وهم غير المسلمين من

---

(3) انظر الكتاب المذكور (ص36 - 38) طبعة مكتبة وهبة القاهرة.

(4) انظر: كتابنا «فقه الزكاة» (1 / 98 - 104).

(5) «الدعوة إلى الإسلام» (ص79 - 81) ط. ثالثة - مكتبة النهضة - ترجمة الدكاترة: حسن إبراهيم حسن، وإسماعيل النحراوي، وعبد المجيد عابدين.

رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة: «أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم»[6].

كذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: «فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا»[7].

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط، من تلك الحادثة التي وقعت في عهد الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور هرقل جيشًا ضخمًا لصد قوات المسلمين المحتلة، كان لزامًا على المسلمين - نتيجة لما حدث - أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم. فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جُبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم». وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين، وقالوا: «ردكم الله علينا، ونصركم عليهم «أي على الروم» ... فلو كانوا هم، لم يردوا علينا شيئًا، وأخذوا كل شيء بقى لنا»[8].

---

(6) الطبري (ج1، ص2055).

(7) الطبري (ج1، ص2050).

(8) أبو يوسف (ص81).

وقد فرضت الجزية - كما ذكرنا - على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بها لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تُعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي. وكانت الحال على هذا النحو مع قبيلة «الجراجمة» وهي مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونًا لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطي نصيبها من الغنائم(9).

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة (22هـ)، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود تلك البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية(10).

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي. مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا «**Migaria**» وهم جماعة من مسيحيى ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال «**Cithaeron**» و«**Geraned**» التي كانت تؤدي إلى خليج كورنته؛ وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الفتح التركي، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، وقد أعفوا من أداء الخراج، ومنحوا هبات من الأرض المعفاة من جميع الضرائب(11).

---

(9) البلاذري (ص159) ط. بيروت.

(10) الطبري (ج1، ص2665).

(11) وهو يسميهم: «**Mncelum**» **Marsigli vol., p.86.**

وكذلك لم يدفع أهالي (**Hydra**) المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول، كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية[12].

وقد أعفى أيضًا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية الذين يطلقون عليهم «**Armatioli**»[13] وكانوا يؤلفون عنصرًا هامًا من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم المدريون «**Midrdites**» وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب[14]. وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرؤوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر[15] التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب[16]، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة[17] نظرًا إلى ما قدموه للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى أعفي الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام. وفرضت عليهم الجزية[18] في نظير ذلك، كما فرضت على المسيحيين»[19].

---

(12) **finaly vol vi. PP. 30 - 33**

(13) **lazar, p56**

(14) **De Lajanquiere p14**

(15) هو نوع من القناطر تقام على أعمدة لتوصيل مياه الشرب إلى المدن، وقد كانت شائعة في الدولة الرومانية منذ القرن الأول الميلادي.

(16) **Thomas Smith, p.265**

(17) **Dorostamus, p.326**

(18) يقصد: بدل الخدمة العسكرية وهو مبلغ معين تقرضه السلطة «القرضاوي».

(19) **De Lajanquiere p.265.**

هذا ما سجله المؤرخ المنصف توماس أرنولد مؤيدًا بالأدلة والمراجع الموثقة.

* * *

4 - ملابس أهل الذمة وأزياؤهم

ومن هذه الشبهات التي ضخمها المستشرقون: ما يتعلق بملابس أهل الذمة وأزياؤهم، وما روي أن عمر بن الخطاب رر اشترط عليهم ألا يتشبهوا بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم، وأن يضعوا في أوساطهم أو على أكتافهم شارات معينة تميزهم عن المسلمين. وينسب ذلك إلى عمر بن العزيز أيضًا.

ومن المستشرقين المؤرخين من يشك في نسبة الشروط أو الأوامر المتعلقة بالزي إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب، لأن كتب المؤرخين الأقدمين الموثوق بها، والتي عنيت بمثل هذه الأمور، لم تشتمل عليها «كتب الطبري، والبلاذري، وابن الأثير، واليعقوبي ... وغيرهم»[20] وأنا مع هؤلاء.

و«الشروط العمرية» التي تنسب إلى عمر بن الخطاب، والتي شرحها ابن القيم في جزأين، ولم تثبت نسبتها إلى عمر بسند صحيح، وهذا ما اعترف به ابن القيم وغيره، ولكنه ادعى أن شهرتها تُغني عن ثبوت سندها. وهو ما لا نسلمه، فكم من أمور تشتهر بين الناس - حتى بين أهل العلم منهم - ويتناقلها بعضهم عن بعض، وهي في الحقيقة لا أصل لها[21]. فالمدار في إثبات النقول

---

(20) انظر: «الإسلام وأهل الذمة» (ص84 - 85).

(21) مثل كثير من الأحاديث المشهورة بين الناس وفي الكتب، وهي ضغينة أو ضعيفة جدًا، أو موضوعة، أو لا أصل لها، وقد صنفت فيها الكتب، ومثل بعض الأشياء، التي تشتهر في التاريخ وليس لها أصل مثل «خولة بنت الأزور» وغيرها.

على صحة السند، وسلامته من الشذوذ والعلة.

على أن الأمر أهون من أن يتكلف إنكاره ورده، لو عرفت دواعيه وأسبابه، وعرفت الملابسات التاريخية التي وجد فيها.

فهو ليس أمرًا دينيًا يتعبد به في كل زمان ومكان كما فهم ذلك جماعة من الفقهاء، وظنوه شرعًا لازمًا، وهو - إن صح - ليس أكثر من قرار إداري أو أمر من أوامر السلطة الشرعية الحاكمة يتعلق بمصلحة زمنية للمجتمع آنذاك، ولا مانع من أن تتغير هذه المصلحة في زمن آخر، وحال أخرى، فيُلغى هذا الأمر أو يعدل.

لقد كان التمييز بين الناس تبعا لأديانهم أمرًا ضروريًا في ذلك الوقت، وكان أهل الأديان أنفسهم حريصين عليه، ولم يكن هناك وسيلة للتمييز غير الزي، حيث لم يكن لديهم نظام «الهويات» أو البطاقات الشخصية المعروف في عصرنا، التي يسجل فيها - مع اسم الشخص ولقبه - دينه وحتى مذهبه في بعض البلدان، فالحاجة إلى التمييز وحدها هي التي دفعت إلى إصدار تلك الأوامر والقرارات. ولهذا لا نرى في عصرنا أحدًا من فقهاء المسلمين، يرى ما رآه الأولون من طلب التمييز في الزي لعدم الحاجة إليه.

ويسرني أن أنقل هنا ما كتبه الدكتور الخربوطلي في توضيح هذه القضية ودوافعها، فقد قال[22]: «ونحن نرى أنه لو افترضنا جدلًا حقيقة هذه الأوامر الصادرة عن الخليفتين، فقد كان هذا لا غبار عليه، فهو نوع من التحديد للملابس في نطاق الحياة الاجتماعية، للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة،

(22) «الإسلام وأهل الذمة» (ص86، 87).

وبخاصة أننا في وقت مبكر من التاريخ، ليس فيه بطاقات تثبت الشخصية، وما تحمله عادة من تحديد الجنسية والدين والعمر وغير ذلك، فقد كانت الملابس المتميزة هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دين كل من يرتديها، وكان للعرب المسلمين ملابسهم، كما للنصارى أو اليهود أو المجوس ملابسهم أيضًا، وإذا كان المستشرقون قد اعتبروا أن تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد، فنحن نقول لهم: إن الاضطهاد في هذه الصورة يكون قد لحق بالمسلمين وأهل الذمة على السواء. وإذا كان الخلفاء ينصحون العرب والمسلمين بألا يتشبهوا بغيرهم، فمن المنطقي أن يأمروا غير العرب وغير المسلمين ألا يتشبهوا بالعرب المسلمين».

وناقش المؤرخ «ترتون»[23] هذه المسألة أيضًا، وأبدى رأيه فيها فقال: «كان الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس: سهولة التمييز بين النصارى والعرب، وهذا أمر لا يرقى إليك شك. بل نراه مقررًا تقريرًا أكيدًا عند كل من أبي يوسف[24] وابن عبد الحكيم، وهما من أقدم الكُتاب الذين وصلت كتبهم إلينا، على أنه يجب أن نلحظ أنه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لإلزام النصارى بلبس معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو إلزام. على أن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد، حين أخذ العرب بحظ من التمدن؛ إذ حمل الإغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم في ملابسهم، والتشبه في ثيابهم.

---

(23) انظر: المرجع السابق.

(**24**) أبو يوسف «الخراج» (72).

ومهما يكن الرأي فإن كانت هذه الأوامر التي تحدد أنواع وأشكال الملابس حقيقية، فإنها لم توضع موضع التنفيذ في معظم العصور التاريخية.

وهناك فرق بين وجود القانون ومدى تطبيق هذا القانون، فقد انتهج معظم الخلفاء، والولاة المسلمين سياسة تسامح وإخاء ومساواة، ولم يتدخلوا كثيرًا في تحديد ملابس أهل الذمة، ولم ترتفع أصوات مطلقا بالشكوى أو الاحتجاج.

وهناك أدلة تاريخية تثبت هذه الحقائق التي ذكرناها، فقد كان الأخطل الشاعر النصراني (المتوفى في سنة 95هـ) يدخل على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وعليه جبة وحرز من الخز، وفي عنقه سلسلة بها صليب من الذهب وتتعصر لحيته خمرًا[25] ويحسن الخليفة استقباله!

كما أن الاتفاقية التي وقعها المسلمون في سنة 89هـ مع «الجراجمة» المسيحيين الذين يسكنون المناطق الجبلية من بلاد الشام، تضمنت النص على أن يلبس الجراجمة لباس المسلمين[26].

تحدث أبو يوسف عن لباس أهل الذمة وزيهم فقال: «لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه، ولا في مركبه ولا في هيئته». واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن الخطاب: «حتى يعرف زيهم من زي المسلمين». أي أنه لا اضطهاد في الأمر، إنما هي وسيلة اجتماعية للتمييز، مثلما نرى اليوم في كل مجتمع حديث من تعدد الأزياء، لكل طائفة أو أصحاب حرفة أو مهنة زي واحد يميزهم.

---

(25) الأصفهاني «الأغاني» (7 / 169).

(26) البلاذري «فتوح البلدان» (ص161) (ص22) ط. بيروت.

* * *

5 - موقفنا من الأقليات

وقد عرضنا لموقف الإسلام من الأقليات في أكثر من كتاب، منها «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» ورسالة «الأقليات الدينية والحل الإسلامي» وكتاب «أولويات الحركة الإسلامية» وبعض الفتاوى والبحوث في كتابنا «فتاوى معاصرة» الجزء الثاني، وكتابنا «من فقه الدولة في الإسلام». كما بينا ذلك في محاضرات شتى في أكثر من بلد.

وأعتقد أن اجتهادنا في هذه القضية الكبيرة قد استبانت معالمه، واتضحت صورته في ضوء الأدلة الشرعية، ولقى القبول من جمهرة المسلمين.

كيف تحل مشكلة الأقليات الدينية؟

ويمكن أن أقتبس بعض ما كتبته من قبل هنا، لإيضاح موقف الاجتهاد الإسلامي المعاصر من هذه القضية الخطيرة، التي يستغلها أعداء الأمة بين الحين والحين، لأغراض في أنفسهم، لإثارة الفتنة الطائفية، حتى إنهم في أمريكا اليوم - بتأثير اللوبي الصهيوني - يزعمون أن الأقباط مضطهدون دينيًا في مصر، وهو زعم لا أساس له. ويتلخص موقفنا فيما يلي:

1 - لا وجه لدعوى بعض الناس وجلهم من العلمانيين الذين لا يوالون الإسلام ولا المسيحية: أن الاتجاه إلى الحل الإسلامي والشرع الإسلامي ينافي مبدأ الحرية لغير المسلمين، وهو مبدأ مقرر دوليًا وإسلاميًا، فقد نسوا أو تناسوا أمرًا أهم وأخطر، وهو أن الإعراض عن الشرع الإسلامي والحل الإسلامي من أجل غير المسلمين - وهم أقلية - ينافي

مبدأ الحرية للمسلمين في العمل بما يوجبه عليهم دينهم، وهم أكثرية.

وإذا تعارض حق الأقلية وحق الأكثرية، فأيهما نقدم؟

إن منطق الديمقراطية - التي يؤمنون بها ويدعون إليها - أن يقدم حق الأكثرية على حق الأقلية.

هذا هو السائد في كل أقطار الدنيا، فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس، فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين، وإنما بحسب نظام ما أن ينال قبول الأكثرية ورضاهم، بشرط ألا يحيف على الأقلية ويظلمهم ويعتدى على حرماتهم، وليس على المسيحيين ولا غيرهم بأس ولا حرج أن يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم، وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم.

ولو لم تفعل الأقلية الدينية ذلك، وتمسكت بأن تنبذ الأكثرية ما تعتقده دينًا يعاقب الله على تركه بالنار، لكان معنى هذا أن تفرض الأقلية ديكتاتورية على الأكثرية، وأن يتحكم مثلا ثلاثة ملايين أو أقل، في أربعين مليونًا أو أكثر، وهذا ما لا يقبله ديني ولا علماني.

2 - وهذا على تسليمنا بأن هنا تعارضًا بين حق الأكثرية المسلمة وحق الأقلية غير المسلمة.

والواقع أنه لا يتعارض بينهما. فالمسيحي الذي يقبل أن يحكم حكمًا علمانيًا لا دينيًا، لا يضيره أن يحكم حكمًا إسلاميًا، بل المسيحي الذي يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة، ينبغي أن يرحب بحكم الإسلام، لأنه حكم يقوم على الإيمان بالله ورسالات السماء، والجزاء في الآخرة. كما يقوم على تثبيت القيم

الإيمانية، والمثل الأخلاقية، التي دعا إليها الأنبياء جميعًا، ثم هو يحترم المسيح وأمه والإنجيل، وينظر إلى أهل الكتاب نظرة خاصة، وإلى النصارى نظرة أخص وأقرب، فكيف يكون هذا الحكم - بطابعه الرباني الأخلاقي الإنساني - مصدر خوف وإزعاج لصاحب دين يؤمن بالله ورسله واليوم الأخر؟ على حين لا يزعجه حكم لا ديني علماني يحتقر الأديان جميعًا، ولا يسمح بوجودها - إن سمح - إلا في ركن ضيق من أركان الحياة؟!

من الخير للمسيحي المخلص أن يقبل حكم الإسلام، ونظامه للحياة، فيأخذه على أنه نظام وقانون ككل القوانين والأنظمة، ويأخذه المسلم على أنه دين يُرضي به ربه، ويتقرب به إليه.

ومن الخير للمسيحي - كما قال الأستاذ حسن الهضيبي ححح - أن يأخذه المسلمون على أنه دين، لأن هذه الفكرة تعصمهم من الزلل في تنفيذه، وعين الله الساهرة ترقبتهم، لا رهبة الحاكم التي يمكن التخلص منها في كثير من الأحيان[27].

ومن هنا رحب العقلاء الواسعو الأفق من المسيحيين بالنظام الإسلامي بوصفه السد المنيع في وجه المادية الملحدة التي تُهدد الديانات كلها على يد الشيوعية العالمية، كما نقلنا ذلك من كلام العلامة فارس الخوري[28].

وأود أن أصحح هنا خطأ يقع فيه كثيرون، وهو الظن بأن القوانين

---

(27) من رسالة «دستورنا» للأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام السابق للإخوان المسلمين.

(28) انظر: كلامه في كتابنا «بينات الحل الإسلامي» (ص 258 - 261) ورسالتنا «الأقليات الدينية والحل الإسلامي».

الوضعية المستوردة من الغرب المسيحي قوانين لها رحم موصولة بالمسيحية، فهذا خطأ مؤكد، والدارسون لأصول القوانين ومصادرها التاريخية يعرفون ذلك جيدًا. بل الثابت بلا مراء أن الفقه الإسلامي أقرب إلى المسيحية والمسيحيين في أوطاننا من تلك القوانين، لأصوله الدينية من ناحية، ولتأثره بالبيئة المحيطة التي هم جزء منها.

3 - والادعاء بأن سيادة النظام الإسلامي فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم، ادعاء غير صحيح.

فالإسلام ذو شعب أربع: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وشريعة، فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الإسلام على أحد. وفي ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله: إحداهما مكية والأخرى مدنية، في الأولى يقول تعالى مخاطبًا رسوله الكريم صصص: **{أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** [يونس: 99]، وفي الثانية يقول سبحانه وتعالى في أسلوب جازم: **{لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ}** [البقرة: 256].

وجاء عن الصحابة في أهل الذمة: «اتركوهم وما يدينون».

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين، واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم ويقيمون شعائرهم، في حرية وأمان، كما هو منصوص عليه في العهود التي كُتبت في عهد أبى بكر وعمر، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء «القدس».

ومن شدة حساسية الإسلام أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين، لما لهما من صبغة دينية، باعتبارهما من عبادات الإسلام الكبرى - مع أن الزكاة ضريبة مالية، والجهاد خدمة عسكرية - وكلفهم مقابل ذلك

ضريبة أخرى على الرؤوس، أعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين، وهي ما يُسمى «الجزية».

ولئن كان بعض الناس يأنف من إطلاق هذا الاسم، فليسموه ما يشاءون. فإن نصارى بني تغلب من العرب طلبوا من عمر أن يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية، وقبل منهم عمر، وعقد معهم صلحًا على ذلك[29].

أما شعبة الأخلاق فهي - في أصولها - لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض.

بقيت شعبة الشريعة بالمعنى الخاص: معنى القانون الذي ينظم علائق الناس بعضهم ببعض؛ علاقة الفرد بأسرته، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية، وبالدول الأخرى.

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك، فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا، ولا يجبرون على شرع الإسلام.

فمن اختار منهم نظام الإسلام في المواريث مثلًا - كما في بعض البلاد العربية - فله ذلك، ومن لم يرد فهو وما يختار.

وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق،

---

(29) انظر: «المغنى» لابن قدامة (ج9 / 335، 336) ط. مطبعة العاصمة، شارع الفلكي بالقاهرة.

وترتضيها الأغلبية.

وبعض المذاهب الإسلامية لا تلزم أهل الذمة أو غير المسلمين بالتشريع الجنائي مثل إقامة الحدود والعقوبات الشرعية، كقطع يد السارق، وجلد الزاني أو القاذف، ونحو ذلك. وإنما فيها التعزيز.

وتستطيع الدولة الإسلامية الأخذ بهذا المذهب إذا وجدت فيه تحقيق مصلحة، أو درء مفسدة، كما فعلت ذلك جمهورية السودان الإسلامية، بالنسبة للمناطق التي تسكنها أغلبية غير إسلامية.

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شاءوا، وإلا لجأوا إلى القضاء الإسلامي، كما سجل ذلك التاريخ.

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه في دينهم واجبًا، ولا على فعل أمر يرونه عندهم حرامًا، ولا على اعتناق أمر ديني لا يرون اعتقاده بمحض اختيارهم، وهو ما يتمناه المسلمون في الغرب أن يطبق عليهم مثل هذا النظام، فلا يجبرون على أمر يعتقدونه حرامًا في دينهم مثل خلع الحجاب للمرأة.

بل في التسامح الإسلامي ما هو أعظم وأوسع، ذلك أن هناك أشياء يحرمها الإسلام مثل الخمر والخنزير، وهم يرونها حلالًا، والأمر الحلال للإنسان سعة في تركه، فللمسيحي أن يدع شرب الخمر ولا حرج عليه في دينه، بل لا أظن دينًا يشجع شرب الخمور، ويبارك حياة السكر والعربدة، وكل ما في كتبهم: أن قليلًا من الخمر يصلح المعدة[30]، ولهذا اختلف

(30) هو من أقوال بولس، وليس من قول المسيح سسس.

المسيحيون أنفسهم في موقفهم من الخمر والسكر.

وكذلك بوسع المسيحي أن يعيش عمره كله ولا يأكل لحم الخنزير، فأكله ليس شعيرة في الدين، ولا سنة من سنن النبيين، بل هو محرم في اليهودية قبل الإسلام. ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير، ويشربوا الخمر، ويتاجروا فيهما فيما بينهم، وفي القرى التي تخصهم، على ألا يظهروا ذلك في البيئات الإسلامية، ولا يتحدوا مشاعر المسلمين، وهذه قمة في التسامح لا مثيل لها[31].

ومنذ عدة سنوات دعيت من قبل نقابة الأطباء في مصر لندوة حول «المشروع الحضاري الإسلامي» في «دار الحكمة» بالقاهرة، وكان المفروض أن يشاركني أحد الأساتذة المعروفين[32]، ولكنه اعتذر، فانفردت بإلقاء الموضوع، وبيان مقومات مشروعنا الحضاري الإسلامي والذي يعمل على إصلاح الفرد، وإسعاد الأسرة، وترقية المجتمع، وبناء الأمة الفاضلة، وإقامة الدولة العادلة، وإنشاء عالم متعارف وعلاقات إنسانية سوية.

وبعد ذلك كانت أسئلة ونقاشات وتعليقات. وكان من أبرز هذه الأسئلة: سؤال من الأخ الدكتور جورج إسحاق الذي سأل بصراحة: أين موقعنا، يا دكتور قرضاوي - نحن الأقباط - في هذا المشروع؟ هل نظل أهل ذمة؟ أو

---

(31) انظر: فصل «الأقليات الدينية والحل الإسلامي» من كتابنا «بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين» وقد نشرت في رسالة مستقلة من «رسائل ترشيد الصحوة»، وانظر أيضًا: كتابنا «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي».

(32) هو الأستاذ الدكتور إسماعيل صبري عبد الله وزير التخطيط في عهد عبد الناصر، ومن ممثلي الفكر اليساري في مصر.

نحن مواطنون؟ هل ستطالبنا بدفع الجزية أو ندفع ما يدفع المسلمون؟ هل نحرم من وظائف الوطن أو يأخذها من يستحقها منا بأهليته؟ ... إلخ هذا النوع من الأسئلة.

وقلت للدكتور إسحاق: إن المشروع الحضاري هو لأهل دار الإسلام جميعًا، المسلمين منهم وغير المسلمين، وفقهاء المسلمين متفقون على أن أهل الذمة من «أهل الدار» أي دار الإسلام وإن لم يكونوا من «أهل الملة»، ومعنى أنهم من أهل الدار أنهم مواطنون، ينتمون إلى الوطن الإسلامي، فهم مسلمون بحكم انتمائهم إلى الدار أو الثقافة والحضارة. وهذا ما عبر عنه الزعيم المصري القبطي المعروف مكرم عبيد حين قال: أنا نصراني دينًا، مسلم وطنًا! وهذا ما قلته للدكتور لويس عوض حين زارنا في الدوحة مشاركًا في إحدى الندوات، وطلب مني أن أعقب على الندوة، فقلت له: أنا مسلم بمقتضى العقيدة والملة، وأنت مسلم بمقتضى الثقافة والحضارة.

وكلمة «الذمة» كثيرًا ما تفهم خطأ، ويظن بعض الناس أنها كلمة ذم أو انتقاص، مع أن معناها: العهد والضمان أي أنهم في عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين وفي ضمانهم، لا يجوز أن ينتقض عهدهم أو تُخفر ذمتهم من أحد.

وإذا كانت كلمة «أهل الذمة» تؤذي الأقباط وأمثالهم، فإن الله لم يتعبدنا بها، وقد حذف الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ما هو أهم منها، «كما ذكرنا من قبل» وهو كلمة «الجزية» المذكورة في القرآن، حين طلب بنو تغلب

ذلك، وكانوا نصارى عربًا[33].

وفي عصرنا يتأذى إخواننا من المسيحيين وغيرهم من هذه التسمية، فلا مبرر للإصرار على بقائها، والعبرة للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني.

ولقد ذهبت من قديم في كتابي «فقه الزكاة»[34] إلى أن ولي الأمر المسلم يجوز له أن يأخذ من غير المسلمين في الدولة الإسلامية ضريبة تساوي فريضة الزكاة، ولنُسمها «ضريبة التكافل» توحيدًا للميزانية والإجراءات بين أبناء الوطن الواحد والدار الواحدة، وأيدت ذلك بأدلة شرعية من داخل الفقه الإسلامي، وهذا ما أخذت به جمهورية السودان منذ عهد نميرى.

وقد ذكرت في «فقه الزكاة»[35] أن من فقهاء المسلمين عددا أجازوا دفع الزكاة لغير المسلمين، وقد نقل ذلك عن عمر ررر.

ومما يذكره التاريخ أن عناصر من أهل الكتاب أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، لا تزال أسماء بعضهم معروفة مشهورة.

ولقد وصل بعضهم إلى منصب الوزارة، وهو ما قرره القاضي الماوردي وغيره من فقهاء السياسة الشرعية.

والعامل المهم هنا هو: وجود الثقة المتبادلة بين الفريقين، وألا يتطلع غير المسلمين إلى المناصب التي لها طبيعة دينية، كما لا يجوز للمسلمين أن

---

(33) انظر: كتابنا «السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها» (ص216) نشر مكتبة وهبة.

(34) انظر: «فقه الزكاة» (ج1 / 112 - 117) طبعة وهبة الحادية والعشرون.

(35) المصدر السابق (ج1 / 712 - 714).

يتدخلوا في الشئون الدينية لغير المسلمين، أو يضيقوا عليهم فيها بغير حق.

والأصل العام في التعامل هو هذه القاعدة التي يتناقلها المسلمون خاصتهم وعامتهم: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

وهذا، فيما عدا ما اقتضاه الاختلاف أو التميز الديني بطبيعة الحال لكل من الطرفين، فهم غير مطالبين بالصلاة، ولا بالصيام، ولا بزكاة الفطر، ولا بالكفارات، ولا بالحج ولا بغيرها من فرائض الإسلام.

ومن المهم جدًا أن يكون من حق الأكثرية المسلمة أن تحتكم إلى شريعة ربها، وتطبقها في شئونها، على ألا تحيف على حقوق الأقلية، ويجب على الأقلية ألا تضيق صدرًا بذلك، وهو ما كان عليه الأقباط طوال العصور الماضية والحديثة، قبل كيد الاستعمار ومكره، ولم نرهم يتبرمون بالنص على أن دين الدولة الإسلام، بل رأينا كثيرًا من عقلاء المسيحيين في مصر وفي غيرها طالبوا مخلصين بوجوب تطبيق الشريعة وأحكامها وحدودها، ورأوا في ذلك العلاج الناجع للجرائم والرذائل في مجتمعاتنا.

وكما أن الأقلية رضيت بالقوانين المستوردة من الخارج، ولم تجد في ذلك حرجًا، فأولى بها أن ترضى بشريعة الإسلام، فهي قطعًا أقرب إلى المثل العليا التي جاءت بها المسيحية من القوانين الأجنبية، ثم هي قوانين «الدار» التي تعيش فيها الأقلية وتتعامل معها، فالمسلم يتقبل الشريعة على أنها دين وانقياد لله، وغير المسلم يتقبلها على أنها قانون ونظام رضيته الأغلبية، شأنه شأن سائر الأنظمة والقوانين.

قلت هذا الكلام أو نحوه في الإجابة عن سؤال د. جورج إسحاق، وصفق

الحاضرون إعجابًا وقبولًا، وبعد انتهاء الندوة، جاء الدكتور إسحاق يشد على يدي، ويقول لي: ليتك يادكتور قرضاوي تأتي إلى الكنيسة لتقول هذا للأقباط في عقر دارهم، فإن عندهم هواجس ومخاوف كثيرة من تطبيق شريعة الإسلام، وربما ساهم في هذا الخوف بعض المتشددين من المسلمين.

وقلت للدكتور: أنا لا أمتنع عن هذا إذا دعيت، والواجب علينا البيان والبلاغ حتى لا تلتبس الأمور، وتفهم الحقائق على غير وجهها، ويستغل أعداء الأمة ذلك، ليوقدوا نار الفتنة، ويضربوا أبناء الأمة الواحدة بعضهم ببعض، وهم المستفيدون أولًا وآخرًا.

أما الآراء المتشددة والمضيقة، والتي تتمسك بحرفية ما جاء في بعض الكتب التي كتبت في زمن غير زمننا، ولمجتمع غير مجتمعنا، وفي ظروف غير ظروفنا، فهي لا تلزمنا، وقد قرر المحققون من علمائنا: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، وقد تغير كل شيء في حياتنا كما وكيفا، عما كان عليه أيام هؤلاء الفقهاء.

إلقاء السلام على المسلمين وغير المسلمين:

أما إلقاء السلام على غير المسلمين فإن كانوا في مجلس يجمع بينهم وبين المسلمين فلا خوف في جواز إلقاء السلام عليهم، وقد روى البخاري في «صحيحه»: «أن رسول الله صصص ركب حمارًا حتى مر على مجلس فيه أخلاط المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس ابن رواحة، فسلم عليهم النبي صصص، ثم وقف فنزل

...»[36].

وقد بوب البخاري لهذا الحديث بعنوان: «باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين».

وقال النووي: السنة إذا مر بمجلس فيه مسلم وكافر: أن يسلم بلفظ التعميم ويقصد به المسلم[37].

ابتداؤهم بالسلام إذا كانوا وحدهم:

وأما ابتداؤهم بالسلام إذا كانوا وحدهم، فذهب جمع من السلف إلى جواز إلقاء السلام عليهم، واستدلوا بأدلة منها:

1- قوله تعالى: **{لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ}** [الممتحنة: 8] ومن برهم: إلقاء السلام عليهم.

2- وقوله على لسان إبراهيم لأبيه: **{سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ}** [مريم: 47].

3- وقوله تعالى آمرًا نبيه: **{فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ}** [الزخرف: 89][38].

وذكر القرطبي أن عددًا من السلف فعل ذلك، ومنهم ابن مسعود، والحسن، والنخعي، وعمر بن عبد العزيز.

كما ذكر ابن حجر في «الفتح»: أن أبا أمامة، وابن عيينة فعلوا ذلك أيضًا.

ومما ورد: أن ابن مسعود فعله مع دهقان صحبه في طريقه، فلما سئل:

---

(36) رواه البخاري في الاستئذان (6245) عن أسامة بن زيد.
(37) انظر: «فتح الباري» (11 / 47).
(38) انظر القرطبي (11 / 111 / 112).

أليس يكره أن يبدؤوا بالسلام؟ قال: نعم، ولكن حق الصحبة.

وكان أبو أمامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني، ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه، فقيل له في ذلك فقال: أمرنا أن نفشي السلام.

وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه. فقال: إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك.

وقال أبو أمامة: إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانًا لأهل ذمتنا[39].

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق عون بن عبد الله عن محمد بن كعب: أنه سأل عمر بن عبد العزيز عن ابتداء أهل الذمة بالسلام فقال: نرد عليهم ولا نبدؤهم. قال عون: فقلت له: فكيف تقول أنت؟ قال: ما أرى بأسًا أن نبدأهم قلت: لم؟ قال: لقوله تعالى: **{فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ}**[40].

أما حديث مسلم: «**لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريقه فاضطروه إلى أضيقه**»[41]، فهو مقيد بأيام الحرب ويدل على ذلك ما رواه البخاري في «الأدب المفرد» والنسائي عن أبي بصرة أن رسول الله قال: «**إني راكب غدًا إلى اليهود فلا تبدؤوهم بالسلام**»[42].

---

(39) رواه الطبراني في «الأوسط» (3 / 298)، وفي «الصغير» (1 / 135)، والبيهقي في «الشعب» (6 / 436). وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني عن شيخه بكر بن سهل الدمياطي ضعفه النسائي وقال غيره: مقارب الحديث (8 / 33).

(40) راجع هذه النقول في القرطبي (11 / 111)، و «فتح الباري» (11 / 47).

(41) رواه مسلم في الأدب (2167) عن أبى هريرة.

(42) رواه البخاري في «الأدب المفرد» وابن ماجه والنسائي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (2464).

ويمكن القول بتأكيد الجواز إن كان هناك سبب يستدعي السلام كقرابة أو صحبة، أو جوار، أو سفر، أو حاجة، وقد ذكر القرطبي ذلك عن النخعي فقال: مؤولًا حديث أبي هريرة: «**لا تبدؤوهم بالسلام**» إذا كان بغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق أو جوار، أو سفر[43].

أما إذا كانت التحية بغير السلام فلا مانع منها، كأن يقول له: صباح الخير، مرحبًا، مساء الخير.

رد السلام على غير المسلم:

وأما رد السلام على غير المسلم، فقد اتفق العلماء على أنه يرد على أهل الكتاب بـ «وعليكم»[44]. ويشهد لذلك قول النبي صصص: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**»[45].

وقد جعل البخاري هذا الحديث تحت باب: «كيف الرد على أهل الذمة» وعلق على ذلك ابن حجر بقوله: في هذه الترجمة إشارة إلى أنه لا مانع من رد السلام على أهل الذمة فلذلك ترجم بالكيفية[46].

ويكون الرد بهذه الصيغة «وعليكم» إذا تحقق أنه قال: «السام عليكم» أو شك فيما قال[47].

---

(43) انظر: القرطبي (11 / 112).
(44) انظر: موسوعة الإجماع (1 / 154).
(45) رواه البخاري في الاستئذان (6258)، ومسلم في السلام (2163) عن أنس.
(46) انظر: «فتح الباري» (11 / 50).
(47) انظر: «أحكام أهل الذمة» لابن القيم (1 / 199).

أما إذا تحقق من قول: «السلام عليكم» قال ابن القيم: فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة: أن يقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالإحسان، وقد قال تعالى: **{وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ}** [النساء: 86] فندب إلى الفصل، وأوجب العدل(48).

وقال الحافظ في «الفتح»: قال ابن بطال: «رد السلام على أهل الذمة فرض لعموم الآية، وثبت عن ابن عباس أنه قال: «من سلم عليك فرد عليه ولو كان مجوسيًا»(49).

وكنت قد قرأت منذ زمن بعيد كلامًا لشيخنا العلامة السيد رشيد رضا في تفسيره «المنار» وأحب أن أنقل هنا بعض فقرات مما قاله:

«إن الإسلام دين عام ومن مقاصده نشر آدابه وفضائله في الناس ولو بالتدريج وجذب بعضهم إلى بعض ليكون البشر كلهم أخوة. ومن آداب الإسلام التي كانت فاشية في عهد النبوة إفشاء السلام إلا مع المحاربيين، لأن من سلم على أحد فقد أمنه، فإذا فتك به بعد ذلك كان خائنًا ناكثًا للعهد.

وروي عن بعض الصحابة كابن عباس أنهم كانوا يقولون للذمي: السلام عليك. وعن الشعبي من أئمة السلف أنه قال لنصراني سلم عليه: وعليك السلام ورحمة الله تعالى. فقيل له في ذلك، فقال: «أليس في رحمة الله يعيش؟!» وفي حديث البخاري الأمر بالسلام على من تعرف ومن لا

(48) انظر: المرجع السابق (1 / 199).
(49) انظر: «فتح الباري» (11 / 50)، وانظر «تفسير الطبري» (5 / 189).

تعرف[50]، وروى ابن المنذر عن الحسن أنه قال **{فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ}**: للمسلمين **{أَوْ رُدُّوهَآ}** لأهل الكتاب، وعليه يقال للكتابي في رد السلام عين ما يقوله وإن كان فيه ذكر الرحمة».

إلى أن يقول ححح:

أما جعل تحية الإسلام عامة فعندي أن ذلك مطلوب، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن اليهود كانوا يسلمون على المسلمين فيردون عليهم، فكان من تحريفهم ما كان سببًا لأمر النبي صصص بأمر المسلمين أن يردوا عليهم بلفظ «وعليكم»، حتى لا يكونوا مخدوعين للمحرفين.

ومن مقتضى القواعد أن الشيء يزول بزوال سببه، ولم يرد أن أحدًا من الصحابة نهى اليهود عن السلام، لأنهم لم يكونوا ليحظروا على الناس آداب الإسلام، ولكن خلف من بعدهم خلف، أرادوا أن يمنعوا غير المسلم من كل شيء يعمله المسلم؛ حتى من النظر في القرآن، وقراءة الكتب المشتملة على آياته، وظنوا أن هذا تعظيم للدين، وصون له من المخالفين، وكلما زادوا بعدا عن حقيقة الإسلام زادوا إيغالًا في هذا الضرب من التعظيم، وإنهم ليشاهدون النصارى في هذا العصر يجتهدون بنشر دينهم، ويوزعون كثيرًا من كتبه على الناس مجانًا، ويعلمون أولاد المخالفين لهم في مدارسهم ليقربوهم من دينهم ويجتهدون في تحويل الناس إلى عاداتهم وشعائرهم ليقربوا من دينهم».

---

(50) إشارة إلى حديث عبد الله بن عمرو، أن رجلًا سأل رسول الله صصص: أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**» رواه البخاري في الإيمان (12)، ومسلم في الإيمان (39).

وقال ححح عن حديث «**لا تبدؤوهم بالسلام**»:

فيظهر هنا أنه نهاهم أن يبدؤوهم لأن السلام تأمين، وما كان يجب أن يؤمنهم وهو غير أمين منهم لما تكرر من غدرهم ونكثهم للعهد معه، فكان ترك السلام عليهم تخويفًا ليكونوا أقرب إلى المواتاة، وقد نقل النووي[51] في «شرح مسلم» جواز ابتدائهم بالسلام عن ابن عباس، وأبي أمامة، وابن محيريز ررر قال وهو وجه لأصحابنا[52].

* * *

(51) انظر: «شرح النووي» (14 / 145) ونص كلامه: وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام رُوي ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة وابن أبي محيريز وهو وجه لبعض أصحابنا حكاء الماوردي.

(52) انظر: «تفسير المنار» (ج 5 / 314 / 315).

6 - شبهات حول الإرهاب

إننا ندين الإرهاب بكل صورة، مهما كانت دوافعه ومنطلقاته خيرة في نظر أصحابه، فرأيي أن الإسلام يرفض الفلسفة التي تقول: الغاية تبرر الوسيلة.

فالإسلام يلتزم ويلزم بشرف الغاية وطهر الوسيلة معًا، ولا يجيز بحال الوصول إلى الغايات الشريفة بطرق غير نظيفة، لا يجيز للمسلم أن يأخذ الرشوة مثلًا، أو يختلس المال، ليبني به مسجدًا، أو يقيم به مشروعًا خيريًا **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»**[53].

ونحن كما ندين الإرهاب. ندين العنف وننكره باسم الشرع، ولكن ما العنف الذي ننكره؟ وما الإرهاب؟ وما الفرق بينهما؟ إن تحديد المفاهيم هنا «ضرورة علمية» حتى لا تبقى هذه الكلمات الخطيرة مائعة ورجراجة يفسرها كل فريق بما يحلو له.

العنف[54] - فيما أرى - : أن نستخدم فئة القوة المادية في غير موضعها، وتستخدمها بغير ضابط من خلق أو شرع أو قانون. ومعنى «في غير موضعها»: أن تستخدم حيث يمكن أن تستخدم الحجة أو الإقناع بالكلمة والدعوة والحوار بالتي هي أحسن، وهي حين تستخدم القوة لا تبالي من تقتل من الناس، ولا تسأل نفسها: أيجوز قتلهم أم لا؟ وهي تعطي نفسها سلطة

---

(53) رواه مسلم في الزكاة (1015).

(54) للمزيد راجع ما ذكرناه في كتابنا «الإسلام والعنف نظرات تأصيلية» ط. دار الشروق، ط الأولى 2005م.

المفتي والقاضي والشرطي.

هذا هو العنف، أما الإرهاب فهو: أن تستخدم العنف مع من ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه، وإجبارهم على أن يخضعوا لمطالبك، وإن كانت عادلة في رأيك.

ويدخل في ذلك: خطف الطائرات، فليس بين الخاطف وركاب الطائرة - عادة - قضية، ولا خلاف بينه وبينهم، إنما يتخذهم وسيلة للضغط على جهة معينة، مثل: الضغط على حكومة الطائرة المخطوفة، لتحقيق مطالب له؛ كإطلاق مساجين أو دفع فدية، أو نحو ذلك، وإلا قتلوا من قتلوا من ركاب الطائرة، أو فجروها بمن فيها.

كما يدخل في ذلك: احتجاز رهائن لديه، لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولكن يتخذهم وسيلة ضغط لتحقيق مطالبه أو يقتل منهم من يقتل، كما فعل جماعة أبو سياف في جنوب الفلبين وغيرهم.

ومن ذلك: قتل السياح في مصر، كما في مذبحة الأقصر، لضرب الاقتصاد المصري، للضغط على الحكومة المصرية.

ويدخل في هذا: ما حدث في جزيرة «بالي» في إندونيسا، فليس هناك مشكلة بين الذين ارتكبوا هذه الجريمة وهؤلاء السياح.

ومن ذلك: ما حدث في 11 سبتمبر سنة 2001 في نيويورك وواشنطن، من اختطاف الطائرات المدنية بركابها: من المدنيين الذين ليس بينهم وبين خاطفيها مشكلة أو نزاع، واستخدامها «آلة هجوم» وتفجيرها بمن فيها، للضغط والتأثير على السياسة الأمريكية.

وكذلك ضرب المدنيين البرآء في برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، وفيهم أناس لا علاقة لهم باتخاذ القرار السياسي، وكلهم مواطنون يؤدون عملهم اليومي الذي يعيشون منه، ومنهم مسلمون وغيرهم.

وإذا كنا ندين العنف بصفة عامة، فنحن ندين الإرهاب بصفة خاصة، لما فيه من اعتداء على أناس ليس لهم أدنى ذنب يؤاخذون به {**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**} [فاطر: 18] ولما فيه من ترويع البرآء الآمنين، وترويعهم في نظر الإسلام ظلم عظيم.

وقد أصدرت فتوى - منذ بضعة عشر عامًا - بتحريم خطف الطائرات، وذلك بعد حادثة خطف الطائرة الكويتية، وبقاء ركابها فيها محبوسين ستة عشر يومًا، كما قتلوا واحدًا أو اثنين من ركابها.

كما أفتيت بتحريم حجز الرهائن والتهديد بقتلهم، إنكارًا على ما اقترفته جماعة «أبو سياف».

وكذلك أصدرت بيانًا - عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر - دنت فيه هذا العمل ومقترفيه، أيا كان دينهم، أو جنسهم أو وطنهم.

وأيضًا دنت الإرهاب بوضوح - في خطبي، ومحاضراتي، ومقالاتي، وكتبي - ومن ذلك: ما ذكرته في كلمتي التي ألقيتها في مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية، الذي عقد في روما في أكتوبر 2001.

ومن ذلك: أن نبحث عن أسباب الإرهاب في العالم، ونجتهد أن نجتثها من جذورها، وأعظم أسباب الإرهاب هو: الظلم والطغيان، والاستكبار في الأرض على الناس المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

ولكن هنا يحق لنا أن نسأل عن العنف والإرهاب: هل هما ظاهرة إسلامية؟ أو هما ظاهرة عالمية؟ فبعض أبواق الإعلام الغربي - ومن يدور في فلكها في ديارنا - تريد أن يبرز الإرهاب، وكأنه مقصور على المسلمين، أو كأن جنسيته إسلامية، وخصوصًا بعد أحداث 11 سبتمبر، وهذا خطأ فاحش، بل ظلم مبين.

لقد وجدنا العنف في أقطار ودول شتى في أنحاء العالم. لقد وجدناه في كل القارات: في بريطانيا، وفي اليابان، وفي أمريكا نفسها، وفي الهند، وفي إسرائيل، فلماذا ألصق بالمسلمين وحدهم دون غيرهم؟ إنه الإعلام الغربي والأمريكي والصهيوني، الذي يكتم الحق، ويشيع الباطل، ويقولون على الناس الكذب وهم يعلمون.

والحق أن أمريكا التي ساندت الدولة التي قامت على الدم والإرهاب من أول يوم، ومن قبل أن تقوم؛ دولة بني صهيون، تمارس هي نوعًا من الإرهاب كما تحدده هي، كما تشاء، وبلا معقب، معلنة أن من ليس معها، فهو مع الإرهاب!

وللأسف هناك جهات إعلامية في الغرب تخلط بين الإرهاب والجهاد، الإرهاب الذي يدينه الإسلام ويرفضه، ولذا فكما بينا الإرهاب المرفوض في الإسلام، نبين معنى الجهاد الذي يفهم خطأ.

كلمة «الجهاد» مثل كلمة «الاجتهاد» كلتاهما مشتقة من كلمة «جهد» ومعناها: بذل «الجهد» وهو الطاقة أو تحمل «الجهد» وهو المشقة.

ولكن «الاجتهاد» يعني: بذل الجهد أو تحمل الجهد العلمي والفكري

لمعرفة أحكام الشرع واستنباطها من أدلتها.

أمام «الجهاد» فهو يعني: بذل الجهد أو تحمل الجهد البدني والنفسي والعملي من أجل الدفاع عن الدين، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

وهو يبدأ بجهاد النفس، ثم جهاد الشيطان، ثم جهاد الظلم والفساد في المجتمع، ثم بجهاد الكفار والمنافقين.

وقد قسم ابن القيم في كتابه الشهير «زاد المعاد» الجهاد إلى ثلاث عشرة مرتبة: أربع منها لجهاد النفس، واثنتان لجهاد الشيطان، وثلاث لجهاد الظلم والفساد والمنكر في المجتمع، وأربع لجهاد الكفار والمنافقين، بالأيدي والألسنة والأموال والقلوب.

وواحدة فقط من هذه الأربع هي التي اشتهرت باسم «الجهاد» وهي قتال الكفار بالسيف أو باليد.

مع أن من تأمل النصوص وجدها تفرق بين مفهوم «الجهاد» ومفهوم «القتال» فكل مسلم يجب أن يكون مجاهدًا، وليس من الضروري أن يكون مقاتلًا، إلا حين يفرض عليه القتال لسبب من الأسباب، كما قال تعالى: **{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ}** [البقرة: 216].

ولقد رأينا القرآن يتحدث عن الجهاد في العهد المكي، قبل أن يشرع القتال، وهو جهاد الدعوة وتبليغ الرسالة وإقامة الحجة، هو «الجهاد البياني» بالقرآن، كما قال تعالى في سورة الفرقان يخاطب رسوله محمدًا **{فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ** «أي بالقرآن» **جِهَادٗا كَبِيرٗا}** [الفرقان: 52] ومثله جهاد الصبر على تبليغ الدعوة، وتحمل الأذى والمحنة في سبيل الله كما قال تعالى

في أوائل سورة العنكبوت: {**أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**} إلى أن قال: {**وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ**} [العنكبوت: 1-6]. فهو جهاد التحمل والثبات على المشاق والعذاب لأجل الدين.

وفي ختام سورة العنكبوت قال تعالى: {**وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ**} [العنكبوت: 69].

فالجهاد هنا سلمي، يعني: جهاد النفس والشيطان، في طاعة الله، وابتغاء مرضاته.

وقد ظل الرسول صصص وأصحابه خلال العهد المكي «مجاهدين» ولم يكونوا «مقاتلين» يتحملون الاضطهاد والحصار، والإيذاء حتى كانوا يأتون إلى الرسول ما بين مشجوج ومضروب ومكسور، ويقولون: ائذن لنا أن نقاتل دفاعًا عن أنفسنا، فيقول لهم: «**كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة**»(55).

حتى كانت الهجرة وأصبح للإسلام دار، وتكونت للمسلمين قاعدة صلبة، فأذن الله للمسليمن الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق أن يدافعوا عن أنفسهم، تقريرًا لحرية التدين، وذودًا عن حرمات الأديان وأماكن العبادة كلها، لليهود والنصارى والمسلمين جميعًا. لنقرأ هذه الآيات: {**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ 39 ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ**

(55) رواه النسائي في «الكبرى» عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي صصص بمكة فقالوا له: يا نبي الله إن كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة! فقال: «**إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم**» (10 / 68).

وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا} [الحج: 39، 40].

ثم أمر المسلمون أن يقاتلوا من يقاتلهم ويكفوا أيديهم عمن يسالمهم، كما قال تعالى: **{وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ}** [البقرة: 190].

{وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ} [البقرة: 193].

والفتنة هي الاضطهاد في الدين من أجل العقيدة، وهو ما اعتبره الإسلام أشد من القتل، وأكبر من القتل، لأن القتل اعتداء على الجسد، والفتنة اعتداء على الفكر والروح.

ويقرر القرآن وجوب القتال لإنقاذ المستضعفين في الأرض من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يجدون لهم وليًا ولا نصيرًا، يقول تعالى: **{وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا}** [النساء: 75].

وفي مقام آخر قال القرآن عن المشركين: **{فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا}** [النساء: 90].

فالإسلام لا يتشوف إلى القتال، ولا يتطلع إلى سفك الدماء، بل إذا انتهت الأزمة بين المسلمين وخصومهم بغير دماء ولا قتال، عقب القرآن بمثل هذه الكلمة المعبرة: **{وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّٗا عَزِيزٗا}** [الأحزاب: 25]. فما أبلغ هذه الكلمة وما أصدقها تعبيرًا عن روح الإسلام السلمية **{وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ}**.

وحين انتهت غزوة الحديبية بالصلح مع قريش، وإقامة الهدنة بين الفريقين، نزلت في ذلك سورة الفتح: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [الفتح: 1]، وقال الصحابة: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: **«نعم هو فتح»**[56] فلم يتصوروا فتحًا بغير حرب.

وفي هذه السورة امتن الله على المؤمنين فقال: **{وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ}** [الفتح: 24] فانظر كيف امتن بكف أيدى المؤمنين عن أعدائهم.

وكان الرسول الكريم - وهو أشجع الناس - لا يحب الحرب، ويقول لأصحابه: **«لا تتمنوا لقاء العدو، وسلموا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»**[57].

وكان يقول: **«أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن ... وأقبح الأسماء: حرب ومرة»**[58].

حتى لفظة «حرب» يكرهها، ولا يحب التسمية بها، كما كان يفعل العرب في الجاهلية، مثل حرب بن أمية.

ومع هذا يُحرض الإسلام على القتال، وبذل النفس والنفيس، إذا انتهكت حرماته، أو حوربت دعوته، أو احتلت أرضه، أو ديست مقدساته، بمثل هذه الآيات: **{أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ**

(56) رواه أبو داود في الجهاد (2359) عن مجمع بن جارية.
(57) رواه البخاري في الجهاد (3026) ومسلم في الجهاد (1742) عن أبي هريرة.
(58) رواه أحمد في «المسند» (19114) وقال محققو «المسند»: حديث صحيح، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (5 / 195)، وسعيد بن منصور في «سننه» (2518).

مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} [التوبة: 13].

وهذه الروح القتالية المستبسلة هي التي يخشاها خصوم الإسلام، ويريدون إخماد جذوتها، أو - على الأقل - إضعافها ما استطاعوا، حتى يستسلم المسلمون لهم، ويرضخوا لإرادتهم وهذا ما لا يكون، ما دام للمسلمين قرآن يتلى، وأحاديث تحفظ، ومنابر تذكر.

وقد حاول الاستعمار من قديم إنشاء نِحَل مثل «القاديانية» تنادي بفكرة: «إلغاء الجهاد» ولكنها أخفقت، ولم تقدر على تغيير جوهر الأمة.

وهذه آثار الروح الجهادية نراها اليوم ماثلة للعيان في الانتفاضة الفلسطينية، والمقاومة الباسلة، التي أذهلت العالم بما قدمت من بطولات وتضحيات وشهداء، رغم ضعف الإمكانات وقلة الناصرين.

لكنه برغم هذا لا يغلق الأبواب في وجه المسالمة والمصالحة، إذا تهيأت أسبابها، فقال تعالى: **{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ}** [الأنفال: 61].

والجهاد في الإسلام تحكمه «أخلاقيات» صارمة ملزمة، فلا يجيز إلا قتل من يقاتل، ولا يقتل النساء ولا الولدان والشيوخ الكبار، ولا الرهبان ولا الفلاحون أو التجار، ولا يجيز الغدر ولا التمثيل بالجثث، ولا قطع الأشجار، ولا هدم الأبنية، ولا تسميم الآبار، ولا يتبع ما يسمونه: سياسة الأرض المحروقة.

وهذا ما شهد به المؤرخون للمسلمين في فتوحهم - التي كانت في حقيقتها تحريرًا للشعوب من طغيان الإمبراطوريات القديمة «الفرس والروم» -

وقالوا: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب، أي المسلمين.

كيف نفهم آيات القتال؟

ومن قرأ القرآن بتدبر، وضم آياته بعضها إلى بعض، تبين له أنه إنما شرع القتال لمن يقاتل المسلمين، أو يعتدي على حرماتهم، أو على المستضعفين من عباد الله، كما نرى في هذه الآيات:

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ 39 ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ} [الحج: 39، 40].

{وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ 190 وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ} [البقرة: 190، 191].

{فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا} [النساء: 90].

{أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ} [التوبة: 13].

{وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ} [التوبة: 36].

{وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا} [النساء: 75].

ليس القتال لإكراه الناس على الإسلام:

وليس القتال في الإسلام لإكراه الناس على الدخول في الإسلام. فالإسلام يرفض بصورة قاطعة الإكراه في الدين.

يقول تعالى في القرآن المكي: **{أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** [يونس: 99].

ويقول القرآن المدني: **{لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ}** [البقرة: 256].

بل هذا الرفض للإكراه مقرر من عهد نوح شيخ المرسلين **{أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ}** [هود: 28].

والقرآن لا يعتبر الإيمان إيمانًا إلا إذا نشأ عن اختيار حر، وإلا رفض، مثل إيمان فرعون حينما أدركه الغرق **{قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ}** فكان الرد الإلهي عليه: **{ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ}** [يونس: 91].

وكذلك رفض القرآن إيمان الأمم التي تعلن الإيمان حين ينزل بها بأس الله وعقوبته **{فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ 84 فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ}** [غافر: 84، 85].

القتال إذن ليس لكفر الكفار، فالكفر واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته.

وتعدد الأديان أمر مفروغ منه في عقيدة المسلم، **{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** [يونس: 99]. **{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 119 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}** [هود: 118، 119]. أي خلقهم ليختلفوا، ما دام قد أعطى كلًا منهم العقل والإرادة.

القتال لمنع الفتنة في الدين:

وشرع الإسلام القتال كذلك لمنع الفتنة في الدين، كما قال تعالى: **{وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}** [الأنفال: 39].

والفتنة هي: مصادرة حرية الناس واضطهادهم من أجل عقيدتهم، مثل «أصحاب الأخدود» الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات. والقرآن يعتبر هذه الفتنة للناس أشد من القتل، وأكبر من القتل، لأن القتل يتلف الجسم، والفتنة تتلف العقل والإرادة، وهما حقيقة الإنسان. ولذا رد القرآن على المشركين الذين أعظموا القتال في الشهر الحرام، وقد وقع خطأ من بعض المسلمين، في حين أنهم هونوا من صدهم عن سبيل الله، وإخراج الناس من ديارهم وفتنتهم في دينهم، فقال تعالى: **{يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ}** [البقرة: 217].

ومعنى هذا أن الإسلام يشرع القتال، ليهيئ مناخ الحرية للناس، ليؤمن من آمن عن إرادة واختيار حر، ولا يخشى الفتنة في دينه، والاضطهاد من أجل

عقيدته[59].

* * *

(59) للمزيد من هذا يراجع كتابنا «فقه الجهاد» تحت الطبع.

7 - جريمة الردة وعقوبة المرتد

من أبرز الشبهات التي يثيرها الغربيون وتلاميذهم وفروخهم حول الإسلام: موقف الإسلام من الردة والمرتدين عنه، فهو لا يسمح لأحد أن يتركه بعد أن دخل فيه، ومن فعل ذلك حكم عليه بالقتل. وكأن الإسلام بذلك يكره الناس على البقاء فيه، ويسجنهم في قفصه بغير اختيارهم، وإلا أطار رؤوسهم بحد السيف، كما قاتل أبو بكر الخليفة الأول والصحابة معه في حرب المرتدين من قبائل العرب.

وهذا ما جعل بعض الكتاب المحدثين والمعاصرين ينكرون حد الردة أو عقوبة الردة ويقولون: إنها لم ترد في القرآن، كما ورد حد السرقة، وحد الزنى، وحد القذف، وحد الحرابة. بل ليس في القرآن آية واحدة تشير إلى عقوبة المرتد!

بل ورد في القرآن ما يؤكد حرية الأفراد في اختيار دينهم، كما قال تعالى: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ 21 لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}** [الغاشية: 21، 22]، **{نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ}** [ق: 45]، **{أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** [يونس: 99].

ويقول هؤلاء الكتاب المتحررون: إن كل ما ورد في الردة من الأحاديث: حديث واحد، لا ثاني له، وهو الذي يقول: **«من بدل دينه فاقتلوه»**[60]. ومثل هذا الحديث لا يقاوم ظاهر القرآن، ولا يشرع هذا الحكم الخطير، وهو «قتل

(60) رواه البخاري في استتابة المرتدين(6922) عن ابن عباس.

المرتد»، وهو عقوبة على جريمة فردية تعتبر من جرائم الرأي، وإعمال العقل. فهل يحظر على الإنسان أن يفكر وأن يُغيّر موقفه بناء على تفكيره؟

والجواب: أن هذه الشبهات أو التساؤلات تشتمل على أغلاط أو مغالطات كثيرة، فليست «الردة» مجرد جريمة فردية لا أثر لها في المجتمع، وليست بجريمة هينة الأثر والخطر، وليست مجرد رأي يختاره المسلم بدل رأي آخر.

كما أنه ليس صحيحًا أن القرآن ليس فيه آية واحدة تشير إلى عقوبة المرتد، فهذا من سوء الفهم للقرآن، ومن القصور في استيعاب آياته وأحكامه.

وكذلك ليس بصحيح أن السنة النبوية لم يجئ فيها بشأن الردة إلا حديث واحد، فهذا ناشئ عن الجهل بالسنة، والقصور في الإحاطة بمصادرها، وهي ميسورة لمن يطلبها من الباحثين الجادين.

كما أن عقوبة القتل للمرتد ليست مجمعًا عليها، فهناك من الفقهاء - كالنخعي والثوري - من لم ير القتل لازمًا، ورأى أن المرتد يستتاب أبدًا. وهو مروي عن الفاروق عمر.

خطر الردة على المجتمع المسلم:

لقد بينا في دراسة[61] لنا: أن أشد ما يواجه المسلم من الأخطار: ما يهدد وجوده المعنوي، أي ما يهدد عقيدته، ولهذا كانت الردة عن الدين - الكفر بعد الإسلام - أشد الأخطار على المجتمع المسلم. وكان أعظم ما يكيد له أعداؤه

(61) هي: «جريمة الردة وعقوبة المرتد في ضوء الكتاب والسنة»، نشر مكتبة وهبة القاهرة، مؤسسة الرسالة ببيروت.

أن يفتنوا أبناءه عن دينهم بالقوة والسلاح أو بالمكر والحيلة. كما قال تعالى: **{وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ}** [البقرة: 217].

وفي عصرنا تعرض المجتمع المسلم لغزوات عنيفة، وهجمات شرسة، تهدف إلى اقتلاعه من جذوره، تمثلت في الغزو التنصيري، الذي بدأ مع الاستعمار الغربي، والذي لا يزال يمارس نشاطه في العالم الإسلامي، وفي الجاليات والأقليات الإسلامية، ومن أهدافه: تنصير المسلمين في العالم، كما وضح ذلك في مؤتمر «كلورادو» الذي عقد هناك سنة 1978. وقُدمت له أربعون دراسة حول الإسلام والمسلمين، وكيفية نشر النصرانية بينهم. ورصد لذلك ألف مليون دولار، وأسس لذلك معهد «زويمر» لتخريج المتخصصين في تنصير المسلمين.

كما تمثلت في الغزو الشيوعي الذي اجتاح بلادًا إسلامية كاملة في آسيا، وفي أوروبا، وعمل بكل جهد لإماتة الإسلام، وإخراجه من الحياة نهائيًا، وتنشئة أجيال لا تعرف من الإسلام كثيرًا ولا قليلًا.

وثالثة الأثافي: الغزو العلماني اللاديني، الذي لا يبرح يقوم بمهمته إلى اليوم في قلب ديار الإسلام، يستعلن حينًا، ويستخفي أحيانًا، يطارد الإسلام الحق، ويحتفي بالإسلام الخرافي، ولعل هذا الغزو هو أخبث تلك الأنواع وأشدها خطرًا.

وواجب المجتمع المسلم - لكي يحافظ على بقائه - أن يقاوم الردة من أي مصدر جاءت، وبأي صورة ظهرت، ولا يدع لها الفرصة، حتى تمتد وتنتشر، كما تنتشر النار في الهشيم.

هذا ما صنعه أبو بكر والصحابة رررت معه، حين قاتلوا أهل الردة، الذين اتبعوا الأنبياء الكذبة: مسيلمة وسجاح والأسدي، والعنسي، وغيرهم، والذين كادوا يقضون على الإسلام في مهده.

ومن الخطر كل الخطر: أن يُبتلى المجتمع المسلم بالمرتدين المارقين، وتشيع بين جنباته الردة التي ذاعت في هذا العصر، وغزت أفكار أبنائه، حتى شككتهم في شريعتهم، ولا تجد من يقاومها. وهو ما عبر عنها أحد الدعاة المرموقين بقوله: «ردة ولا أبا بكر لها»[62]!.

ولا بد من مقاومة الردة الفردية وحصارها، حتى لا تتفاقم ويتطاير شررها، وتغدو ردة جماعية، فمعظم النار من مستصغر الشرر.

إجماع الفقهاء على عقوبة المرتد:

ومن ثم أجمع فقهاء الإسلام - على عقوبة المرتد - وإن اختلفوا في تحديدها - وجمهورهم على أنها القتل، وهو رأي المذاهب الأربعة، بل الثمانية.

القرآن وعقوبة المرتد:

وأود أن أقرر هنا: أنه ليس صحيحًا أن القرآن خلا من أي آية تشير إلى عقوبة المرتد في الدنيا. وليس فيه إلا قوله وتعالى: **{وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ}** [البقرة: 217].

(62) عنوان رسالة لطيفة للعلامة أبي الحسن الندوي.

وهذه الآية في ذاتها تجرم الردة، وتعتبرها موجبة للخلود في النار، وهذا لا يكون إلا في الجرائم الكبرى.

ثم إن من علماء السلف كأبي قلابة وغيره، من قال: إن آية «الحرابة» في سورة المائدة نزلت في شأن المرتدين، وهي قوله تعالى: **{إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** [المائدة: 33].

كما أن قوله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ}** [المائدة: 54] فالآية تشير بوضوح إلى أن من سنة الله تعالى: ألا يدع المرتدين يعيشون في الأرض فسادًا، ولا يقاومهم أحد، بل من شأنه تعالى أن يهيئ لهم قومًا من أهل الإيمان والجهاد يقاومون ردتهم، ويعيدونهم إلى حظيرة الإيمان.

وأما السنة فقد وردت فيها جملة أحاديث صحيحة عن عدد من الصحابة؛ عن ابن عباس وأبى موسى ومعاذ وعلي وعثمان وابن مسعود وعائشة وأنس وأبي هريرة ومعاوية بن حيدة. وقد جاءت بصيغ مختلفة وليس حديثًا واحدًا كما زعم بعضهم.

استتابة المرتد وجوبًا:

على أن جمهور الفقهاء الذين قالوا بقتل المرتد أوجبوا أن يستتاب قبل ذلك، وأن يناقش، ويعرف ما عنده ويرد عليه، وتفند شبهاته، ويزال عذره،

ومن تاب قبلت توبته بلا ريب.

من الفقهاء من لم ير قتل المرتد:

ومع أن الجمهور قالوا بقتل المرتد، فقد ورد عن عمر بن الخطاب ما يخالف ذلك:

روى عبد الرزاق والبيهقي وابن حزم: أن أنسًا عاد من «تستر» فقدم على عمر فسأله، ما فعل الستة الرهط من بكر بن وائل، الذين ارتدوا عن الإسلام، فلحقوا بالمشركين؟ قال: يا أمير المؤمنين، قوم ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بالمشركين، قُتلوا بالمعركة. فاسترجع عمر «أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون» قال أنس: وهل كان سبيلهم إلا القتل؟ قال: نعم، كنت أعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أودعتهم السجن(63).

ومعنى هذا الأثر: أن «عمر» لم ير عقوبة القتل لازمة للمرتد في كل حال، وأنها يمكن أن تسقط أو تؤجل، إذا قامت ضرورة لإسقاطها أو تأجيلها. والضرورة هنا: حالة الحرب، وقرب هؤلاء المرتدين من المشركين وخوف الفتنة عليهم، ولعل عمر قاس هذا على ما جاء عن النبي صصص في قوله: **«لا تقطع الأيدي في الغزو»**(64)، وذلك خشية أن تدرك السارق الحمية فيلحق بالعدو.

---

(63) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (10 / 165)، الأثر (18696)، والبيهقي في «السنن» (8 / 207)، وسعيد منصور (ج3 رقم 2573)، وابن حزم في «المحلى» (11 / 221)، مطبعة الإمام.

(64) رواه الترمذي في الحدود (1450)، وأبو داود في الحدود (4408) عن بسر بن أرطاة، وذكره الألباني في «صحيح الترمذي» (1174).

وهناك احتمال آخر: وهو أن يكون رأى «عمر» أن النبي صصص حين قال: «**من بدل دينه فاقتلوه**» قالها بوصفه إمامًا للأمة، ورئيسًا للدولة، أي أن هذا قرار من قرارات السلطة التنفيذية، وعمل من أعمال السياسة الشرعية وليس فتوى وتبليغًا عن الله، تلزم به الأمة في كل زمان ومكان وحال. فيكون قتل المرتد وكل من بدل دينه، من حق الإمام، ومن اختصاصه وصلاحية سلطته، فقد يرى عقوبته بالسجن، وقد يرى عقوبته بالقتل، فإذا أمر بذلك نفذ، وإلا فلا.

على نحو ما قال الحنفية والمالكية في حديث: «**من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سلبه**»[65]، وما قال الحنفية في حديث: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»[66].

وهذا هو قول إبراهيم النخعي، وكذلك قال الثوري: هذا الذي نأخذ به[67].

وفي لفظ له: يؤجل ما رجبت توبته[68].

والذي أراه: أن العلماء فرقوا في أمر البدعة بين المغلظة والمخففة، كما فرقوا في المبتدعين بين الداعية وغير الداعية. وكذلك يجب أن نفرق في أمر الردة بين الغليظة والخفيفة، وفي أمر المرتدين بين الداعية وغير الداعية.

---

(65) رواه البخاري في الجهاد برقم (4321)، ومسلم في الجهاد رقم (1751) عن أبي قتادة.

(66) رواه أحمد في «مسنده» (14361) عن سعيد بن زيد، وقال محققو «المسند»: حديث صحيح، ورواه النسائي في «الكبرى» (5756)، وابن حبان (5203) بلفظ: «**من أحيا أرضًا ميتة له بها أجر**».

انظر كتابنا: «الخصائص العامة للإسلام» (ص217).

(67) «المصنف» (ج10، الأثر 18697).

(68) ذكره ابن تيمية في «الصارم المسلول» (ص321).

فما كان من الردة مغلظًا وكان المرتد داعية إلى بدعته بلسانه أو بقلمه، فالأولى في مثله التغليظ في العقوبة، والأخذ بقول جمهور الأمة، وظاهر الأحاديث، استئصالًا للشر، وسدًا لباب الفتنة، وإلا فيمكن الأخذ بقول النخعي والثوري، وهو ما روي عن الفاروق عمر.

إن المرتد الداعية إلى الردة ليس مجرد كافر بالإسلام، بل هو حرب عليه وعلى أمته، فهو مندرج ضمن الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، والمحاربة - كما قال ابن تيمية - نوعان: محاربة باليد، ومحاربة باللسان، والمحاربة باللسان في باب الدين، قد تكون أنكى من محاربة باليد، ولذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقتل من كان يحاربه باللسان، مع استبقائه بعض من حاربه باليد. وكذلك الإفساد قد يكون باليد، وقد يكون باللسان، وما يفسده اللسان من الأديان أضعاف ما تفسده اليد ... فثبت أن محاربة الله ورسوله باللسان أشد، والسعي في الأرض بالفساد باللسان أوكد» انتهى[69].

والقلم أحد اللسانين، كما قال الحكماء، بل ربما كان القلم أشد من اللسان وأنكى، ولا سيما في عصرنا، لإمكان نشر ما يُكتب على نطاق واسع.

ويشتد خطر الردة إذا اتخذت اتجاهًا جميعًا، فإنها تصبح مهددة للأمة في وجودها.

هذا إضافة إلى أن المرتد المصر على ردته محكوم عليه بالإعدام الأدبي من الجماعة المسلمة، فهو محروم من ولائها وحبها ومعاونتها، فالله تعالى

---

(69) انظر: «الصارم المسلول» لابن تيمية (ص385).

يقول: **{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}** [المائدة: 51]، وهذا أشد من القتل الحسي عند ذوى العقول والضمائر من الناس.

سر التشديد في عقوبة الردة:

وسر هذا التشديد في مواجهة الردة: أن المجتمع المسلم يقوم - أول ما يقوم - على العقيدة والإيمان، فالعقيدة أساس هويته، ومحور حياته، وروح وجوده. ولهذا لا يسمح لأحد أن ينال من هذا الأساس، أو يمس هذه الهوية.

ومن هنا كانت «الردة المعلنة» كبرى الجرائم في نظر الإسلام؛ لأنها خطر على شخصية المجتمع وكيانه المعنوي، وخطر على الضرورية الأولى من الضروريات الخمس «الدين والنفس والنسل والعقل والمال» والدين أولها، لأن المؤمن يضحي بنفسه ووطنه وماله من أجل دينه.

والإسلام لا يُكره أحدًا على الدخول فيه، ولا على الخروج من دينه إلى دين ما، لأن الإيمان المعتد به هو ما كان عن اختيار واقتناع. وقد قال تعالى في القرآن المكي: **{أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** [يونس: 99]، وفي القرآن المدني: **{لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ}** [البقرة: 256].

ولكنه لا يقبل أن يكون الدين ألعوبة، يدخل فيه اليوم ويخرج منه غدًا، على طريقة بعض اليهود الذين قالوا: **{ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [آل عمران: 72].

ولا يعاقب الإسلام بالقتل المرتد الذي لا يجاهر بردته، ولا يدعو إليها غيره، ويدع عقابه إلى الآخرة إذا مات على كفره، كما قال تعالى: **{وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ**

وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [البقرة: 217]. وقد يعاقب عقوبة تعزيرية مناسبة إذا عرفت ردته.

إنما يعاقب المرتد المجاهر، وبخاصة الداعية للردة، حماية لهوية المجتمع، وحفاظًا على أسسه ووحدته، ولا يوجد مجتمع في الدنيا إلا وعنده أساسيات لا يسمح بالنيل منها، مثل: الهوية والانتماء والولاءن فلا يقبل أي عمل لتغيير هوية المجتمع، أو تحويل ولائه لأعدائه، وما شابه ذلك.

ومن أجل هذا: اعتبرت الخيانة للوطن، وموالاة أعدائه - بإلقاء المودة إليهم، وإفشاء الأسرار لهم - جريمة كبرى. ولم يقل أحد بجواز إعطاء المواطن حق تغيير ولائه الوطني لمن يشاء، ومتى شاء.

والردة ليست مجرد موقف عقلي، بل هي أيضًا تغيير للولاء، وتبديل للهوية، وتحويل للانتماء. فالمرتد ينقل ولاءه وانتمائه من أمة إلى أمة أخرى، ومن وطن إلى وطن آخر، أي من دار الإسلام إلى دار أخرى. فهو يخلع نفسه من أمة الإسلام، التي كان عضوًا في جسدها، وينضم بعقله وقلبه وإرادته إلى خصومها. ويعبر عن ذلك الحديث النبوي بقوله: «**التارك لدينه، المفارق للجماعة**»[70] كما في حديث ابن مسعود المتفق عليه، وكلمة «المفارق للجماعة» وصف كاشف لا منشئ فكل مرتد عن دينه مفارق للجماعة.

ومهما يكون من جُرمه، فنحن لا نشق عن قلبه، ولا نتسور عليه بيته، ولا

---

(70) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1091)، رواه البخاري في الديات (6878)، ومسلم في القسامة والمحاربين (1676) عن ابن مسعود.

نحاسبه إلا على ما يعلنه جهرة بلسانه، أو قلمه أو فعله، مما يكون كفرًا بواحًا صريحًا، لا مجال فيه لتأويل أو احتمال، فأي شك في ذلك يفسر لمصلحة المتهم بالردة.

إن التهاون في عقوبة المرتد المعالن الداعية، يعرض المجتمع كله للخطر، ويفتح عليه باب فتنة لا يعلم عواقبها إلا الله سبحانه، فلا يلبث المرتد أن يغرر بغيره، وخصوصًا الضعفاء والبسطاء من الناس، وتتكون جماعة مناوئة للأمة، تسبيح لنفسها الاستعانة بأعداء الأمة عليها، وبذلك تقع في صراع وتمزق فكري واجتماعي وسياسي، قد يتطور إلى صراع دموي، بل حرب أهلية، تأكل الأخضر واليابس.

وهذا ما حدث بالفعل في أفغانستان: مجموعة محدودة مرقوا من دينهم، واعتنقوا العقيدة الشيوعية بعد أن درسوا في روسيا، وجُندوا في صفوف الحزب الشيوعي، وفي غفلة من الأمة وثبوا على الحكم، وطفقوا يغيرون هُوية المجتمع كله، بما تحت أيديهم من سلطات وإمكانات، ولم يسلم أبناء الشعب الأفغاني لهم، بل قاوموا ثم قاوموا، واتسعت المقاومة، التي كونت الجهاد الأفغاني الباسل، ضد المرتدين الشيوعيين، الذين لم يبالوا أن يستنصروا على أهليهم وقومهم بالروس، يدكون وطنهم بالدبابات، ويقذفونه بالطائرات، ويدمرونه بالقنابل والصواريخ، وكانت الحرب الأهلية، التي استمرت عشر سنوات، وكان ضحاياها الملايين من القتلى والمعوقين والمصابين واليتامى والأرامل والتكالى، والخراب الذي أصاب البلاد، وأهلك الزرع والضرع.

كل هذا لم يكن إلا أثرًا للغفلة عن المرتدين، والتهاون في أمرهم،

والسكوت على جريمتهم في أول الأمر، ولو عوقب هؤلاء المارقون الخونة، قبل أن يستفحل أمرهم، لوقى الشعب والوطن شروه هذه الحروب الضروس وآثارها المدمرة على البلاد والعباد، والتي لا تزال أفغانستان المسكينة تعاني ويلاتها وآثارها إلى اليوم.

أمور مهمة تجب مراعاتها:

والذي أريد أن أذكره هنا جملة أمور:

الأول: أن الحكم بِردَّة مسلم عن دينه أمر خطير جدًا، يترتب عليه حرمانه من كل ولاء وارتباط بالأسرة والمجتمع، حتى إنه يُفرق بينه وبين زوجه وأولاده، إذ لا يحل لمسلمة أن تكون في عصمة كافر مرتد، كما أن أولاده لم يعد مؤتمنًا عليهم، فضلًا عن العقوبة المادية التي أجمع عليها الفقهاء في جملتها.

لهذا وجب الاحتياط كل الاحتياط عند الحكم بتكفير مسلم ثبت إسلامه؛ لأنه مسلم بيقين، فلا يُزال اليقين بالشك.

ومن أشد الأمور خطرًا: تكفير من ليس بكافر، وقد حذرت من ذلك السنة النبوية، أبلغ التحذير.

وقد كتبت في ذلك رسالة «ظاهرة الغلو في التكفير» لمقاومة تلك الموجة العاتية، التي انتشرت في وقت ما: التوسع في التكفير، ولا يزال يوجد من يعتنقها في كثير من بلاد الإسلام.

الثاني: أن الذي يملك الفتوى بردة امرئ مسلم، هم الراسخون في العلم، من أهل الاختصاص، الذين يميزون بين القطعي والظني، وبين المحكم

والمتشابه، وبين ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل، فلا يكفرون إلا بما لا يجدون له مخرجًا، مثل: إنكار المعلوم من الدين بالضرورة، أو وضعه موضع السخرية من عقيدة أو شريعة، ومثل سب الله تعالى ورسوله وكتابه علانية وقصدًا، ونحو ذلك.

ولا يجوز ترك مثل هذا الأمر إلى المتسرعين أو الغلاة، أو قليلي البضاعة من العلم، ليقولوا على الله ما لا يعلمون.

الثالث: أن الذي ينفذ هذا هو ولي الأمر الشرعي، بعد حكم القضاء الإسلامي المختص، الذي لا يحتكم إلا إلى شرع الله زززز، ولا يرجع إلا إلى المحكمات البينات من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صصص، وهما اللذان يرجع إليهما إذ اختلف الناس: **{فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ}** [النساء: 59].

والأصل في القاضي في الإسلام أن يكون من أهل الاجتهاد، فإذا لم يتوافر فيه ذلك استعان بأهل الاجتهاد، حتى يتبين له الحق، ولا يقضي على جهل، أو يقضي بالهوى، فيكون من قضاة النار.

الرابع: أن جمهور الفقهاء قالوا بوجوب استتابة المرتد، قبل تنفيذ العقوبة فيه. بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: هو إجماع الصحابة رررت، وبعض الفقهاء حددها بثلاثة أيام، وبعضهم بأقل، وبعضهم بأكثر، ومنهم من قال: يستتاب أبدًا. واستثنى بعضهم الزنديق، لأنه يُظهر غير ما يبطن، فلا توبة له، وكذلك ساب الرسول صصص، لحرمة رسول الله وكرامته، فلا تُقبل منه توبة، وألف ابن تيمية

كتابه في ذلك.

والمقصود بذلك إعطاؤه الفرصة ليراجع نفسه، عسى أن تزول عنه الشبهة، وتقوم عليه الحجة، إن كان يطلب الحقيقة بإخلاص، إن كان له هوى، أو يعمل لحساب آخرين، يوليه الله ما تولى. ومن هنا نقول: إن إعطاء عامة الأفراد حق الحكم على شخص بالردة، ثم الحكم عليه باستحقاق العقوبة، وتحديدها بأنها القتل لا غير، وتنفيذ ذلك بلا هوادة يحمل خطورة شديدة على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم، لأن مقتضى هذا: أن يجمع الشخص العادي - الذي ليس له علم أهل الفتوى، ولا حكمة أهل القضاء، ولا مسئولية أهل التنفيذ - سلطات ثلاثًا في يده: يفتي - وبعبارة أخرى: يتهم - ويحكم وينفذ، فهو الإفتاء والادعاء، والقضاء والشرطة جميعًا!!.

* * *

8 - المرأة إنسانًا[71]

جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانية المرأة، وآخرون يرتابون فيها، وغيرهم يعترف بإنسانيتها، ولكنه يعتبرها مخلوقًا خُلق لخدمة الرجل.

فكان من فضل الإسلام أنه كرم المرأة، وأكد إنسانيتها، وأهليتها للتكليف والمسئولية والجزاء ودخول الجنة، واعتبرها إنسانًا كريمًا، له كل ما للرجل من حقوق إنسانية. لأنهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء.

فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكليف والمسئولية، متساويان في الجزاء والمصير.

وفي ذلك يقول القرآن: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا}** [النساء: 1].

وإذا كان الناس - كل الناس - رجالًا ونساء، خلقهم ربهم من نفس واحدة، وجعل من هذه النفس زوجًا تكملها وتكتمل بها كما قال في آية أخرى: **{وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا}** [الأعراف: 189]، وبث من هذه الأسرة الواحدة رجالًا كثيرًا ونساء، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد لأب واحد وأم واحدة، فالأخوة تجمعهم.

---

(71) للمزيد راجع ما ذكرناه عن تكريم الإسلام للمرأة في كتابنا: «مركز المرأة في الحياة الإسلامية» وما ذكرناه كذلك في كتابنا «فتاوى معاصرة» في أجزائه الثلاثة.

ولهذا أمرت الآية الناس بتقوى الله - ربهم - ورعاية الرحم الواشجة بينهم: **{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ}**

فالرجل - بهذا النص - أخو المرأة، والمرأة شقيقة الرجل. وفي هذا قال الرسول صصص: **«إنما النساء شقائق الرجال»**[72].

وفي مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة، يقول القرآن: **{إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا}** [الأحزاب: 35].

وفي التكاليف الدينية والاجتماعية الأساسية يسوي القرآن بين الجنسين بقوله: **{وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ}** [التوبة: 71].

وفي قصة آدم توجه التكليف الإلهي إليه وإلى زوجه سواء: **{يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}** [البقرة: 35].

ولكن الجديد في هذه القصة - كما ذكرها القرآن - أنها نسبت الإغواء إلى

---

(72) رواه أحمد (26195) وقال مخرجو «المسند»: حسن لغيره، ورواه أبو داود (236)، والترمذي (113)، وابن ماجه (622) والبيهقي في «الكبرى (1 / 268)، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (1983).

الشيطان لا إلى حواء - كما فعلت التوراة - : **{فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}** [البقرة: 36].

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معًا، كما كان الندم والتوبة منهما جميعًا: **{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23].

بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: **{وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا}** [طه: 115]، **{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ}** [طه: 120]، **{وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ}** [طه: 121]. كما نسب إليه التوبة وحده أيضًا: **{ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ}** [طه: 122] مما يفيد أنه الأصل في المعصية، والمرأة له تبع.

ومهما يكن الأمر فإن خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها منها براء من إثمها، ولا تزر وازرة وزر أخرى: **{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ}** [البقرة: 134، 141]

وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء ودخول الجنة يقول الله تعالى: **{فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ}** [آل عمران: 195].

فنص القرآن في صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، سواء أكان العامل ذكرًا أو أنثى، فالجميع بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة. ويقول: **{فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ}** [النحل: 97]، **{وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**

فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا} [النساء: 124].

وفي الحقوق المالية المرأة: أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم - عربًا وعجمًا - من حرمان النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهن في التصرف فيما يملكن، واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة. فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن ... وغير ذلك من العقود والأعمال.

ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها - كالدفاع عن نفسها - بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة.

كما جعل للمرأة حق طلب العلم كالرجل، بل الواقع أنه اعتبر طلب العلم فريضة عليها. كما جاء في الحديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[73] والمراد: كل إنسان مسلم، رجلًا كان أو امرأة، وهذا بالإجماع.

وكذلك للمرأة حق صلاة الجماعة في المسجد، فهي مطالبة بالفرائض والعبادات كما يطالب الرجل: الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر أركان الإسلام، وهي مثابة عليها كما يثاب الرجل، وهي معاقبة على تركها كما يعاقب الرجل، وهي مطالبة بالواجبات الاجتماعية كما يطالب الرجل، كما في

---

(73) رواه أحمد في «المسند» (26892) عن عائشة، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه الترمذي (1579)، والنسائي في «الكبرى» (4684)، وذكره الألباني في «صحيح ابن ماجه» (183).

قولـه تعـالى: {وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ} [التوبة: 71].

ومـن حقهـا أن تجير مـن استجار بهـا، وأن تُحتـرم إجارتهـا، كمـا فعلـت أم هانئ بنت أبي طالب يوم فتح مكة، فقد أجارت بعض المشركين من أحمائها، وأراد أحد إخوتها أن يقتله، فشكت ذلك إلى النبي صصص، وقالت: يا رسول الله؛ زعم ابن أمي أنه قاتل رجلًا قد أجرته: فلان بن هبيرة! فقال رسول الله صصص: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»(74).

شبهات مردودة:

وهنـا تعـرض لـبعض النـاس شـبهات، وتـدور فـي خـواطرهم أسئلة حـول إنسانية المرأة، ومنزلتها في الإسلام، نعرض لأهمها، ونجيب عنها إن شاء الله.

حكمة تمييز الرجل عن المرأة في بعض الأحكام:

ومن هذه الأسئلة: إذا كان الإسلام قد اعتبر إنسانية المرأة مساوية لإنسانية الرجل، فما باله فضل الرجل عليها في بعض المواقف والأحوال. كما في الشهادة، والميراث، والدية، وقوامة المنزل، ورياسة الدولة، وبعض الأحكام الجزئية الأخرى؟

والواقـع أن تمييـز الرجـل عـن المـرأة فـي هـذه الأحكـام، لـيس لأن جـنس الرجل أكرم عند الله وأقرب إليه من جنس المرأة. فإن أكرم الناس عند الله

(74) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (193)، رواه البخاري في الصلاة (357)، ومسلم في الحيض (335) عن أم هانئ.

أتقاهم - رجلًا كان أو امرأة - كما قال الله تعالى في كتابه: **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ}** [الحجرات: 13]. ولكن هذا التمييز اقتضته الوظيفة التي خصصتها الفطرة السليمة لكل من الرجل والمرأة. كما سنوضح ذلك فيما يلي:

شهادة المرأة وشهادة الرجل:

جاء في القرآن في آية المداينة التي أمر الله فيها بكتابة الدين والاحتياط له: **{وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ}** [البقرة: 282]. وبهذا جعل القرآن شهادة الرجل تساوي شهادة امرأتين. كما قرر جمهور الفقهاء أن شهادة النساء لا تقبل في الحدود والقصاص.

والحمد لله أن هذا التفاوت ليس لنقص إنسانية المرأة أو كرامتها، بل لأنها - بفطرتها واختصاصها - لا تشتغل عادة بالأمور المالية والمعاملات المدنية. إنما يشغلها ما يشغل النساء - عادة - من شئون البيت إن كانت زوجة، والأولاد إن كانت أمًا، والتفكير في الزواج إن كانت أيمًا، ومن ثم تكون ذاكرتها أضعف في شئون المعاملات. لهذا أمر الله تعالى أصحاب الدين إذا أرادوا الاستيثاق لديونهم أن يشهدوا عليها رجلين أو رجلًا وامرأتين. وعلل القرآن ذلك بقوله: **{أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ}**.

ومثل ذلك ما ذهب إليه كثير من الفقهاء الذين لم يعتبروا شهادة النساء في الحدود والقصاص ... بعدًا بالمرأة عن مجاملات الاحتكاك، ومواطن الجرائم، والعدوان على الأنفس والأعراض والأموال. فهي - إن شهدت هذه

الجرائم - كثيرًا ما تغمض عينيها، وتهرب صائحة مولولة، ويصعب عليها أن تصف هذه الجرائم بدقة ووضوح، لأن أعصابها لا تحتمل التدقيق في مثل هذه الحال.

ولهذا يرى هؤلاء الفقهاء أنفسهم الأخذ بشهادة المرأة - ولو منفردة - فيما هو من شأنها واختصاها، كشهادتها في الرضاع والبكارة والثيوبة والحيض والولادة، ونحو ذلك مما كان يختص بمعرفة النساء في العصور السابقة.

على أن هذا الحكم غير مجمع عليه، فمذهب عطاء - من أئمة التابعين - إلى الأخذ بشهادة النساء.

ومن الفقهاء من يرى الأخذ بشهادة النساء في الجنايات في المجتمعات التي لا يكون فيها الرجال عادة مثل حمامات النساء، والأعراس، وغير ذلك مما اعتاد الناس أن يجعلوا فيه للنساء أماكن خاصة، فإذا اعتدت إحداهن على أخرى بقتل أو جرح أو كسر، وشهد عليها شهود منهن، فهل تهدر شهادتهن لمجرد أنهن إناث؟ أو تطلب شهادة الرجال في مجتمع لا يحضرون فيه عادة؟

الصحيح أن تعتبر شهادتهن ما دمن عادلات ضابطات واعيات.

وقال شيخنا العلامة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق تعليقًا على قوله تعالى: **{فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ}** [البقرة: 282] هذا ليس واردًا في مقام الشهادة التي يقضي بها القاضي ويحكم، وإنما هو وارد في مقام الإرشاد طرق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ}** ... إلى أن قال:

{وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ} [البقرة: 282]، فالمقام مقام استيثاق على الحقوق، لا مقام قضاء بها.

والآية ترشد إلى أفضل الأنواع الاستيثاق الذي تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما.

وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل، لا يثبت بها الحق، ولا يحكم بها القاضي، فإن أقصى ما يطلبه القضاء، هو «البينة»، وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة في الشرع أعم من الشهادة، وأن كل ما يُتبين به الحق ويظهره، هو بينة يقضي بها القاضي ويحكم. ومن ذلك يحكم القاضي بالقرائن القطعية، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها. واعتبار المرأتين في الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها الذي يتبع نقص إنسانيتها ويكون أثرًا له، وإنما هو لأن المرأة - كما قال الأستاذ الشيخ محمد عبده -: «ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعارضات، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها، فإنها فيها أقوى من ذاكرة الرجل، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويمارسونها، ويكثر اشتغالهم بها».

والآية جاءت على ما كان مألوفًا في شأن المرأة، ولا يزال أكثر النساء كذلك، ولا يشهدن مجالس المداينات ولا يشغلن بأسواق المبايعات، واشتغال بعضهن بذلك لا ينافي هذا الأصل الذي تقضي به طبيعتها في الحياة. وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون في بيئة يغلب

فيها اشتغال النساء بالمبايعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق في الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه»[75].

«وما لنا نذهب بعيدًا وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل - سواء بسواء - في شهادات اللعان، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجه وليس على ما يقول شهود: **{وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ 6 وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ 7 وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ 8 وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}** [النور: 6 - 9].

أربع شهادات من الرجل يعقبها استمطار لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ويقابلها ويبطل عملها أربع شهادات من المرأة يعقبها استمطار غضب الله عليها إن كان من الصادقين»[76].

ميراث المرأة وميراث الرجل:

أما التفاوت في الميراث بين الرجل والمرأة والذي جاء فيه قوله تعالى: **{يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ}** [النساء: 11]، فالواضح أنه نتيجة للتفاوت بينهما في الأعباء والتكاليف المالية المفروضة على كل منهما شرعًا.

فلو افترضنا أبًا مات، وترك وراءه ابنًا وبنتًا، فالابن يتزوج فيدفع مهرًا،

---

(75) انظر: «الإسلام عقيدة وشريعة» (ص111، 112)، طبعة مطبعة الأزهر.
(76) «الإسلام عقيدة وشريعة» (ص213).

ويدخل بالزوجة فيدفع نفقتها، على حين تتزوج البنت فتأخذ مهرًا، ثم يدخل بها زوجها، فيلتزم بنفقتها، ولا يكلفها فلسًا، وإن كانت من أغنى الناس، ونفقتها تقدر بقدر حالة السعة والضيق، كما قال تعالى: **{لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ}** [الطلاق: 7].

فإذا كان قد ترك لهما الأب مائة وخمسين ألفًا مثلًا، أخذ الابن منها مائة وأخته خمسين. فعندما يتزوج الابن قد يدفع مهرًا وهدايا نقدرها مثلًا بخمسة وعشرين ألفًا. فينقص نصيبه ليصبح (75.000) خمسة وسبعين ألفًا، في حين تتزود أخته فتقبض مهرًا وهدايا نقدرها بما قدرنا به ما دفع أخوها لمثلها. فهنا يزيد نصيبها فيصبح (75.000) خمسة وسبعين ألفًا، فتساويا.

ثم تتزايد أعباء الرجل ونفقاته، فهو ينفق على أبنائه وبناته الصغار، وقد ينفق على أبويه الكبيرين إذا كانا معسرين، وينفق على إخواته وأخواته الصغار إذا لم يكن لهم مورد، ولا عائل سواه، وينفق على الأقارب والأرحام بشروط معروفة، والمرأة لا يجب عليها شيء من ذلك، إلا من باب مكارم الأخلاق.

على أن قاعدة تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليست مطردة، ففي بعض الأحيان يكون نصيب الأنثى مثل نصيب الذكر، كما في حال ميراث الأبوين من أولادهما ممن له ولد، كما قال تعالى: **{وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ}** [النساء: 11]، وذلك لأن حاجة الأبوين في الغالب واحدة.

وكذلك حال الإخوة لأم إذا ورثوا من أخيهم الذي لا والد له ولا ولد، وهو

الذي يورث كلالة، كما قال تعالى: **{وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ}** [النساء: 12]، فهنا ترث الأخت للأم - كالأخ للأم - السدس، ويشرك الأكثر من الاثنين في الثلث بالتساوي بين الذكر والأنثى.

وهذا التساوي يوجد في عدة حالات في الميراث معروفة لأهل الاختصاص.

بل هناك حالات يكون نصيب الأنثى فيها أعلى من نصيب الذكر، كما إذا ماتت امرأة وتركت زوجها وأمها وأخوين شقيقين، وأختًا لأم، فإن للأخت للأم السدس كاملًا، وللأخوين الذكرين الشقيقن السدس بينهما، لكل واحد منهما نصف السدس!

وكذا لو ماتت المرأة وتركت زوجها وأختها شقيقها، وأخًا لأب، فإن الزوج يأخذ النصف والأخت الشقيقة تأخذ النصف الباقي بعد الزوج، والأخ لأب لا يرث شيئًا؛ لأنه عصبة لم يبق له شيء، فلو كان مكانه أخت فلها السدس يعال لها به.

وعند ابن عباس ومن وافقه: لو ماتت امرأة وتركت زوجًا وأبوين، فللزوج النصف وللأم الثلث، وللأب السدس، أخذًا بظاهر قوله تعالى: **{فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ}** [النساء: 11] أي ثلث التركة كلها.

روى ابن حزم من طريق عبد الرزاق عن ابن عباس أنه قال في زوج وأبوين: للزوج النصف وللأم الثلث من جميع المال.

وروى من طريق أبى عوانة من على مثله.

قال: وروي أيضًا عن معاذ بن جبل، وهو قول شريح، وبه يقول أبو سليمان «يعني داود الظاهري».

وقال ابن مسعود: ما كان الله ليراني أفضل أمًا على أب، وهو قول عمر وعثمان وزيد بن ثابت من الصحابة، والحسن وابن سيرين والنخعي من التابعين، وأبى حنيفة ومالك والشافعي وأصحابهم[77].

وهناك صور كثيرة ترث فيها الأنثى ولا يرث الذكر شيئًا.

وهذه الصور أحصاها أخونا الدكتور صلاح سلطان في كتاب له في هذه القضية[78].

الدية[79]:

وأما الدية فليس فيها حديث متفق على صحته، ولا إجماع مستيقن، كل ما ورد في دية المرأة حديثان: أصحهما ما رواه النسائي والدارقطني[80] من طريق إسماعيل بن عياش عن ابن جريج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهذا إسناد متكلم فيه، ولا تقوم بمثله الحجة في هذا الأمر الخطير. وقد قال البخاري: إن ابن جريج لم يسمع من عمرو بن شعيب.

والثاني: عن معاذ مرفوعًا «**دية المرأة نصف دية الرجل**»، قال البيقهي:

---

(77) انظر: «المحلي» (9 / 317 - 319)، المسألة (1715).

(78) انظر: «امتياز المرأة على الرجل في الميراث والنفقة» للدكتور صلاح الدين سلطان: الفصل الأول (ص 16 - 46). طبعة سلطان للنشر بالولايات المتحدة الأمريكية.

(79) لنا دراسة مفصلة حول هذا الموضوع بعنوان: «دية المرأة في الشريعة الإسلامية نظرات في ضوء النصوص والمقاصد» وهي تحت الطبع إن شاء الله.

(80) رواه النسائي في كتاب القسامة (8 / 24)، والدارقطني (3 / 91).

إسناده لا يثبت. ورويت أقوال عن بعض الصحابة، لم يصح سندها متصلًا، ولو صحت لكانت اجتهادًا يؤخذ منه ويترك، وبقى الحديث الصحيح: «**في النفس مائة من الإبل**»[81].

وإذا لم يصح حديث في القضية يحتج به، فكذلك لم يثبت فيها إجماع، على ما في الإجماع من كلام.

بل ذهب ابن عُلية والأصم - من فقهاء السلف - إلى التسوية بين الرجل والمرأة في الدية، وهو الذي يتفق مع عموم النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة وإطلاقها. ولو ذهب إلى ذلك ذاهب اليوم، ما كان عليه من حرج، فالفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان، فكيف إذا كانت تتمشى مع النصوص الجزئية والمقاصد الكلية للشريعة؟.

هذا ما ذهب إليه شيخنا الشيخ محمود شلتوت في كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة».

قال ححح تحت عنوان «دية الرجل والمرأة سواء»: «وإذا كانت إنسانية المرأة من إنسانية الرجل، ودمها من دمه، والرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، وكان القصاص» هو الحكم بينهما في الاعتداء على النفس، وكانت جهنم والخلود فيها، وغضب الله ولعنته، هو الجزاء الأخروي في قتل المرأة، كما هو الجزاء الأخروي في قتل الرجل - فإن الآية في قتل المرأة خطأ، هي الآية في قتل الرجل خطأ.

ونحن ما دمنا نستقي الأحكام أولًا من القرآنن فعبارة القرآن في الدية عامة

(81) انظر: «نيل الأوطار» باب: دية المرأة (7 / 224 - 227)، طبع دار الجيل - بيروت.

مطلقة لم تخص الرجل بشيء منها عن المرأة: **{وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ}** [النساء: 92]. وهو واضح في أنه لا فرق في وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأنثى.

نعم ... اختلف العلماء في مقدار الدية، أهو واحد في الرجل والمرأة، أو ديتها على النصف من دية الرجل؟

وقد ذكر الإمام الرازي الرأيين في تفسيره الكبير فقال: مذهب أكثر الفقهاء أن دية المرأة نصف دية الرجل، وقال الأصم وابن عُلية: ديتها مثل دية الرجل.

وحجة الأكثر من الفقهاء أن عليًا، وعمر، وابن مسعود قضوا بذلك، وأن المرأة في الميراث والشهادة على النصف من الرجل فيهما، فكذلك تكون على النصف في الدية.

وحجة الأصم قوله تعالى: **{وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ}** [النساء: 92]. وأجمعوا على أن هذه الآية دخل فيها حكم الرجل والمرأة، فوجب أن يكون الحكم فيها ثابتًا بالسوية»[82]. اهـ.

القوامة:

وأما القوامة فقد قال تعالى: **{ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ}** [النساء: 34].

فإنما جعلها الله للرجل بنص القرآن لأمرين: أحداهما وهبي والآخر

(82) «الإسلام عقيدة وشريعة» (ص208، 209).

كسبي.

الأول: ما فضله الله به من التبصر في العواقب، والنظر في الأمور بعقلانية أكثر من المرأة التي جهزها بجهاز عاطفي دفاق من أجل الأمومة.

والثاني: أن الرجل هو الذي ينفق الكثير على تأسيس الأسرة، فلو انهدمت ستهدم على أم رأسه، لهذا سيفكر ألف مرة قبل أن يتخذ قرار تفكيكها.

المناصب القضائية والسياسية:

وأما مناصب القضاء والسياسية، فقد أجاز الإمام أبو حنيفة أن تتولى القضاء فيما تجوز شهادتها فيه، أي في غير الأمور الجنائية، وأجاز الإمامان الطبري وابن حزم أن تتولى القضاء في الأموال وفي الجنايات وغيرها.

وجواز ذلك لا يعني وجوبه ولزومه، بل ينظر للأمر في ضوء مصلحة المرأة، ومصلحة الأسرة، ومصلحة المجتمع، ومصلحة الإسلام، وقد يؤدي ذلك إلى اختيار بعض النساء المتميزات في سن معينة، للقضاء في أمور معينة، وفي ظروف معينة.

وأما منعها من تولي منصب «الخلافة» أو رئاسة الدولة وما في حكمها، فلأن طاقة المرأة - غالبًا - لا تحتمل الصراع الذي تقتضيه تلك المسئولية الجسيمة. وإنما قلنا: «غالبًا»، لأنه قد يوجد من النساء من يكن أقدر من بعض الرجال، مثل «ملكة سبأ»، التي قص الله علينا قصتها في القرآن في سورة النمل، وقد قادت قومها إلى خيري الدنيا والأخرة، حتى أسلمت مع سليمان لله رب العالمين. ولكن الأحكام لا تُبنى على النادر، بل على الأعم الأغلب، ولهذا قال علماؤنا: النادر لا حكم له.

وأما أن تكون مديرة أو عميدة، أو رئيسة، أو عضوًا في مجلس نيابي، أو وزيرة، أو نحو ذلك، فلا حرج إذا اقتضته المصلحة، وقد فصلنا ذلك بأدلته في الجزء الثاني من كتابنا «فتاوى معاصرة»[83].

* * *

أسئلة من لندن

* * *

(83) انظر: فتوى «ترشيح المرأة للمجالس النيابية» في كتابنا «فتاوى معاصرة» (2 / 372، 389).

(1)

أسئلة حول مشروع «ائتلاف الخير» والموقف من اليهود

شغلتني قضية فلسطين - أو مأساة فلسطين - منذ صباي وبواكير شبابي، وأنا في المرحلة الابتدائية من دراستي الأزهرية، ثم ازددت انشغالًا واهتمامًا بها كلما نضجت وعرفت الحياة أكثر فأكثر. وذلك لعدة أسباب:

1 - أنها تتعلق بجزء من أرض الإسلام، وقد تعلمنا في الأزهر أن أي جزء من أرض الإسلام يغزوه غاز، يفرض - فرض عين - على أهله جميعًا مقاومته، كل بما يقدر عليه من رجل وامرأة، وأن على المسلمين في أنحاء العالم أن يعاونوهم بكل ما يحتاجون إليه من مال وعتاد ورجال.

2 - أنها ليست جزءًا عاديًا من أرض الإسلام، بل هي جزء عزيز له خصوصية، لا تتوافر لغيره، فهي أرض الإسراء والمعراج، وهي القبلة الأولى للمسلمين، وبها المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها للتعبد فيها.

3 - أنها قضية تجلى فيها الظلم المبين الواقع على أهلها، فقد تآمر عليهم الانتداب البريطاني والمكر الصهيوني، على حين غفلة ورهن من العرب والمسلمين، واستخدم معهم أقسى أنواع العنف، وأقيمت المجازر البشرية لأهل البلاد، حتى أخرجوا من ديارهم بغير حق، وشردوا في الآفاق، وحل محلهم الغرباء الوافدون من هنا هناك، وحصر أهل فلسطين في

رقعة ضيقة هي الضفة الغربية وقطاع غزة، وقيل لهم: هذه لكم، ليس لكم حق في غيرها. ثم لم يدعوها لهم، بل احتلوها بالحديد والنار، ولا زالوا يذيقون أهلها الويلات، وينزلون بهم الخراب والموت كل يوم.

فلا يزال أهل فلسطين يصبحون ويمسون على أطفال تيتم، وأمهات تثكل، ونساء ترمل، وأسر كاملة تفقد عائلها، أو بيوت تهدم ويترك أهلها في العراء، وأراض تجرف بالقوة وتضم إلى الدولة الغازية، ومزارع تحرق وتترك أرضًا سوداء!

وأشجار زيتون معمرة من مئات السنين تقلع، وحصار اقتصادي كاد الناس معه لا يجدون القوت.

لهذا كان إخواننا من أهل فلسطين أحوج ما يكون إلى المعونة من أهل الخير من إخوانهم من العرب والمسلمين، ومن الخيرين والرحماء من أنحاء العالم.

ومن هنا أصبحت إغاثة هؤلاء المساكين المستضعفين المكروبين المحاصرين: فريضة على كل من يقدر أن يقدم إليهم شيئًا أو يساعدهم على ذلك.

ونحن المسلمين مأمورين - بحكم إيماننا - أن نحض على طعام المسكين كما قال تعالى: **{أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ 1 فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ 2 وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ}** [الماعون: 1 - 3].

وقد ذم الله أهل الجاهلية بقوله: **{كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ 17 وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ}** [الفجر: 17، 18].

من أجل هذا: ناديت أنا وبعض الفضلاء والشرفاء من محبي الخير، وأصحاب الهمم العالية، والنيات الصادقة، بالعمل على إنشاء مشروع إنساني خيري، يعمل بقدر الحاجة على سد حاجة المحتاجين من أبنائنا في فلسطين؛ من إطعام جائع، أو كسوة عار، أو إيواء متشرد، أو رعاية أرملة، أو كفالة يتيم، أو علاج مريض، أو ترميم مستشفى أو مدرسة أو مسجد، أو إنشائه عند اللزوم، وأطلقنا على هذا المشروع اسم «ائتلاف الخير» لأنه يتكون من عدد من الجمعيات والهيئات الخيرية، التي تتعاون في سد هذه الثغرة، كما قال تعالى: **{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ}** [المائدة: 2] وقوله صصص: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»(84).

وقد شرفني الإخوة الذين اجتمعوا على هذه المبادرة بأن أكون على رأس هذا الائتلاف الخير، الذي كتب الله التوفيق للقائمين عليه، واستطاع أن يقوم بمهمات جليلة داخل أرض فلسطين، مما دل على أن أهل الخير والراغبين فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى ومثوبته لا زالوا كثيرين والحمد لله.

ومن المؤكد: أن هذا الائتلاف لا علاقة له إطلاقًا بالعمل العسكري، ولا العمل السياسي، ولا يمت إليهما بصلة. وهذا واضح وضوح الشمس، منذ نشأة الائتلاف وإلى اليوم. واضح في أهدافه، وواضح في برامجه، وواضح في مشروعاته وأعماله، وهو يعمل على المكشوف، وليس يعمل في سراديب تحت الأرض، ويعرض ما يقوم به على الناس جهارًا نهارًا، حتى لا يشك شاك، أو يرتاب مرتاب.

---

(84) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1670)، البخاري في المظالم (2446)، ومسلم في البر والصلة (2585) عن أبي موسى.

ومع هذا نجد الذين في قلوبهم مرض ينشرون القيل والقال، حول هذا الائتلاف، والقائمين عليه، وحول رئيسه «القرضاوي» الذين يتهمه الأفاكون بمساندة الإرهاب، وهو أول من يستنكر الإرهاب، ويدعو إلى التسامح لا التعصب، والحب لا الكراهية، والرفق لا العنف، والحوار لا الصدام، والسلم لا الحرب.

والحمد لله هذه كتبي ورسائلي ومقالاتي وفتاواي ومحاضراتي وخطبي وموقعي على الإنترنت كلها تشهد بذلك.

وقد أرسل إلى الإخوة القائمون على الائتلاف في لندن هذه الأسئلة التي أثارها من أثارها، يرجون مني الإجابة عنها، إحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل.

ولم يسعني - رغم أعبائي وأشغالي وزحمة أوقاتي - إلا أن أجيب عنها، بقدر ما أسعفني الوقت، وأيدني التوفيق من الله تعالى، وعند إجابتي عن هذه الأسئلة إنما أوضح موقف الشرع الإسلامي فيما يجيزه أو لا يجيزه في شأن هذه القضايا حسب النصوص الشرعية القرآنية والنبوية، وعالم الدين المسلم إذا قصد بالسؤال لا بد أن يجيب السائل، ولا يدعه حيران، وإلا كان من الذين يكتمون العلم، وهو ما حذر منه النبي صصص: «**من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة**»[85].

وإنما يجيب العالم المسلم حسب فهمه واجتهاده في الدين، وفق النصوص الشرعية، من الكتاب والسنة، مستفيدًا من أقوال العلماء الثقات. وهو لا يدعي

---

(85) رواه أحمد في «المسند» (7571) عن أبي هريرة، وقال مخرجو «المسند»: إسناده صحيح، ورواه أبو داود (3658)، وابن ماجه (266).

العصمة، ولكن يجتهد وفق الضوابط الشرعية، والأصول المرعية.

والمفتي في فتواه ليس كالقاضي في حكمه، لأن القاضي يلزم بحكمه، والمفتي لا يلزم بحكمه أحدًا، إنما هو يجيب عمن سأله، والمستفتي حر بعد ذلك.

وإني لأرجو أن أكون بهذه الإجابات قد وضحت موقفي، وأقمت الحجة على المفترين علي، وأعذرت إلى ربي **{لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}** [الأنفال: 42].

{رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ} [إبراهيم: 38].

* * *

1 - ما هو موقفكم من اليهود بالعموم(86)؟

ج: أما عن موقفي من اليهود، فهو معلوم لكل من طالع كتبي، أو استمع إلى محاضراتي وخطبي، وهو موقف الإسلام الذي أدين الله تعالى به، وأعني به الإسلام الوسط، الذي يمثل المنهج الوسط للأمة الوسط، الذي يقف وسطًا بين المتحللين والمتزمتين، وبين التفريط والإفراط، وهو منهجي الذي آمنت به، ونذرت نفسي للدعوة إليه، وهو الإحسان إلى الجميع، والدعوة إلى التعارف والتعايش السلمي بين الناس كافة، دون عدوان على حق أحد، أو انتهاك لحرمته؛ مع الإيمان بحق كل إنسان في المحافظة على دينه وعقيدته،

(86) للمزيد انظر: ما كتبناه في كتابنا «القدس قضية كل مسلم» تحت عنوان: هل نعادي إسرائيل لأنها يهودية؟ (ص38)، طبعة وهبة - القاهرة.

قال تعالى: {لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ} [البقرة: 256].

ولا شك أن اليهود هم أتباع موسى بن عمران عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد تحدث القرآن عن موسى سسس وعن قومه في سور كثيرة، حتى قال بعض علماؤنا: كاد القرآن يكون لموسى وقومه! وحسبنا أن موسى ذكر في القرآن (136) مائة وستًا وثلاثين مرة، وموسى يعتبر من أولي العزم من الرسل، وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وهم المذكورون في قوله تعالى: {وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا} [الأحزاب: 7]، وفي قوله تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ} [الشورى: 13].

وموسى هو الذي خصه الله تعالى بكلامه المباشر دون رسل الله جميعًا. يقول تعالى: {قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} [الأعراف: 144]، وقال تعالى: {وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا} [النساء: 164].

ويتحدث القرآن عن كتاب اليهود - وهو التوارة - حديثًا ينم عن الاحترام والتبجيل، فيقول: {إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ} [المائدة: 44].

واعتبر الإسلام اليهودية ديانة سماوية، وسمى أهلها «أهل الكتاب» وهو

اسم يشملهم ويشمل النصارى معهم، وينـاديهم بهذا اللقب المعبر: «يـا أهل الكتاب».

وجعل لهم من الأحكام ما يميزهم عن غيرهم، مثل أكل ذبائحهم، وتزوج نسائهم، كما قال تعالى في سورة المائدة: **{وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ}** [المائدة: 5].

وهذه قمة في التسامح: أن يجيز الإسلام للمسلم أن يتزوج يهودية، فتصبح ربة بيته، وشريكة حياته، وموضع سره، وأم أولاده، مع ما في الزواج من المودة والرحمة كما قال الله تعالى: **{وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً}** [الروم: 21].

وهذا الزواج ينشئ رابطة المصاهرة التي هي قرينة رابطة النسب، كما قال تعالى: **{وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗا}** [الفرقان: 54]. وبذلك يصبح أهل الزوجة أجداد الأولاد وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، ويقر لهم حقوق ذوي القربى، وأولي الأرحام، وقد قال تعالى: **{وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ}** [الأنفال: 75].

ومعنى هذا كله: أن أهل الكتاب أقرب إلينا من غيرهم من سائر الملل، ولهذا نهانا القرآن أن نجادلهم إلا بالتي هي أحسن، وذلك في قوله سبحانه: **{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ}** [العنكبوت: 46].

فهذا هو موقفي وموقف كل المسلمين عمومًا من اليهود بوصفهم يهودًا. وهذا ما لم يقاتلون في الدين، أو يخرجونا من ديارنا، أو يظاهروا على إخراجنا؛ فإن فعلوا ذلك؛ فلا ولاء ولا مسالمة بيننا وبينهم حتى يعودوا عن عدوانهم، ويجنحوا إلى السلم، وهو الذي نؤمن به ونسعى إليه. وهذا ما وضحته آيتان محكمتان في كتاب الله: **{لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ 8 إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [الممتحنة: 8، 9].

فقسم الله تعالى غير المسلمين - ومنهم اليهود - إلى مسالمين للمسلمين، وغير مسالمين لهم، وجعل للأولين البر والقسط، وحرم الولاء للآخرين.

* * *

2 - هل أنتم ضد اليهود لكونهم يهودًا؟

ج: الحق الذي يجب أن يعلمه الناس، كل الناس: أنني - وغيري من المسلمين - لا نكره اليهود لكونهم يهودًا، ولهذا قلت مرارًا: إن «اليهودية» باعتبارها ديانة ليست هي السبب في المعركة بيننا وبين دولة إسرائيل.

والقرآن اختار لليهود - وكذلك النصارى - «لقبًا» يوحي بالقرب والإيناس منهم، وهو «أهل الكتاب» ويناديهم بذلك «يا أهل الكتاب» ويعني به: التوارة والإنجيل، إشعارًا بأنهم - في الأصل - أهل دين سماوي، وإن حرفوا فيه وبدلوا.

اليهود أقرب إلى ملة إبراهيم من النصارى[87]:

بل أزيد على ذلك فأقول: إن اليهود - من الناحية الدينية - أقرب إلى المسلمين في كثير من الأمور، من النصارى المسيحيين، لأنهم أقرب منهم إلى ملة إبراهيم سسس، سواء في العقيدة أم في الشريعة.

على أن كل ما يؤمن به اليهود فيما يتعلق بالألوهية والنبوة، يؤمن به المسيحيون، لأن التوراة وملحقاتها من «الكتاب المقدس» عندهم، ويزيدون على اليهود ما انفردوا به من تأليه المسيح أو القول بالتثليث.

فلو كنا نحارب اليهود من أجل العقيدة، لحاربنا النصارى المسيحيين أيضًا.

ومن أجل هذا يتبين لنا خطأ بعض عوام المتدينين الذين يتوهمون أن الحرب القائمة بيننا وبين اليهود حرب من أجل العقيدة.

وهذه النظرة التي قد تخطر في بال بعض الناس خاطئة تمامًا، فاليهود - كما رأينا - يعتبرهم الإسلام أهل كتاب، يبيح مؤاكلتهم، ويبيح مصاهرتهم، وقد كانوا على معتقداتهم هذه، وقد عاشوا قرونًا بين ظهراني المسلمين، لهم ذمة الله تعالى، وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، وقد طردهم العالم، ولفظهم لفظ النواة، من إسبانيا وغيرهم، ولم يجدوا صدرًا حنونًا، إلا في دار الإسلام، وأوطان المسلمين، ولم يفكر المسلمون يومًا أن يحاربوا اليهود، أو يمسوهم بأذى. مع أنهم كانوا في تلك الأزمنة كلها متمسكين بعقيدتهم

(87) للمزيد راجع ما ذكرناه في كتابنا «القدس قضية كل مسلم» تحت عنوان: «اليهود أقرب ملة إبراهيم عن النصارى» (ص 39) وما بعدها.

اليهودية، لأن دين المسلمين يحرم عليهم ذلك.

لا نعادي إسرائيل لأنها سامية:

وأحب أن أنبه هنا إلى نقطة تتعلق بالنقطة السابقة، وهي: هل سبب العداوة والحرب المستعرة بيننا - نحن العرب والمسلمين - وإسرائيل: أنها دولة سامية؟

والجواب: أن هذا أبعد ما يكون عن تفكير المسلمين، ولا يتصور أن يرد هذا بخواطرهم؛ لسببين أساسيين:

الأول: أننا - نحن العرب - ساميون، ونحن مع بني إسرائيل في هذه القضية أبناء عمومة، فإذا كانوا هم أبناء إسرائيل - وهو يعقوب - بن إسحاق بن إبراهيم سسست، فنحن أبناء إسماعيل بن إبراهيم سسسب. ولا تستطيع إسرائيل أن تزايد علينا في ذلك، ولا أن تتهمنا بأننا أعداء «السامية» التي تتاجر بها في الغرب، وتشهرها سيفًا في وجه كل من يعارض سياستها، أو ينتقد سلوكياتها العدوانية واللاأخلاقية، بل اعتبر القرآن المسلمين كافة أبناء إبراهيم **{هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ}** [الحج: 78].

والثاني: أن المسلمين عالميون إنسانيون بحكم تكوينهم العقدي والفكري، وليسوا ضد أي عرق من العروق أو نسب من الأنساب، وقد علمهم دينهم أن البشرية كلها أسرة واحدة، تجمعهم العبودية لله، والبنوة لآدم، كما قال تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** [الحجرات: 3]. وقال رسولهم الكريم: «**أيها**

الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب»[88].

على أن اليهود اليوم لم يعودوا كلهم ساميين، كما يزعمون، فقد دخل فيهم عناصر شتى من سائر أمم الأرض، كما هو معروف عن يهود «مملكة الخزر» ويهود الفلاشا، وغيرهم، وهذا طبيعي، فاليهودية ديانة، وليست جنسية.

* * *

3 - هل تحثون سماحتكم على قتال اليهود وقتلهم لكونهم يهودًا؟

ج: كلا، أنا لا أفتي بهذا ولا أحث عليه بالمرة. وذلك لعدة أسباب:

أولًا: أن اليهود - باعتبارهم يهودًا - هم عندنا أهل كتاب، كما بينت ذلك بالأدلة، ونعتبر ديانتهم ديانة سماوية، وتوراتهم كتابًا سماويًا، وإن كنا نعتقد أنهم حرفوا فيه وبدلوا. ولكنه يبقى في أصله سماويًا، كما نعتقد أن نبيهم موسى من أنبياء الله ورسله، وقد كلمه الله تكليمًا. وله منزلة عظيمة في الإسلام، ولقصته مع فرعون، ومع قومه: مساحة واسعة في القرآن.

وقد أجاز الإسلام أن نأكل من ذبائح اليهود، وأن نصاهرهم، ونتزوج من نسائهم، مع ما يفرضه الإسلام في العلاقات الزوجية من سكون ومودة

---

(88) رواه أحمد (23289) عن رجل من أصحاب رسول صصص، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح، ورواه الطبراني في «الأوسط» والبزار، وقال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بنحوه إلا أنه قال: «**إن أباكم واحد وإن دينكم واحد، أبوكم آدم، وآدم خلق من تراب**». ورجال البزار رجال الصحيح، وذكره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (2964).

ورحمة، وما توجبه روابط المصاهرة من ترابط وتقارب، وحقوق للأمومة والخؤولة وغيرها.

ثانيًا: أن الإسلام يكره الظلم، والظالمين، ويوجب العدل لكل الناس، من أي دين كانوا، ومن أي عرق كانوا، ومن أي إقليم كانوا، ولا يتحيز لأحد ضد أحد، ولا لطائفة ضد طائفة، وإنما يتحيز للحق وحده، فعدل الله لخلق الله جميعًا.

وقد نزلت تسع آيات من القرآن الكريم في سورة النساء، تدافع عن يهودي اتهم ظلمًا بالسرقة، وكان السارق مسلمًا من المنافقين أو ضعاف الإيمان، أراد قومه أن يبرئوه ويلصقوا التهمة باليهودي البريء، وكاد الرسول يصدقهم، ويدافع عنهم، لولا أن نزل الوحي القرآني يحامي عن اليهودي المتهم ظلمًا، ويلحق التهمة بأهلها، ويعاتب الرسول صصص على تصديقه لهؤلاء.

يقول تعالى في سورة النساء: **{إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا 105 وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا 106 وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا 107 يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا 108 هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا 109 وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا 110 وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا 111 وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا 112 وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ**

وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: 105 - 113].

ثالثًا: يجب أن نبين هنا: أننا في واقع الأمر لم نقاتل اليهود، أعني لم نبادئهم بحرب أو قتال، أو نُسل في وجوهم السيوف، ونرفع عليهم البنادق والرشاشات، حتى يقال لنا: لماذا تقاتلون اليهود؟ أو تحثون على قتلهم؟

والواقع أن اليهود هم الذين بدأونا بالقتال، بعد أن كانوا يعيشون بين ظهرانينا آمنين مطمئنين، متمتعين برغد العيش، وسعة الرزق، ورفاهية الحياة، ولهم جاههم ومنزلتهم في المجتمع، نتيجة حصولهم على الثروات، وتمكنهم من التجارات، وإتقانهم لكثير من الصناعات، فلم يبخل المجتمع الإسلامي عليهم بالثروة المالية، والمنزلة الاجتماعية، بل المكانة السياسية. حتى حسدهم كثير من المسلمين على ما وصلوا إليه من غنى وجاه ومنصب، وحتى قال الشاعر المصري الساخر الحسن بن خاقان، يصف يهود زمانه:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
المجد فيهم، والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك!
يا أهل مصر، إني نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك!

أنا في الحقيقة لا أحث على قتل اليهود، ولكني أتمنى أن يكف اليهود - أعني الصهاينة - عن قتلنا وتدمير ديارنا صباح مساء!

* * *

4 - هل ترون سماحتكم قتل يهودي برئ حرامًا وجرمًا؟ ولماذا؟

ج: نعم أرى قتل أي إنسان برئ حرامًا وجرمًا وظلمًا. سواء كان يهوديًا أم غير يهودي، فالأصل في الإسلام: أنه يحرم الدماء، ويحمي حق الحياة لكل إنسان ولو كان جنينًا في بطن أمه، ولا يجيز لأمه التي حملته أن تجهضه. ويجرم الإسلام قتل النفس البشرية، حتى إن القرآن ليقرر مع الكتب السماوية: **{أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا}** [المائدة: 32].

فمن لم يقتل نفسًا متعمدًا، أو يفسد في الأرض كقطاع الطريق وأمثالهم، فلا يحل قتله، ومن اعتدى عليه فقتله بغير حق، فكأنما قتل الناس جميعًا، لأن الاعتداء على نفس معصومة بمثابة الاعتداء على جنس البشر جميعًا.

بل الإسلام يُحرم قتل الحيوانات والطيور عبثًا، أي لغير منفعة ينشدها الإنسان من وراء القتل. ولذا جاء في الحديث: «**من قتل عصفورًا عبثًا جاء إلى الله يوم القيامة، يقول: يارب، إن فلانًا قتلني عبثًا، ولم يقتلني لمنفعة**»(89).

* * *

(89) رواه النسائي (7 / 237) ط. المطبعة المصرية بالأزهر، وفي «موارد الظمآن» (1017) باب النهي عن الذبح لغير منفعة، انظر: تخريج الشيخ شعيب، ابن حبان (5894)، ورواه أيضًا أحمد (3894). وقد صححه ابن حبان، وأقره المنذري. انظر: كتابنا «المنتقى من الترغيب والترهيب» (1 / 363).

5 - هل سبق أن دعوتهم إلى قتل اليهود أينما كانوا وحيثما كانوا؟

ج: لا. لم يحدث هذا من قبل، ومن قرأ لي، أو استمع إلي يعلم ذلك جيدًا.

وأؤكد هنا: أنه لا يتصور من مثلي أن يدعو إلى قتل اليهود - باعتبارهم يهودًا - حيثما كانوا.

وذلك لأمرين:

الأول: أن من اليهود من يعارض قيام إسرائيل، ويتعاطف مع العرب، وينكر قيام الحركة الصهيونية وأهدافها. وقد رأيت عددًا من هؤلاء في لندن، في الصيف الماضي (2004م) ومنهم: من حضر معنا جلسة افتتاح المجلس الأوروبي للإفتاء في قاعة بلدية لندن، وعلق على كلامي مؤيدًا ومرحبًا.

وقد ودعني منهم ثمانية من الحا خامات والأحبار إلى مطار لندن، وظلوا واقفين معي، وأبوا أن ينصرفوا حتى دخلت إلى الطائرة. فكيف أفتي بقتل هؤلاء الأصدقاء؟

الثاني: أنني لا أفتي إلا بقتال من يقاتلنا، فأما من لا يقاتلنا ولا يعين على قتالنا، فليس لنا عليه سبيل، كما قال تعالى: **{فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا}** [النساء: 90]. مع التركيز في كل الأحوال على تجنب الأبرياء والمسالمين من المدنيين وغيرهم.

* * *

6 - هل تدعون سماحتكم وتفتون بقتل المدنيين الأبرياء، حتى لو كانوا من الإسرائيليين المسالمين؟

ج: أؤكد ما قلته من قبل: أن من ثبتت مسالمته من الإسرائيليين، فلا يجيز شرعنا لنا - نحن المسلمين - أن نقتله، لأنا لا نقتل إلا من يقاتلنا، أو يشارك في العدوان علينا، أما المسالم حقًا، فلا أفتي بقتله، بل أحرم قتله، وأجرم فعله، وأؤثم من فعل ذلك.

المهم أن يثبت لنا مسالمته؛ وإذا ثبت لنا ذلك، فلا يجوز أن نقصده بقتل ولا قتال، ما دام يمكن فصله عن غيره، كما قال تعالى في شأن قوم من المشركين: **{فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا}** [النساء: 90].

وقد ذكرنا قبل ذلك قوله تعالى: **{لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ}** [الممتحنة: 8].

* * *

7 - عندما تفتون سماحتكم بجواز العمليات الانتحارية للفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي، على ماذا تستندون؟ وكيف تبررون ذلك؟ وهل ذلك دعوة لقتل الأبرياء المسالمين؟

ج: لا بد أن أوضح بداية أن هذه العلميات ليست عمليات «انتحارية» كما يحلو للبعض أن يسميها، ولكنها عمليات للدفاع عن النفس والوطن ضد الاحتلال الإسرائيلي المتجبر الظالم.

وتسمية هذه العمليات «انتحارية» تسمية خاطئة ومضللة، فهي عمليات فدائية. وهي أبعد ما تكون عن الانتحار، ومن يقوم بها أبعد ما يكون عن نفسية المنتحر.

إن المنتحر يقتل نفسه من أجل نفسه، وهذا يقدم نفسه ضحية من أجل دينه ووطنه وأمته. والمنتحر إنسان يائس من نفسه ومن روح الله، وهذا المجاهد إنسان كله أمل في روح الله تعالى ورحمته. المنتحر يتخلص من نفسه ومن همومه بقتل نفسه، والمجاهد يقاتل عدو الله وعدوه بهذا السلاح الجديد، الذي وضعه القدر في يد المستضعفين ليقاوموا به جبروت الأقوياء المستكبرين.

فهؤلاء الشباب الذين يدافعون عن أرضهم هم ليسوا بمنتحرين، وليسوا بإرهابيين، فهم يقاومون - مقاومة شرعية - من احتل أرضهم، وشردهم وشرد أهلهم، واغتصب حقهم، وصادر مستقبلهم ولا زال يمارس عدوانه عليهم كل يوم؛ يدمر منازلهم، ويحرق مزارعهم، ويقلع أشجارهم، ويجرف أرضهم، ويهدم مساجدهم، ويمزق شملهم بجداره العازل، ودينهم يفرض عليهم الدفاع عن أنفسهم، ولا يجيز لهم التنازل باختيارهم عن ديارهم، التي هي جزء من دار الإسلام، وهو عمل من أعمال المخاطرة المشروعة والمحمودة في الجهاد، يقصد به النكاية في العدو المقاتل، وقتل بعض أفراده، وقذف الرعب في قلوب الآخرين طالما أن هذا العمل لا يقصد به بحال الأبرياء والمسالمين سواء كانوا مدنيين أو غير ذلك.

وليس في هذا أي دعوة لقتل المسالمين الأبرياء، وإذا قتل طفل أو شيخ في هذه العمليات، فهو لم يقصد بالقتل، بل عن طريق الخطأ وبحكم الضرورات الحربية، التي قد يصاب فيها الأبناء بسبب الآباء، ومن القواعد الفقهية:

الضرورات تبيح المحظورات. ولكن هذه القاعدة تكملها وتضبطها قاعدة أخرى، هي: أن ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها. وذلك حتى لا يتوسع الناس في الضرورة، وتظل استثناء.

وإذا وجدوا الخير في الكف والإحجام أحجموا، لأنه لا مصلحة خاصة للفدائيين إلا رضوان الله تعالى وابتغاء مثوبته، ونصرة قضيتهم العادلة، فإذا لم تخدم القضية بهذا الأسلوب، وكان ضرره أكبر من نفعه ترك، وبحث عن أسلوب آخر، وآلية أخرى. «**وإنما لكل امرئ ما نوى**».

وقد وجد الإخوة في حماس والجهاد الإسلامي ومن وافقهم من فصائل المقاومة أن يوقفوا العمليات الاستشهادية في الوقت الحاضر، وأن يستبدلوا بها ضرب المستوطنات ونحوها من الأهداف العسكرية، ما داموا قادرين على ذلك، ولذلك مرت شهور، ولم نقرأ ولم نسمع عن عملية من هذه العمليات. فهم لا يلجأون إليها إلا للضرورة كما قلت، فإذا زالت الضرورة، توقفت هذه العمليات.

وهناك سعي من رئيس السلطة الفلسطينية الجديد محمود عباس «أبي مازن» للسير فيما سموه «الحل السلمي» والاتفاق على وقف إطلاق النار من الجانبين، بحثًا عن الوصول إلى حلول عملية لإنهاء الصراع بطريق المفاوضات، وقد وافقت فصائل المقاومة الفلسطينية - إسلامية ووطنية - أبا مازن على هدنة «مشروطة» على أن توقف الاعتداءات من قبل الإسرائيليين، مساهمة في إنجاح المسعى الذي اختارته السلطة. والتزمت الفصائل الإسلامية بهذه الهدنة، وبخاصة حركة المقاومة الإسلامية «حماس». ونأمل ألا تستفزهم إسرائيل ومستوطنوها بالغدر والعدوان.

* * *

8 - هل تدعون سماحتكم وتحثون على القيام بعمليات انتحارية ضد الإسرائيليين؟ أم أنكم تقولون بأن ذلك من الناحية الشرعية والدينية مبرر ضد الظلم والاحتلال إذ لم تتوافر وسيلة أخرى لمقاومة الاحتلال؟

ج: أود أن أؤكد هنا أن هذه العمليات الفدائية ليست هي الأصل في مقاومة الاحتلال، وإنما لجأ إليها شباب الانتفاضة والمقاومة لأنهم مضطرون إليها، وما داموا مضطرين لهذا الطريق للدفاع عن أنفسهم، وتحرير وطنهم، وإرعاب أعدائهم، المصرين على عدوانهم، المغرورين بقوتهم، وبمساندة القوى الكبرى لهم، فليس لهم خيار، والأمر كما قال الشاعر العربي قديمًا:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فما حيلة المضطر إلا ركوبها!

ولا بد أن ننوه هنا إلى أن الأحكام نوعان:

الأول: أحكام في حالة السعة والاختيار.

الثاني: أحكام في حالة الضيق والاضطرار.

والمسلم يجوز له في حالة الاضطرار ما لا يجوز له في حالة الاختيار، ولهذا حرم الله تعالى في كتابه في أربع آيات: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، ثم قال: **{فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [البقرة: 173].

ومن هنا أخذ الفقهاء قاعدة: الضرورات تبيح المحظورات، وإخوتنا في فلسطين في حالة ضرورة لا شك فيها، بل هي ضرورة ماسة وقاهرة، للقيام بهذه العمليات الاستشهادية، لإقلاق أعدائهم ومحتلي أرضهم، وبث الرعب

في قلوبهم، حتى لا يهنأ لهم عيش، ولا يقر لهم قرار، فيعزمون على الرحيل، ويعودوا من حيث جاءوا. ولولا ذلك لكان عليهم أن يستسلموا لما تفرضه عليهم الدولة الصهيونية من مذلة وهوان، يفقدهم كل شيء، ولا تكاد تعطيهم شيئًا!

أعطوهم عشر معشار ما لدى إسرائيل من دبابات ومجنزرات، وصواريخ وطائرات، وسفن وآليات، ليقاتلوا بها. وسيدعون حينئذ هذه العلميات الاستشهادية، وإلا فليس لهم من سلاح يؤذى خصمهم، ويقض مضجعهم، ويحرمهم لذة الأمن وشعور الاستقرار، إلا هذه «القنابل البشرية»؛ أن «يقنبل» الفتى أو الفتاة نفسه، ويفجرها في الغازي المحتل لأرضه مضحيًا بروحه في سبيل الله، مؤثرًا حياة وطنه على حياته الشخصية. فهذا هو السلاح الذي لا يستطيع عدوه - وإن أمدته أمريكا بالمليارات وبأقوى الأسلحة - أن يملكه، فهو سلاح متفرد، ملكه الله تعالى لأهل الإيمان وحدهم، وهو لون من العدل الإلهي في الأرض لا يدركه إلا أولو الأبصار. فهو سلاح الضعيف المغلوب في مواجهة القوي المتجبرة، **{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}** [المدثر: 31].

* * *

9 - هل ترون سماحتكم أنه إذا ما وقع يهود تحت الاحتلال، هل يكون من حقهم القيام بعمليات انتحارية للدفاع عن أنفسهم ضد المحتل، كما ترون أنه من حق الفلسطينيين؟

ج: كل من كان له وطن شرعي غير مغتصب ولا منتزع من أرض الآخرين بالحديد والنار جاز دفاعه عنه من غير شك، فإن هذا حق كفلته كل

الشرائع السماوية وأقرته القيم الأخلاقية، كما كفلته كذلك كل القوانين والمواثيق الدولية وأعني به حق الدفاع عن النفس، والوطن إذا غزاه غاز أجنبي.

بل هذا ما تقضي به قوانين الفطرة، فإننا نجد في داخل الجسم البشري جندًا مجندًا يقاوم كل جسم غريب، حفاظًا على الحياة من تلك الجراثيم والأجسام الغازية من خارج الجسم.

وإذا كنا أجزنا للفلسطينيين أن يدفعوا عن وطنهم - الذي احتل - بهذه العمليات الفدائية، فيلزمنا أن نجيز لليهود وغيرهم أن يقوموا بمثلها إذا غزى وطنهم الشرعي واحتلت أرضهم. ولسنا من أصحاب ازدواج المعايير، ولا ممن يكيل بكيلين: كيل للأصدقاء، وكيل للخصوم، بل نحن مأمورون بالعدل مع من نحب ومن نكره. قال تعالى: **{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ** - أي شدة بغضهم لكم أو بغضكم لهم - **عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ}** [المائدة: 8].

وجوابنا هنا مؤسس على افتراض أن لليهود وطنًا خاصًا؛ لهم الحق في استيطانه وامتلاكه، لا وطن انتزعوه من أرض غيرهم بالعنف والإرهاب.

* * *

10 - هل تفتون سماحتكم أنه من حق جميع من وقع تحت الاحتلال استخدام العمليات الانتحارية ضد المحتل، سواء كان ذلك مسلمًا أو غير مسلم، ما دامت هذه العلميات لا تقع بحق أبرياء مسالمين؟

ج: نعم. كل من يحتل الأرض ظالمًا بغير حق، سواء كان عربيًا أو عجميًا، مسلمًا أو غير مسلم تجب مقاومته وتحرير الأرض من شره بشتى

الطرق المتاحة.

ولهذا وقفت ضد غزو «صدام» للكويت بقوة، وكانت خطبتي بعد الغزو من جامع عمر بن الخطاب في قطر ضد هذا الغزو الظالم هي المادة الأولى لإذاعة الكويت الحرة، التي ظلت عدة أيام تكررها كل يوم عدة مرات. وإذا ضاقت بمن يقاومون الاحتلال السبل، ولم يجدوا غير العمليات الفدائية سبيلًا للتخلص من الاحتلال الغاشم وجبروته، فمن حقهم أن يستخدموها دفاعًا عن وطنهم، ووصولًا إلى حقهم، مادامت هذه العمليات لا تقع في حق أبرياء مسالمين، كما في السؤال.

* * *

11 - هل تفتون بجواز القيام بعمليات انتحارية ضد الأبرياء والمسالمين والذين لا علاقة لهم بالجيش سواء كانوا يهودًا أو إسرائيليين أو غير ذلك؟ ولماذا؟

ج: أنا أفتي بمشروعية العمليات الفدائية ضد الغزاة المحتلين ومن يعاونهم، ومن حق المغزوين أن يقاموا غزاتهم ويطاردوهم بكل ما يستطيعون من قوة، سواء كان هؤلاء المغزوون فلسطينيين أم لبنانيين أم مصريين أم عراقيين أم هنودًا، أم يهودًا، أم أي شعب كان.

وهذا في نظر الإسلام ليس أمرًا مشروعًا فقط، بل هو واجب وفريضة، وتركه يوقع في الإثم والمخالفة الشرعية، لأنه تفريط في أرض الإسلام، التي يجب على المسلمين أن يدافعوا عنها بالأنفس والأموال. وهو كذلك تجرئ للطغاة والمتجبرين على افتراس الضعفاء إذا لم يجدوا من يقاومهم ويصد

عدوانهم.

أما الأبرياء والمسالمون حقًا، الذين أثبتوا لنا مسالمتهم بالبينة، وأنهم ينكرون على قومهم ما يقترفون كل صباح ومساء من مظالم ومذابح ومآس، فهؤلاء لا نقاتلهم ولا نقتلهم، ولا نأخذهم بذنب حكومتهم، وهم يبرأون من فعلها، إذ **{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}** [فاطر: 18]، و **{كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** [الطور: 21].

على أن هناك من الفقهاء من يقول: إن على هؤلاء أن يتحملوا نتيجة وجودهم في وطن مغتصب من أهله، وإلا كان عليهم أن يخرجوا من هذا الوطن، ويعودوا من حيث جاءوا أو جاء آباؤهم.

* * *

12 - هل تدعون سماحتكم إلى كراهية اليهود وبث مشاعر البغض ضدهم وضد كل من ليس بمسلم من أصحاب الديانات الأخرى كالمسيحية؟

ج: يشهد الله جل جلاله، كما يشهد كل من سمع خطبي، وقرأ كتبي أني من دعاة الأخوة الإنسانية، وأؤمن أن البشر جميعًا عائلة واحدة، تنتمي من ناحية الخلق إلى رب واحد هو خالق الجميع، ومن ناحية النسب إلى أب واحد، هو أبو الجميع آدم، وأدعو الناس جميعًا إلى الحب لا البغض، والتسامح لا التعصب، والرفق لا العنف، والرحمة لا القسوة، والسلام لا الحرب.

الأدعية الاستفزازية:

ومن أكبر الدلائل على أن منهجي الذي أدعو إليه منهج يدعو إلى إشاعة

السلام والحب، ويدعو إلى التسامح مع المخالفين: أنني ناديت بالابتعاد عما أسميته: الأدعية الاستفزازية، وقلت: ليس من الموعظة الحسنة اتخاذ الأدعية الاستفزازية في صلوات الجمع، وفي قنوات النوازل وغيرها.

ومما أنكرته في هذا المجال: أن بعض الوعاظ والخطباء يدعون الله تعالى أن يهلك اليهود والنصارى جميعًا، وأن ييتم أطفالهم، ويرمل نساءهم، ويجعلهم وأموالهم وأولادهم غنيمة للمسلمين.

ومن المعلوم: أن في كثير من بلاد المسلمين توجد أقليات من النصارى - وربما من اليهود - وهم مواطنون يشاركون المسلمين في المواطنة، وليس من اللائق أن ندعو بدعوة تشمل هؤلاء بالهلاك والدمار. إنما اللائق والمناسب أن ندعو على اليهود الغاصبين المعتدين، وأن ندعو على الصليبيين الحاقدين الظالمين، لا على كل اليهود والنصارى. كما ندعو على الظالمين والطغاة من المسلمين أنفسهم. نسأل الله تعالى أن يريح البشرية من الظالمين من كل الديانات.

على أني لم أجد في أدعية القرآن، ولا في أدعية الرسول، ولا في أدعية الصحابة مثل هذه الدعوات المثيرة: يتم أطفالهم، ورمل نساءهم، وأمثالها. بل أدعية القرآن في المعركة مثل: **{رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ}** [البقرة: 250].

{رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ 85 وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [يونس: 85، 86]

ومن أدعية الرسول في وقت الحرب والقتال: «**اللهم منزل الكتاب،**

ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب: اهزمهم وانصرنا عليهم»[90].

«اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»[91].

وقد قال تعالى: **{ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ}** [الأعراف: 55]، أي: لا يحب الذين يعتدون ويتجاوزون في دعائهم.

غير المسلمين بدل الكفار:

ومن أكبر الدلائل أيضًا على أن منهجي الذي أدعو إليه - منهج الإسلام الوسط - منهج يدعو إلى إشاعة السلام والحب: ألا نخاطب المخالفين لنا باسم الكفار، ولا سيما مخالفونا من أهل الكتاب.

وذلك لأمرين:

أولهما: إن كلمة «كفار» لها عدة معان، بعضها غير مراد لنا يقينًا، ومن هذه المعاني: الجحود بالله تعالى وبرسله وبالدار الآخرة، كما هو شان الماديين الذين لا يؤمنون بأي شيء وراء الحس، فلا يؤمنون بإله، ولا بنبوة، ولا بآخرة.

ونحن إذا تحدثنا عن أهل الكتاب لا نريد وصفهم بالكفر بهذا المعنى، إنما نقصد أنهم كفار برسالة محمد وبدينه، وهذا حق، كما أنهم يعتقدون أننا كفار بدينهم الذي هم عليه الآن وهذا حق أيضًا.

---

(90) رواه مسلم باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو رقم (1742).

(91) رواه أحمد في «مسنده» عن أبي موسى (19720)، وقال محققوا «المسند»: حديث حسن، وأخرجه أبو داود (1537)، والنسائي في «الكبرى» (8631)، وابن حبان في «صحيحه» (4765).

والثاني: أن القرآن علمنا ألا نخاطب الناس - وإن كانوا كفارًا - باسم الكفر، فخطاب الناس - غير المؤمنين - في القرآن، إما أن يكون بهذا النداء «يا أيها الناس» أو «يا بني آدم» أو «يا عبادي» أو «يا أهل الكتاب».

ولم يجئ في القرآن خطاب بعنوان الكفر إلا في آيتين: إحدهما خطاب لهم يوم القيامة: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ}** [التحريم: 7].

والأخرى قوله تعالى: **{قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ 1 لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ 2 وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ 3 وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ 4 وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ 5 لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون: 1 - 6]، فكان هذا خطابًا للمشركين الوثنيين الذين كانوا يساومون الرسول الكريم على أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأرادت قطع هذه المحاولات بأسلوب صارم، وبخطاب حاسم، لا يبقى مجالًا لهذه المماحكات.

ولهذا آثرت من قديم أن أعبر عن مخالفينا من أهل الأديان الأخرى بعبارة «غير المسلمين». وأصدرت من قديم كتابي «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» وقد طبع مرات ومرات، وترجم إلى عدة لغات.

مواطنون بدل أهل الذمة:

ومن أكبر الدلائل كذلك على أن منهجي الذي أدعو إليه - منهج الإسلام الوسط - منهج يدعو إلى إشاعة السلام والحب: أنني أتوقف إزاء بعض الكلمات التي لم تعد مقبولة لدى إخواننا من الأقليات غير المسلمة داخل المجتمع المسلم، مثل الأقباط في مصر، وأمثالهم في البلاد العربية

والإسلامية الأخرى، وهي مصطلح «أهل الذمة»[92].

التعبير بالأخوة عن العلاقات الإنسانية:

ومن أكبر الدلائل أيضًا على أن منهجي الذي أدعو إليه - منهج الإسلام الوسط - منهج يدعو إلى إشاعة السلام والحب: أنني دعوت إلى التعبير بالأخوة عن العلاقة بين البشر كافة، والمراد بها «الأخوة الإنسانية» العامة، على اعتبار أن البشرية كلها أسرة واحدة، تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما قرره حديث نبوي شريف، خاطب به رسول الإسلام الجموع الحاشدة في حجة الوداع، فكان مما قاله في هذا المقام:

«أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[93].

وهذا الحديث يؤكد قول الله تعالى في مطلع سورة النساء **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا}** والأرحام هنا تشمل الأرحام الخاصة، والأرحام العامة، كما يدل سياق الخطاب القرآني، وفي ذلك يقول شاعر مسلم:

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي، وكل العالمين أقاربي!

وفي حديث زيد بن أرقم مرفوعًا قال صصص: **«اللهم ربنا ورب كل**

---

(92) راجع ما ذكرناه سابقًا في هذا الكتاب تحت عنوان: «موقفنا من الأقليات».

(93) سبق تخريجه.

شيء ومليكه: أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»[94].

ومن هنا لم أر حرجًا في التعبير عن العلاقة بين المسلمين ومواطنيهم من غير المسلمين بـ «الأخوة».

والمراد بها: الأخوة الوطنية أو القومية، فليست «الأخوة الدينية» هي الأخوة الوحيدة التي تصل بين البشر. إنها لا شك أعمق ألوان الأخوة وأوثقها رباطًا، ولكنها لا تنفي أن هناك أنواعًا أخرى من الأخوات.

ودلينا على ذلك: ما جاء في القرآن الكريم من حديث عن الأنبياء وصلتهم بأقوامهم المكذبين لهم، واعتبار القرآن كل نبي من هؤلاء «أخًا» لقومه، وإن عصوه وكذبوه وكفروا برسالته.

اقرأ معي قول الله تعالى في سورة الشعراء: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ 105 إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ 106 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}** [الشعراء: 105 - 107].

فانظر كيف أثبت أخوة نوح لهم، مع أنهم كذبوه، لأنهم قومه، وهو منهم فهي أخوة قومية لا شك فيها.

ومثل ذلك قوله تعالى: **{كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ 123 إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ}** [الشعراء: 123، 124]، وقال مثل ذلك عن صالح ولوط، ولكنه حين تحدث عن شعيب قال: **{كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ 176 إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ}** [الشعراء: 176، 177]، ولم يقل: أخوهم شعيب، لأنه لم يكن منهم، وإنما

(94) رواه أحمد في «مسنده» (19293) عن زيد بن أرقم، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، ورواه أبو داود (1508)، والنسائي في «الكبرى» (9929).

كان من مدين، ولذا قال في سورة أخرى: **{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}** [هود: 84].

ومثل هذه التعبيرات تقرب الآخرين منا، وتزيل الفجوة بيننا وبينهم، وهذا ما يبطل كيد الأعداء المتربصين بنا، والذين يريدون أن يشعلوا فتيل الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، ليصطادوا في الماء العكر، ويتخذوا من ذلك ذريعة للتدخل في شئوننا، والتسلط علينا، والتحكم في رقابنا، وأولى بنا أن نرد كيدهم في نحورهم، بمثل هذا المواقف التي تجعل قوى الأمة كلها جبهة متراصة في مواجهة مكرهم وعدوانهم.

* * *

13 - هل ترون في السلام العادل حلًا وضرورة؟

ج: إذا كان السلام عادلًا وشاملًا، فأنا أول من يرحب به، فديننا دين السلام، وربنا من أسمائه «السلام»، ومن أسمائنا المشهورة «عبد السلام» وتحيينا في الدنيا والآخرة: السلام.

ولكن المشكلة هنا: أن إسرائيل تريد أن تفسر السلام على هواها، وتريد أن تملي شروطها، وتفرض على الفلسطينيين والعرب ما تريد.

إن السلام العادل - في حده الأدنى الآن - هو الذي يقيم للفلسطينيين دولة مستقلة استقلالًا حقيقيًا لا صوريًا، يملكون أرضها وسماءها ومياهها، ويعرفون حدودها، وعاصمتها القدس.

ويضمن حق العودة للاجئين الذين شردتهم إسرائيل في الأرض.

ويضمن تعويضًا عادلًا للفلسطينيين عما لحق بهم من أضرار، ممن هدمت بيوتهم، وأحرقت مزارعهم، وأتلفت أشجارهم.

إذا طرح هذا السلام بحق، ولم يكن مجرد مناورة وكسب للوقت، على حين تعمل الآلة العسكرية عملها في قتل الفلسطينيين وتدمير بنيتهم التحتية، فأهلًا وسهلًا به، وقد قال تعالى في شأن المحاربين للمسلمين: **{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ 61 وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ...}** [الأنفال: 61،62].

فهنا يغلب حسن النية على سوء الظن، ترغيبًا في السلام، وحرصًا عليه، واستمساكًا به.

* * *

14 - بصفتكم رئيسًا لائتلاف الخير هل ترون من أهداف الائتلاف: أن يدعم المقاومة المسلحة، حتى ولو كانت مشروعة.

ج: لا. ليس من أهداف ائتلاف الخير أن يدعم المقاومة، وإن كنا نراها مشروعة، لأن المقاومة أهلها، وللعمل الخيري والإغاثي أهله. وقد حصرنا هدفنا في الجانب الإنساني وحده: أن نطعم الجائع، وأن نكسو العريان، وأن نداوي المريض، وأن نؤوي المشرد، وأن نمسح دمعة اليتيم، وأن نأخذ بيد الضعيف. ونعتبر هذا من أعظم الجهاد في سبيل الله.

* * *

15 - هل ترون من أهداف ائتلاف الخير شراء السلاح ودعم المقاومة؟

ج: لا. نحن نرى شراء الرغيف للجائع مقدم على شراء البندقية للمقاتل. والذين تبرعوا لنا بالمال إنما تبرعوا به لينفق في عمل الخير، فلا يجوز لنا شرعًا أن نصرفه في غير ما تبرعوا لنا به، وقد سألني مسئول كبير في دولة خليجية، وقال لي: أريد أن تجيبني بصراحة: هل أموال ائتلاف الخير تذهب كلها أو جزء منها لحماس؟ فإنا نستطيع أن نساعدكم بالكثير إذا تأكدنا من نفي ذلك. قلت له: أؤكد لك أن فلسًا واحدًا مما نجمعه لا يذهب لحماس ولا لغيرها من فصائل المقاومة. وهل نحن حمقى إلى هذه الدرجة: أن نجمع أموالًا علنًا من الناس باسم الخير لنرسلها إلى حماس؟!

ومع هذا أطلب منكم أن تعينوا أفرادًا ثقات من عندكم، يشرفون على هذا العمل، ويذهبون إلى داخل فلسطين، ويشاهدون بأعينهم كيف توزع الأموال.

* * *

16 - هل ترون ائتلاف الخير واجهة لأية جهة سياسية أو عسكرية فلسطينية أو غير فلسطينية؟

ج: لا ثم لا، ولن أمل من تكرار «لا» لأنها الحق. والحق يعلو ولا يُعلى.

وإنما قلت: لا. لأن «ائتلاف الخير» له أهداف محدودة ومعلومة، أعلنا عنها عند إنشائه. وهي:

- التنسيق بين المؤسسات الخيرية العاملة لفلسطين بما يعود بالخير والمنفعة على الشعب الفلسطيني.

- التخفيف من معاناة وآلام المجتمع الفلسطيني بجميع طبقاته، وعلى وجه الخصوص الفقراء والعمال العاطلين عن العمل.

- الحفاظ على مقدرات الشعب الفلسطيني وإعادة تأهيل البنية التحتية له.

- بناء الإنسان المنتج القادر على إعالة نفسه وذويه.

- إعادة رسم أولويات العمل الخيري وصياغة فلسفته بناء على الواقع.

وقد وضع الائتلاف شروطًا لقبول المشاريع التي يتبناها، وهي:

1- أن لا يقبل أي مشروع إلا عن طريق لجنة التنسيق الخاصة بالائتلاف الموجودة داخل فلسطين.

2- أن تكون المشاريع ذات طابع إنساني، ترفد الجوانب التعليمية والصحية والتنموية والاجتماعية.

3- أن يتماشى المشروع مع الأهداف والخطوط العريضة للائتلاف.

أن تحتوي المشاريع على العناصر التالية:

- اسم المشروع.

- الجهة المنفذة.

- المدة الزمنية.

- جدوى المشروع.

- أعداد المستفيدين.

4 - يشترط إرسال تقرير بعد الانتهاء من تنفيذ المشروع يحتوي على

الأوراق الثبوتية اللازمة لجميع مراحل تنفيذ المشروع مع الصور.

* * *

17 - هل ائتلاف الخير ملزم لأصحابه في طبيعة المشاريع التي يدعمها أم هو بالخيار؟

ج: لا، ليس ائتلاف الخير ملزمًا لأصحابه بشيء إلا ما يقررون اختياره بأنفسهم، فإن أصل الائتلاف إنما هو عمل تنسيقي بين الهيئات والجمعيات الخيرية، والمؤسسات الإغاثية الإنسانية، ولكل واحدة منها أن تقبل هذا المشروع أو ذاك، وأن ترفض هذا المشروع أو ذاك، وأن تتبنى مشروعًا بأكمله أو تسهم فيه، حسب رؤيتها وقدرتها.

* * *

18 - هل لائتلاف الخير أية أعمال غير خيرية أو إنسانية؟

ج: لا، كل عمل ائتلاف الخير محصور في الأعمال الخيرية والإنسانية، وكفى بها مأثرة له. وندعو الله أن يعينه على مهمته الفضيلة.

* * *

19 - هل سبق لسماحتكم أو ادعيتم أو قلتم بأن ائتلاف الخير واجهة لحماس، أو من يدعم حماس، أو غيرها من المؤسسات؟

ج: لا، وليس يتصور أن أقول هذا، لأنه كذب على الواقع، فائتلاف الخير يخدم أهل فلسطين، لا يستثنى أحدًا، ولا يحابي أحدًا.

* * *

20 - هل ائتلاف الخير يدعم أو يقدم مساعدات لمؤسسات غير خيرية أو إنسانية؟

ج: لا، ثم لا ... إن ائتلاف الخير لا يدعم ولا يساعد إلا الأعمال الخيرية والإنسانية، وهو يقدم أعماله علانية في وسط النهار، وليس عنده شيء سري.

* * *

21 - هل ائتلاف الخير مفتوح لجميع المؤسسات الخيرية؟

ج: نعم. وهو يرحب بكل جمعية أو مؤسسة تعمل في المجال الخيري والإنساني، وتريد أن تنضم الآية، فهو يزداد بها قوة إلى قوته، كما قال الله تعالى: **{سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ}** [القصص: 35].

* * *

22 - هل قمتم بإدانة العمليات الإرهابية ضد مدنيين أو مسالمين أو أبرياء مهما كانت ديانتهم أو جنسهم؟

ج: نعم أدنت ذلك وأنكرته مرات كثيرة، وفي مناسبات شتى:

- أدنت خطفت الطائرات، وأصدرت فتوى بتحريمها منذ خطف الطائرة الكويتية منذ نحو ثمانية عشر عامًا.

- وأدنت خطف الرهائن، بعد ما فعلته جماعة أبو سياف في الفلبين من خطف بعض الغربيين، والتهديد بقتلهم إذا لم يدفع لهم مبلغ معين.

- وأدنت مذبحة الأقصر في صعيد مصر، وخطبت خطبة شهيرة في ذلك، أذاعتها الفضائية القطرية في حينها.

- وأدنت قتل الرهبان في الجزائر من فعل الجماعة المسلحة.

- وأدنت قتل السياح في جزيرة بالي بإندونيسيا.

- وأدنت قتل التلاميذ الذين حاصرهم الشيشان في مدرسة في روسيا.

- وأدنت قتل النيباليين في العراق.

- وأدنت خطف الرهينتين الفرنسيين، وطالبت بالإفراج عنهما.

- وأدنت خطف الرهينتين الإيطاليتين، وطالبت بالإفراج عنهما.

وفي أعقاب تفجيرات 11 سبتمبر دعوت المسلمين للتبرع بالدم لصالح ضحايا البرجين في الولايات المتحدة الأمريكية، ومما قلته: إن تبرع المسلم بالدم والمال وأشكال العون المختلفة هو صدقة محمودة، «وفي كل ذات كبد رطبة أجر».

وأكدت أن ما حدث لا يمكن بحال من الأحوال أن يصدر عن مسلم عاقل يلتزم بدينه، ونفيت شرعية مثل هذه العمليات التي تستهدف المدنيين.

وأوضحت أن العدوان على الإنسان البريء إثم وجرم وظلم، أيًا كان دين المعتدى عليه، ووطنه وقومه، وأيًا كان المعتدى، فإن الله لا يحب المعتدين، ولا يحب الظالمين، والقرآن الكريم يقرر مع غيره: **{أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا}** [المائدة: 32].

وبينت أن الانحياز الأمريكي السافر للعدوان الإسرائيلي على الفلسطينيين - وإن كان يشكل نوعًا من الخلل في ميزان العدالة - لا يجيز أن نضرب الأبراج السكنية والتجارية، ولا الاعتداء على الأبرياء.

وأكدت أن فلسطين هي ساحة المواجهة مع العدو الصهيوني، وليست أمريكا ولا أوربا ولا آسيا ولا إفريقيا، وإذا كانت الولايات المتحدة تكيل بمكيالين فإن الإسلام لا ينتهج هذا الأسلوب ويرفضه، كما أننا لا نضمر عداوة للشعب الأمريكي مهما اختلفنا مع نظامه الحاكم.

ومما نبهت وأكدت عليه: أنه حتى في حال الحرب والقتال، لم يجز الإسلام قتل من لا يقاتل، من النساء والصبيان والشيوخ، حتى الرهبان المتفرغون للعبادة في صوامعهم لا يقتلون، بل يتركون وما فرغوا أنفسهم له. وأكدت على أن الإسلام لا يتنازل عن مبدأ **{أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}** [النجم: 38].

واعتبرت أن كل إنسان مسئول عن عمله هو، وليس عن عمل غيره، ولا يحمل أحد وزر أحد، وأن الكتاب والسنة وفقه أئمة المسلمين، وروح الحضارة الإسلامية، ينكر كل الإنكار أي عمل يتسم بالقسوة والوحشية، ويفتقد الإنسانية والأخلاقية.

* * *

33 - ما هو رأى سماحتكم بأحداث 11 سبتمبر؟ وهل تعتبرونها من الأعمال الإرهابية ضد المسالمين الأبرياء؟

ج: أما رأيي في أحداث 11 سبتمبر فقد أعلنته صراحة، وبعد الأحداث

مباشرة، بل كان بياني الذي استنكرت فيه العدوان من أوائل البيانات التي أدانت هذا الفعل الإجرامي الوحشي، إن لم يكن أولها.

وقد أكدت في هذا البيان على عدة أمور أهمها:

1 - احترام الإسلام للنفس البشرية.

2 - أن الأصل في الحرب الإسلامية المشروعة: أن لا يقتل فيها إلا من يقاتل بالفعل.

3 - أن قتل آلاف الناس من المدنيين المسالمين الذين لا ذنب لهم، ولا دور لهم في اتخاذ القرار السياسي، يعتبر جريمة كبيرة في نظر الإسلام.

4 - التحذير - أيًا كان الفاعل - من أن تؤخذ أمة بأسرها بجريمة أفراد محدودين، أو يتهم دين عالمي بأنه دين العنف والإرهاب.

5 - أن هذا الحادث الفظيع لا يستفيد منه فلسطيني ولا عربي ولا مسلم. بل هو يشوه صورة الإسلام إذا صدر عن مسلم، ولا يستفيد من هذا العمل غير إسرائيل وحدها.

6 - دعوة المسلمين في أمريكا أن يسارعوا بأداء واجبهم في إنقاذ المصابين وفي التبرع بالدم، فهو من أعظم الصدقات عند الله، لما فيه من إحياء نفس بشرية.

7 - دعوة الإدارة الأمريكية لتراجع سياستها الخارجية، التي أوجدت لها العديد من الأعداء حول العالم، ولتراجع كذلك موقفها المنحاز أبدًا لإسرائيل.

* * *

24 - ما هو رأى سماحتكم بأعمال الخطف للأبرياء المسالمين؟

ج: رأيي في هذا السؤال - كما هو الحال في كثير من المسائل السابقة - رأى معروف من قديم، وقد كانت لي فتوى - منذ بضعة عشر عامًا - في كتابي «فتاوى معاصرة» تحرم هذه الأعمال التي تتضمن توريع الآمنين، وهي بعنوان «خطف الطائرات».

والذي أقوله: إن استخدام القوة التي لا تبالي بقتل من يقتل من الناس ولو كانوا مسالمين برآء، أو تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية ولا مشكلة إنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وتخويفهم وإيذائهم بوجه من الوجوه، وإجبارهم على أن يخضعوا لمطالبك، هذا إرهاب مرفوض مهما كانت عدالة القضية التي يدافع عنها مستخدمو العنف.

ويدخل في ذلك: خطف الطائرات، كما يدخل في ذلك احتجاز الرهائن، وقتل السياح[95].

* * *

25 - ما هو رأى سماحتكم في عمليات اختطاف المدنيين الأبرياء المسالمين؟

ج: رأى وضحته كما في إجابة السؤال السابق وهو التحريم المطلق، وقد كررت مرارًا أنه لا يجوز للمسلم أن يخطف الأبرياء الذين ليس لهم علاقة

(95) راجع ما ذكرناه سابقًا في هذا الكتاب تحت عنوان: «شبهات حول الإرهاب» (ص40).

بالحرب.

ولما قام مسلحون في العراق باقتحام مقر منظمة «أون بونتي بير بغداد» «جسر من أجل بغداد» الإنسانية الإيطالية يوم 7 - 9 - 2004 واختطفوا امرأتين إيطاليتين تعملان بالمنظمة هما: سيمونا توريتا، وسيمونا باري. قلت وقتها: لا يجوز خطف هاتين الرهينتين، وهما لا ذنب لهما، ولم يقترفا جرمًا. وأضفت بأنه إذا كانت الحكومة الإيطالية قد أرسلت جنودًا من جيشها للعراق، فلا بد أن نذكر موقف الشعب الإيطالي الذي خرج بالملايين ضد الحرب على العراق، ويجب أن نقدر له هذا الموقف، وهاتان المرأتان لا تعملان في شيء يتعلق بالحرب، إنما تعملان في عمل إنساني خيري إغاثي.

كما اعترضت أيضًا على خطف واعتقال الرهينتين الفرنسيين، وطالبت من بادئ الأمر بإطلاق سراحهما.

وقد حرص وزير الخارجية الفرنسي ميشيل برنيه على أن يلقاني في القاهرة من أجل ذلك، ورحبت بلقائه، وجلست معه ما يقارب من الساعة، تبادلنا فيها الأحاديث حول علاقة فرنسا بالعالم العربي، وأنها في جملتها علاقة جيدة، ونوهت باستقلال الموقف الفرنسي عن أمريكا، وتحرره من التبعية لها. وإن كان لنا تحفظ على الموقف الفرنسي في الشأن الداخلي، ولا سيما في تدخلها في الشأن الديني والشخصي للمسلمين فيما يتعلق بالحجاب، وهو ما يتنافى مع مبدأ العلمانية الليبرالية، التي تقف من الدين موقفًا محايدًا، لا معاديًا ولا مؤيدًا.

وقد طلبت في قناة «الجزيرة» المختطفين أن يفكوا أسر الرهينتين

الفرنسيين، فقد كانا يعملان في خدمة القضية العربية، ويكسران احتكار أمريكا للجانب الإعلامي كله.

وعندما عاد الوزير الفرنسي إلى باريس أرسل إلي كتاب شكر وتقدير.

وكذلك فعل وزير الخارجية الإيطالي الذي زارني في بيتي في قطر، وطلب مني أن أتعاون معه في سبيل تحرير الرهينتين الإيطاليتين، وقد فعلت. وأرسل لي سفير إيطاليا في الدوحة يبلغني شكر الوزير وشكر الدولة على موقفي.

هذا وقد أصدر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الذي أتشرف برئاسته فتوى مفصلة في منع اختطاف الرهائن من المدنيين الذين لا علاقة لهم بالحرب، وعند اختطافهم - فرضًا - يجب أن نحسن معاملتهم، وأن يعاملوا معاملة الأسرى، الذين قال الله فيهم: **{حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً}** [محمد: 4] هذا وهم في الأصل محاربون أخذوا من ساحة القتال، فما بالك بهؤلاء الذين لم يقاتلوا ولم يشاركوا في قتال؟!

* * *

(2)

بين القرضاوي وجريدة «الجارديان»[96]

س: ما هو دورك في إثراء الفكر الإسلامي المعاصر؟

أولًا: أود في بداية حديثي أن أرحب بالأخت الكريمة السيدة مادلن، والأخ المرافق لجريدة الجارديان. أرحب بهم في الدوحة وأرحب بهم في منزلنا، وخصوصًا في هذا الشهر الكريم، شهر رمضان؛ الذي نعتبره نحن المسلمين غرة الشهور. فأهلًا وسهلًا بهم ضيوفنا علينا ونعتز بهذه الزيارة ونرحب بها.

أما بالنسبة للسؤال عن تقييم الدور الذي أقوم به: فأعتقد أنه ليس من شأني أنا أن أقوم الدور الذي أقوم به، فقد يبالغ الإنسان في تقييم دوره ويضخمه أكثر مما يلزم، أو أحيانًا يدفعه التواضع إلى أن يحجمه أو يقزمه أكثر مما يلزم. وهذا متروك للناس. الدور الذي يقوم به العالم والفقيه والمفكر تقييمه متروك للمجتمع الذي يعيش فيه، فإن وصل إلى درجة من العالمية فإنه يترك للعالم أن يقيمه، كل ما أقوله: هو أن أقدم للمسلمين المنهج الوسطي منهج التوازن والاعتدال؛ الذي يقوم على مبادئ ومعالم أشرت إليها في بعض المؤتمرات تتمثل في عشرين معلما منها: نجمع بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، نجمع بين النظر إلى الوحي ومعطياته من ناحية والعقل ومعطياته من ناحية، نمزج بين الروحانية والمادية، بين الفردية والجماعية، بين الحقوق

(96) تم الحوار في منزل فضيلة الشيخ القرضاوي بالدوحة في 17 رمضان 1426هـ الموافق 20 أكتوبر 2005م. وقام بترجمة الحوار د. عزام التميمي.

والواجبات، ندعو إلى إحياء الاجتهاد بشروطه، وإلى تجديد الدين بضوابطه، ندعو إلى الحوار مع الآخر، والتسامح مع المخالفين، ندعو إلى التعددية، ندعو إلى التنوع بكافة مظاهره، نرى أن الإنسانية كلها أسرة واحدة تنتمي من ناحية الخلق إلى رب واحد ومن ناحية النسب إلى أب واحد، كما قال رسول الله صصص: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»، «**يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وأدم من تراب**»، وأن الحرب ضرورة لا يلجأ إليها إلا لدواعي شديدة، وأن الأصل في العلاقات هو السلم، ولذلك الإسلام إذا انتهت المعركة بغير دماء يقول: **{وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ}** [الأحزاب: 25] هذه معالم قليلة من هذا المنهج الذي عشت له ودعوت إليه، وأدعو إليه في خطبي، ودروسي، ومحاضراتي، وبرامجي التليفزيونية والإذاعية وفي كتبي - وقد زادت على المائة والأربعين - وفي رسائلي ونشراتي وفي موقعي على الإنترنت، وفي موقع إسلام أون لاين، وفي تدريبي الجامعي× في كل هذه أدعو إلى هذا المنهج، وأعيش له وأموت عليه إن شاء الله.

س: من العبارات المهمة التي نقلت عنكم أنكم قلتم: إننا أمة متخلفة، وأننا لا بد أن نصلح من أوضاعنا حت ننهض. ما هو الإصلاح حسب وجهة نظر فضيلتكم وما هو التخلف وكيف يمكن التغلب عليه؟

ج: طبعًا أول بدايات وشروط الإصلاح: شعور الإنسان بأنه في حاجة إلى الإصلاح، يقولون: الشعور بالنقص أول الطريق إلى الكمال. الذي يعتقد أنه كامل لا يحاول أن يستكمل ما عنده، فلذلك كان من منهجي أنه يجمع بين الواقعية والمثالية، فتطلعنا إلى المثل الأعلى لا يجعلنا نغفل الواقع الأدنى الذي نعيش فيه، فأنا أقول: إننا للأسف تعيش أمتنا العربية الإسلامية في دائرة

التخلف، ويعبرون عنها بالبلاد النامية، والبلاد النامية تعبير مؤدب عن كلمة البلاد المتخلفة، أعني بالتخلف المادي والتقني والتكنولوجي والعلمي. لم نملك ما ملك الآخرون. لا يزال معظم أمتنا لم تصنع «موتورًا» أنا قلت في بعض محاضراتي: إن أمة سورة «الحديد» لم تتعلم صناعة الحديد. في القرآن عندنا سورة «الحديد» فيها قوله تعالى: **{وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ}** [الحديد: 25] وكلمة «فيه بأس شديد» إشارة إلى الصناعات الحربية، وكلمة «منافع للناس» إشارة إلى الصناعات المدنية، وأمتنا للأسف لم تتقن الصناعات الحربية، ولم تتقن الصناعات المدنية، وهذا ما أعني أننا ما زلنا في دائرة التخلف، لم نصنع طيارة، ولم نصنع دبابة لا زلنا عالة على الآخرين؛ في صناعاتنا العسكرية، وصناعتنا المدنية، فهذا ما أعنيه بالتخلف.

ولكي تخرج الأمة من سجن التخلف هذا؛ عليها أن تصلح نفسها، فالإصلاح يشمل ميادين عدة منها: الإصلاح التعليمي والتربوي الذي يبدأ من الحضانة إلى الجامعة، نريد أن نخرج الطالب الذي يفهم الحياة، ويفهم الواقع: لا نريد الطالب الذي يحفظ الكتب، و«يصم» كما نسميه نحن، «يصم» الأشياء ولا يتفاعل مع العلم ومع الواقع، فأنا أرى أن تعليمنا متخلف حتى الآن. فأول الإصلاح هو الإصلاح التعليمي الذي ينهض بكل أركان التربية. وأركان التربية هي: المتعلم وهو التلميذ، والمعلم وهو الأستاذ، والمنهج الذي على أساسه يحدث التعليم، والكتاب الذي يدرس، والمكان الذي يدرس فيه «المدرسة» وماذا تملك من أدوات سمعية، وبصرية، ومختبرات، والمناخ العام الذي يساعد على هذا التعليم، الذي يربي الشخصية الحرة المستقلة في فهمها وإرادتها.

فالإصلاح يبدأ من التعليم، وهذا الإصلاح التعليمي والتربوي ليس هو المطلوب وحده، هناك الإصلاح الاقتصادي؛ فالإصلاح يشمل كل العمليات الاقتصادية، أركان العملية الاقتصادية وهي: الإنتاج والاستهلاك والتداول والتوزيع، نريد أن يبدأ الإصلاح بزيادة الإنتاج، نريد أمة تنتج. نحن للأسف نستهلك أكثر مما ننتج، نستورد أكثر مما نصدر، نحن نريد أمة تنتج في كل المجالات، وتحسن العمل، الإسلام يعتبر العمل الاقتصادي عبادة، ويعتبره جهاد، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة، فنريد إصلاح اقتصادي يشمل الإنتاج، ويرشد الاستهلاك، نرشد الاستهلاك ونشمل التداول، تداول المال في التجارات، وهذه الأشياء بحيث لا يحدث احتكار، ولا يحدث غش، ولا يحدث تلاعب بالأسعار، وتحكم في الأسواق؛ بحيث تطغى فئة من الناس فتأكل هي السوق لحسابها، وتحتكر السلع والامتيازات، وبقية الشعب جائع. الكلام في الاقتصاد كثير ولي فيه كتب شتى.

وقبل وفوق ذلك كله الإسلام السياسي، لا بد من إصلاح سياسي بحيث يملك الشعب أمر نفسه، يكون الشعب هو من يختار حكامه؛ لا يفرض عليه حكام، تفرض عليه الدول الكبرى حكامًا أو لمصالح معينة يفرض عليه حكام يحكمونه رغم أنفه، ويظلون عشرات السنين يركبون ظهر هذا الشعب، ولا يستطيع الشعب أن يتحرر منهم.

نريد الإصلاح السياسي، ونحن نرحب هنا بالديمقراطية، ونرى أن الديمقراطية الحقيقية تتفق من روح الإسلام. فالإسلام لا يحب أن يحكم الناس حكام رغم أنوفهم. الإسلام يسمى هؤلاء فراعنة **{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ}** [القصص: 4] الفرعونية والجبروت

{وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم: 15] الإسلام يريد أن يختارهم الشعب «**خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم**»(97)، لذلك نحن نرحب بالديمقراطية، ونراها جوهر الإسلام نرى جوهر الديمقراطية تتفق مع جوهر الإسلام، والإسلام ضد الاستبداد والدكتاتورية، لأنه يرى هؤلاء «متألهين» على عباد الله.

فجوهر الإصلاح: الإصلاح السياسي. وإذا ظلت الأمة يحكمها هؤلاء الجبابرة والفراعنة، ويقمعونها ويذلونها؛ لا يمكن أن تقوم لها قائمة. فنحن نريد إصلاحًا تعليميًا تربويا، نريد إصلاحا ثقافيا إعلاميا، نريد إصلاحًا اقتصاديًا، نريد إصلاحًا اجتماعيًا، الموازنة بين طبقات المجتمع، بين بعضها وبعض، لا نريد أن تتصارع طبقات المجتمع، ولكن أن يكون بينها إخاء يربط الجميع، ثم نريد الإصلاح السياسي والدستوري، الذي يعطي كل ذي حق حقه، وتفصل فيه السلطات بعضها عن بعض، ويعرف الحاكم حقوقه، ويعرف المحكوم حقوقه، ويستطيع الناس أن يتخلصوا من حاكمهم إذا ظلمهم، بدون عنف، أي يكون ذلك عن طريق الوسائل السلمية التي وصل إليه العالم المتحضر.

س: هذا الوصف الذي تحدثت عنه هل تجد له نموذجًا في الغرب، تعجب به؟

هذا بعد أن أكمل..

الإصلاح الذي أتحدث عنه لا بد أن يكون صادرًا منا نحن وليس مفروضًا

(97) رواه مسلم في الإمارة (1855) عن عوف بن مالك الأشجعي.

علينا، أعني أنه لا بد أن ينبثق من عقائدنا وقيمنا، وتراثنا الديني والثقافي والحضاري، وأن يلبي حاجاتنا، ويحقق أهدافنا، وأن نبنيه بأيدينا، لا يمكن أن نعتبره إصلاحًا إذا كان إصلاحًا يحقق أهداف أمريكا، ومصالح ومطالب أمريكا منا، لأن مطالب أمريكا منا غير مطالبنا من أنفسنا، لا نمانع أن نقتبس من غيرنا فالحكمة ضالة المؤمن، والحضارة الغربية اقتبست منا، وقد رأينا الحضارة الغربية اقتبست منا المنهج التجريبي الاستقرائي، الذي هو أساس نهضة أوروبا والغرب، هو بالأساس منهج عربي إسلامي، فمثلًا روجر بيكون وفرانسيس بيكون تناقل الغربيون أنفسهم أنهم رسل الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب، فإذا كانت الحضارة الغربية لا مانع أن نقتبس منها؛ ولكن بشرط أن نلائم بين ما نقتبسه وبين مسلماتنا العقدية والقيمية والأخلاقية والحضارية، لا نريد أن ننبت أصولنا ونصبح أمة أخرى.

نحن متخلفون من الناحية المادية والتقنية، ولكننا متفوقون من الناحية الروحية والناحية الأخلاقية، ونعتبر أنفسنا أقوى من الغرب وأرفع من الغرب، الغرب للأسف غلبت على حضارته النزعة المادية، وغلبت عليه النزعة الإباحية التحللية؛ حتى أنه يبيح الشذوذ ويدافع عنه، ويبيح زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويبيح العرى المطلق، ويبيح الزنا الذي حرمته كل الأديان، والوصايا العشر في التوراة: لا تزنوا ... وكان المسيح يقول: «كان من قبلكم يقول: لا تزنوا. وأنا أقول: من نظر إلى امرأة بعينه بشهوة فقد زنى» لذلك ادعاء الحضارة الغربية أنها حضارة مسيحية ليس صحيحًا، فنحن نأخذ على الحضارة الغربية النزعة المادية المسرفة، والنزعة الإباحة المغالية، والنزعة للأسف الازدواجية، ازدواجية المعايير بمعنى أنها

لا تتعامل مع العدل المطلق ومع القيم المطلقة، تكيل بكيلين، تحل هذا عامًا وتحرمه عامًا، تبيح لإسرائيل ما تحرمه على غيرها، أمريكا تبيح لنفسها ما تحرمه على سائر البشر، هذا ما نعيبه على الحضارة الغربية.

لذلك نحن نريد أن نتمسك بأصولنا الثقافية والحضارة ونأخذ بالآليات من الغرب، والوسائل من الغرب، لا مانع، أما المقاصد فهي من عندنا أساسًا.

س: نرجع إلى السؤال بناء على ما تفضلتم به هل ترون من الأنظمة الديمقراطية الموجودة في الغرب اليوم، مظاهر تعجب بها، وتتفق معها وترغب في أن تراها في العالم الإسلامي؟

نعم هناك كثير من الأشياء الجزئية في الغرب أعجب بها؛ لكني لا أجد مجتمعًا أراه المجتمع الذي أتمنى أن يكون عليه المجتمع العربي والمجتمع المسلم، أعجب مثلًا في الحريات السياسية والحريات العامة التي أراها في الغرب، حرية التعبير، حرية الرأي، حرية النقد، حرية المعارضة، وإن كنت أخذت على الغرب بعد أحداث 11 سبتمبر أنه بدأ يتراجع عن هذه الحقوق، وبدأ يضيق على الحريات، وبدأ يعامل غير أهل البلاد الأصليين كالذين اكتسبوا الجنسيات من مدد، بدأ يضيق عليهم ويضيق على المهاجرين، ويضيق على الجنسيات المختلفة، الغرب للأسف هذه التجربة هزته، وزلزلت أركانه، فما كنا نعجب به أصبح مهزوزًا الآن.

كنا نعجب بالحريات ورعاية حقوق الإنسان، وحقوق الضعفاء، وأعجبت بما في الغرب أيضًا من التقدم العلمي، والتقدم التكنولوجي؛ الذي وصل إلى مراحل متطورة، ومراحل عالية جدًا من الإنتاج في كل مستوياته: الإنتاج

المدني، والإنتاج العسكري، ووصل إلى الثورات المعروفة الآن، الثورة الإلكترونية، والثورة البيولوجية، والثورة النووية، وثورة الفضائيات، وثورة الاتصالات وثورة المعلومات. أعجب بهذا وأتمنى أن تصل بلادنا العربية والإسلامية إلى هذا المستوى.

يعجبني أن الإدارة في هذه البلاد بلغت مستوى رفيعًا في الجانب الإداري والتنظيمي، وهو وراء كثير من النجاحات الاقتصادية، وغيرها.

يعجبني في الحقيقة النظام السياسي المستقر في بلد مثل بريطانيا فيها ملكية تملك ولا تحكم، وتحترم هذا الأمر وليست كالملكيات الطاغية في بعض بلادنا للأسف وفيه أحزاب تحترم نفسها وتحترم صناديق الانتخاب، ومن يقول الشعب عنه: إنه موضع الثقة هو الذي يحكم ولو بفارق بسيط.

هذا يعجبني. وأتمنى أن يكون في بلادنا نظام الانتخاب، الانتخاب الحقيقية ... نحن للأسف كثير من بلادنا تقول: إنها ديمقراطية ولكنها ديمقراطيات مزيفة، بعضها ديمقراطيات أخذت من النظام الاشتراكي أصلا، مثل نظام الاستفتاء، أن يستفتي على رئيس، تنتخبه أو لا تنتخبه، وهو الذي قال فيه أحد الكتاب الاشتراكيين: إنه سباق يعدو فيه حصان واحد، ورأينا في مثل هذه الديمقراطيات من يفوز بـ 99% وربما 99.99% أي أربع تسعات، أنا أتمنى أن نأخذ بالنظام الديمقراطي الصحيح، وينتخب الناس من يثقون به، ويسلم الجميع لهذه النتائج، المشكلة في بلادنا هي التزييف، وقشور الديمقراطية وليس لبابها.

أنا معجب بالنظام الديمقراطي الصحيح سواء كان في بلادنا أو في الغرب

حتى الديمقراطية الهندية، أنا معجب بالديمقراطية الهندية، ولست معجبًا بالدكتاتورية الباكستانية، معجب بالديمقراطية في اليابان أيضًا، الديمقراطية التي تسقط الحكومات وتقيمها بناء على رغبة الشعب عن طريق صناديق الانتخابات.

كل هذا أنا معجب به، وأرى أن النظام الديمقراطي بضوابطه هو الأصلح لشعوبنا وبلادنا، وهو الأقرب لنظام الشورى الإسلامي، النظام الذي يقوم على الشورى من الحاكم والنصيحة من المحكوم والتعاون بين الجميع على البر والتقوى، وعلى مقاومة الطغيان والجبروت، والفرعونية، والاستبداد. هذا النظام هو الأقرب إلى النظام الإسلامي.

ولكني لا أقبل أن نأخذ من المجتمعات الغربية ما فيها من إباحية وتحلل، ومن نزعة مادية، ومن غياب العنصر الروحي، ومن غلبة الشهوات على الناس لأننا أمة في أصلها أمة دينية. الأمة العربية والأمة الإسلامية أمة دينية الجذور، هويتها الأساسية تقوم على الدين الإسلامي. لو نظرت إلى الأمة الإسلامية الآن في هذا الشهر «رمضان»، تجد أمة تتعبد لله بما لا تتعبد به أمة غيرها، صلاة التراويح، في أنحاء العالم الإسلامي المسلمون يصلون فيها ثمان ركعات أو عشرين ركعة، يظلون فيها ساعتين أو أكثر، في أنحاء العالم الإسلامي، في مكة والمدينة يوميا مليون أو أكثر، وفي ليلة سبعة وعشرين ربما مليونان أو ثلاثة ملايين، فهذه أمة متعبدة، فإذا أردنا أن نرقى بهذه الأمة أو نصلحها لا نستورد لها شيئًا لا يناسبها، ونفرض عليها كما فعل كمال أتاتورك عندما أراد أن يصلح البلاد غير كل شيء، سلخ الأمة من جلدها، وهذا ليس إصلاحًا، هذا نوع من الإفساد وليس نوع من الإصلاح، إن هذا

مسخ للأمة، للأسف أكثر الذين حكموا الأمة العربية والإسلامية في الفترة الماضية حكموها على أساس غير سليم؛ لأنهم لم يحكموها على أسسها الحقيقية المنطلقة من جذورها ومسلماتها وهويتها التي تعيش لها وتؤمن بها.

س: نريد أن ننتقل إلى نقاط محددة حصل فيها نقاش حول رأيكم فيها: أول قضية هي قضية العمليات الاستشهادية. التي يسمونها في الغرب العمليات الانتحارية، هي تقول: إن نقل عنكم قولكم إن هذه العمليات هي الوسيلة الوحيدة المتاحة للفلسطينيين، ولكنك قلت أيضًا: إن هذه العمليات موجهة إلى غير المدنيين، وقلت أيضًا في نفس الوقت إن كل الرجال والنساء في الكيان الصهيوني يخدمون في الجيش، إذا من هم المدنيون هل نعتبر الأطفال مثلًا هم المدنيون، هل يمكن أن توضح لنا موقفكم تجاه هذا الموضوع؟

موقفي هذا واضح لأنه ينطلق من الشريعة الإسلامي، والشريعة الإسلامية لها دستور صار يضبط أمور الحرب بضوابط أخلاقية، فلا يسمح الإسلام بسفك الدماء إلا للضرورة القصوى، لأن الأصل في الدماء العصمة. فلا يجيز الإسلام من هذه الدماء إلا ما اقتضته الضرورات التي لا مفر منها، ولذلك حرم الإسلام في الحرب قتل من نسميهم الآن المدنيين. حرم قتل النساء إلا إذا كانت هذه المرأة تقاتل فحالها كحال الرجال، كذلك قتل الأطفال، في الحديث: «**لا تقتلوا وليدًا**»[98]، وقتل الشيوخ الهرمين، وقتل الرهبان في الصوامع الذين يتعبدون، وقتل الحراث الزراع في أرضهم، والتجار في

(98) إشارة إلى حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله صصص إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه ... رواه مسلم في الجهاد والسير (1731).

متـاجرهم، حـرم الإسـلام قتـل هـؤلاء لأنهـم لا يقـاتلون، وحينمـا رأى النبـي صصص امرأة مقتولة في معركة غضب وقال: «**ما كانت هذه تقاتل**»[99] معناها أن القتل لا يكون للذي لا يقاتل، فالعمليات الاستشهادية هذه أجزتها وأجازها الكثيرون، لست أنا من أجازها فقط، هناك الكثيرون، الجماهير من علماء الدين المسلمين أجازوا هذه العمليات، واعتبروها نوعًا من الجهاد، واعتبروا المقتول فيها شهيدًا؛ لأنه بذل روحه وضحى بنفسه في سبيل الله ليدفع عن حرماته، والأصل في هذه العمليات: أنها سلاح الضعيف في مقابلة القوى، وأنا أرى هذا من العدالة الإلهية أنها مكنت الإنسان الضعيف وأعطته سلاحًا لا يملكه القوى، لأن هذا الإنسان الضعيف يملك روحه فيضحى بها، وخصمه القوي لا يمكنه أن يضحي بنفسه، فعنده سلاح لا يملكه عدوه، والذي أعرفه إن إخواننا الذين يقومون بهذه العمليات من فصائل المقاومة الفلسطينية من حماس والجهاد، والجبهة الشعبية والديمقراطية، وكاتب الأقصى من فتح، كل هؤلاء يحاولون أن يتخيروا مواقع الجنود؛ يعني التجمعات التي يتجمع فيها الجنود عندما يركبون، عند الباصات عند المحطات ... وهكذا، يقصدون أساسًا الجنود، قد يقع منهم أن يصيبوا طفلًا أو يصيبوا إنسانًا لا علاقة له؛ فهذا يأتي تبعًا لا قصد، وهذا من ضرورات المواجهة العسكرية فليس قصدًا، وما أقوله بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي ليس هو الأساس في الاستدلال، أقول إن المجتمع الإسرائيلي له خاصية غير المجتمعات الأخرى، أن رجاله ونساءه جنود في الجيش فلا ينبغي أن ننظر إليهم كما ننظر إلى المجتمعات الأخرى، فإن أي امرأة مثلا في المجتمع

---

(99) سبق تخريجه.

الغربي مدنية، ولكن ليس كل امرأة في المجتمع الإسرائيلي مدنية قد تكون جندية احتياطية في الجيش ومع هذا أنا لا أرى أن يتعمد المقاتلين الفلسطينيين أن يقتلوا امرأة، أو يقتلوا طفلًا، ولا أن يقتلوا شيخًا كبيرًا، هذا يأتي بالرغم منهم. بحكم الضرورات كما قلت: الضرورات العسكرية التي يلجئون إليها إلجاء.

إن كل الحروب تقع فيها الأخطاء، ويقتل فيها من غير المحاربين من يقتل، يقتل مدنيون، ونحن نرى الآن في العراق، وفي أفغانستان، وفي بلاد كثيرة يقتل فيها مدنيون من أهل البلاد، ويعتبر القادة العسكريون الأمريكيون أن هذا وقع من باب الخطأ، فلماذا يبررون لأنفسهم ما لا يسمعون تبرير غيرهم.

الأمر الثاني: أن مسألة العمليات الاستشهادية هذه أصبحت تاريخًا، يعني لم يعد الإخوة الفلسطينيون يعولون عليها، منذ فترة طويلة لم تحدث هذه العمليات، وإنما عمليات المقاومة أصبحت تأخذ شكلًا آخر، فلا داعي أن نبدئ ونعيد فيها.

س: فضيلتكم قلتم بأن هذا سلاح الضعيف، هناك في لندن من يمكن أن يعتبر أن الشباب الذين لجئوا إلى هذه العمليات يوم سبعة يوليو التي حصلت في لندن ربما استخدموا نفس المنطق، بأن المسار السياسي مغلق أمامهم وبأنهم لجئوا إلى هذه العمليات لأنهم شعروا بالضعف، وأنهم غير قادرين على إيقاف مجريات الأمور في العالم؟

أنا أجزت هذه العمليات للذين يقاومون الاحتلال؛ الضعفاء الذين احتلت

أرضهم، وغزاهم عدو قاهر، ولا يملكون من الأسلحة ما يقاومه أجزنا له هذه العمليات ولم نجز لغيره، ولذلك فأنا أنكرت عمليات 11 سبتمبر وقال لي الصحفيون الأمريكيون: أنت أجزت العمليات الاستشهادية في فلسطين، قلت لهم: فرق بين العمليات داخل فلسطين وعمليات 11 سبتمبر، لأن للعمليات داخل فلسطين غاية واضحة؛ وهي الدفاع عن النفس وعن الوطن، والوسيلة واضحة أنه يضع روحه على كفه، أما العمليات الأخرى فإنها ليست كذلك فالذي قام بها ذهب يغزو وطن الآخر، لا ليدافع عن وطنه، ولم يستخدم روحه ونفسه وذاته إنما استخدم طائرات بركابها؛ ليضرب بها أناسًا ليسوا هم المحاربون، إن الناس الذين كانوا في البرجين أناسًا موظفين في شركات، ومنهم عرب ومسلمون وأناس لا ناقة لهم ولا جمل في القضية، وقضية تفجيرات لندن هي أشبه بهذا فهؤلاء ليسوا مدافعين ضد الاحتلال في وطنهم، ولكنهم ضربوا أناسًا ليسوا هم من المقاتلين، ضربوا أناسًا ذاهبين إلى أعمالهم، أناس محايدين تمامًا: ومنهم العربي ومنهم المسلم ومنهم الإنسان الذي لا شأن له بالسياسة، هذا غير هذا تماما.

س: كيف اتجهت إلى دراسة العلوم الشرعية؟

من أول الأمر في قريتنا كل الأولاد يذهبون إلى الكتاب لحفظ القرآن، كنت ممن ذهب إلى الكتاب لأحفظ القرآن الكريم، وحفظته صغيرًا وأنا في التاسعة من عمري وبضعة أشهر، وبطبيعة الحال من يحفظ القرآن الكريم يتجه إلى التعليم في الأزهر، خصوصًا التعليم في الأزهر كان مجانيًا، ولا يحتاج إلى عبئ نفقات مثل التعليم في المدارس المدنية. في ذلك الوقت لم يكن التعليم فيها مجانيًا، كان كل من يحفظ القرآن مثلي يتوجه إلى التعلم في

الأزهر.

س: لماذا غادرت مصر لتعيش في قطر؟

جئت مجيئًا طبيعيًا معارًا من جمهورية مصر العربية، إلى دولة قطر، إلى وزارة التربية والتعليم مديرًا لمعهدها الديني، كنت أنوي أن أبقى ثلاث أو أربع سنوات ثم أعود إلى مصر.

ولست أنا وحدي كان معي أناس آخرون الشيخ عبد المعز عبد الستار والشيخ أحمد العسال وغيرهما، هذا مفتش علوم شرعية وهذا مفتش رياضيات ... وهكذا. جئنا من مصر معارين إلى دولة قطر.

لكن في سنة 1965م أعلن عبد الناصر الحرب على جماعة الإخوان المسلمين من موسكو، وبدأت حملة اعتقالات وإيذاءات وتعذيبات، وكنت في قطر في ذلك الوقت، وباعتباري تاريخيا من الإخوان المسلمين لم أنزل إلى القاهرة لمدة تسع سنوات، وطبعًا مصر طلبتني من قطر أن أنزل إلى مصر ولكن قطر رفضت هذا وأعطتني جوازًا وجنسية قطرية.

س: هي تحب أن تسمع منك هل: للإخوان المسلمين أثر في طريقة تفكيرك وفي منهجك؟ وهل عاصرت المرحوم سيد قطب؟ وإذا كنت عاصرته فما رأيك في طريقة تفكيره وما كتبه؟

لا شك أن للإخوان المسلمين أثرًا واضحًا في تفكيري، وقد استمعت إلى الشيخ حسن البنا وأنا طالب في السنة الأولى الابتدائية في المعهد الأزهري، وأعجب به غاية الإعجاب، وانضممت إلى الإخوان بعد ذلك، وتأثرت بمنهج الإخوان وبطريقة الأستاذ حسن البنا مؤسس الإخوان، وانتقلت من التدين

الفردي إلى الدعوة العامة، من واعظ في القرية إلى داعية إسلامي ينفتح على العالم.

لا شك أن الإخوان فتحت لي آفاقًا عديدة وسعت من دائرتي، وجعلتني أختلط بفئات المجتمع، فتأثرت بحسن النبا أكثر من غيره.

ولكني أود أن أقول إن الله سبحانه وتعالى رزقني الاستقلال، ولم أحاول أن أكون مقلدًا لأي شخصية من الشخصيات، لا أحب أن أتقمص شخصية أحد، أخذت من حسن البنا ولكني لم أحاول أن أكون حسن البنا، بعد ذلك انتقدت حسن البنا في بعض الأشياء وكان لي اجتهادات تخالف اجتهاداته، أنا في أول الأمر أخذت من الإخوان ولكني في السنوات الأخيرة ومنذ مدة من الزمن أصبحت والحمد لله معطيًا للإخوان، ربما يعتبروني منظرًا لهم، ربما يعتبروني مفتيًا، وقد أثرت اتجاهاتي المختلفة في أفكار الإخوان، يعني الإخوان كان لهم موقف متشدد مع المرأة، حتى الأستاذ حسن البنا كان له رأي شديد في ناحية المرأة، أرائي أثرت على الإخوان، وأصدروا بيانًا، كان الإمام البنا ضد الحزبية والأحزاب، ولكنني تحدثت عن أن الحزبية ضرورة، وأنه لا بد من الأحزاب والتعدد الحزبي ما دام يقوم على أصول صحيحة. وأصدرت قيادة الإخوان بيانًا من عدة سنوات يدعو إلى التعددية، ويجيز التعددية الحزبية وغيرها.

أما سيد قطب ححح فأنا لقيته في حياتي وجها لوجه، جلست معه مرتين؛ مرة أنا الذي سعيت إليه، ومرة هو الذي دعاني وهذا مذكور بالتفصيل في مذكراتي التي نشرت وقد نشرت منها ثلاثة أجزاء وسميتها «ابن القرية والكتاب»، وأنا ممن قرأ لسيد قطب وكنت من المعجبين به، بأدبه في مرحلة

الأدب ودعوته في مرحلة الدعوة، وبعد ذلك حينما اتخذ في المرحلة الأخيرة موقف الرفض والعنف، وقفت موقفًا آخر وانتقدت بعض أفكاره في هذه المرحلة، نقدت رأيه في الاجتهاد في كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» وعقبت في مذكراتي على بعض مواقفه في قضية التكفير.

س: من القضايا المطلقة أن يرى بعض المسلمين أنه يجوز سفك دماء مسلمين آخرين لأنهم يعارضونهم، نرى الآن في العراق بعض السنة يقتل بعض الشيعة؟ هل لكم موقف معلن في هذه القضية؟

موقفنا واضح جدًا ... إن هذا مبني على قضية التكفير. وأنا موقفي واضح جدًا من هذه القضية، وأصدرت فيها رسالة أسميتها «ظاهرة الغلو في التكفير» عندما خرجت جماعة التكفير والهجرة في مصر واختطفت الشيخ الذهبي، وقتل بعدها الشيخ الذهبي، قبله بمدة أصدرت هذه الرسالة، وأصلها فتوى عن التكفير كانت في كتابي «فتاوى معاصرة»، ثم نشرت في مجلة المسلم المعاصر، وعارضت قضية التكفير، فإنك إذا كفرت مسلمًا فمعناه أنك استبحت دمه وماله، وهذا أمر خطر، أنا لا أكفر الشيعة، قد يفعل ذلك بعض الإخوة السلفيين يكفرون الشيعة، أنا لا أكفر الشيعة، وإنما أدعو للتقريب بين المذاهب والطوائف الإسلامية المختلفة، وحضرت أكثر من مؤتمر للتقريب، وألفت في ذلك رسالة أسميتها «مبادئ في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية» لذلك أنا لا أرى أبدًا أن يستبيح المسلم دم المسلم؛ لأنه ما دام يصلي إلى القبلة فلا يجوز استباحة دمه، وأرى أن الأمر لا يقف عند السنة فقط؛ فهناك من الشيعة من قتل من أهل السنة. جماعة فيلق بدر وغيرهم قتلوا من أهل السنة خصوصًا من علماء أهل السنة، ومن خطباء المساجد ومن

أئمة الدين، وهذا أمر لا يبرزه الإعلام للأسف كما يبرز ما يفعله السنة، ومن الإنصاف أن يذكر هذا وذاك، ومعظم ما يقع من ذلك هو من جماعة الزرقاوي. وهؤلاء يكفرون مثلي أيضا فدائرة التكفير عندهم واسعة جدًا.

س: اليوم عندما كنا عند الأستاذ وضاح قال لها كلمة أعجبتها قال: إنك تؤمن أن الحرية مقدمة على تطبيق الشريعة الإسلامية؟ ما الذي تقصده بذلك؟

أنا أقصد أن كثيرًا من الدعاة الإسلاميين من الإخوان، والجمعيات الإسلامية المختلفة، وحزب التحرير وغيرهم ينادون بالتطبيق الفوري للشريعة الإسلامية، وأنا أقول: إننا قبل أن ندعو للتطبيق الحرفي والفوري للشريعة الإسلامية، يجب يجب أولًا أن يتوافر جو الحرية. نريد أن ينعم الناس بالحريات، حتى إذا اختاروا الشريعة الإسلامية يختارونها عن اقتناع لا عن قهر ولا عن إكراه، فهذا الجو الذي يستطيع الإنسان أن يقول فيه: نعم بحرية ولا بحرية. هذا هو الذي أراه، وأنا أرى أنه هو من الشريعة الإسلامية. يعني هذا ليس خروجا عن الشريعة الإسلامية؛ بل هو جزء من الشريعة الإسلامية، ولكن من ناحية الأولويات علينا أن نقدم هذا، يجب أن نقدم جو الحرية العام المتاح للناس، حتى إذا طبقت الشريعة الإسلامية طبقت في هذا الجو؛ الذي يسمح لها بالنمو وبالوصول إلى عقول الناس وضمائرها بسهولة وبسلاسة.

قبل أن نقول للناس: اقطعوا يد السارق، أو اجلدوا السكارى نقول: ارفعوا أيديكم عن المسجونين، أطلقوا سراح المعتقلين، افتحوا النوافذ للحريات، ليتكلم الناس، ليعبروا عن أنفسهم. نريد هذا الجو ... هذا الجو مطلوب قبل أن

ننادي بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

س: فيما يتعلق بقضية اللواط؛ وهي إشكالية بين الإسلام والغرب الآن الذي أصبح يعتبر أن هذا الأمر مقبولًا، كيف يمكن أن نتجاوز هذا الخلاف في هذه القضية بين مسلمين يعتبرون أن هذا أمرًا فاحشًا مرفوضًا، وبين الغرب الذي أصبح يعتبر هذا الأمر مقبولًا؟

أنا أتعجب هل تخلى الغرب عن مسيحيتهم. المفروض أن الغرب مسيحي الديانة؛ على الأقل بحكم النشأة، وبحكم التاريخ. والمسيحية ترفض هذا الأمر ترفض الزنا، وترفض اللواط، واعتبرت اللواط أشد من الزنا. وأسفار التوراة اعترت أن قوم لوط هؤلاء الذين سلط الله عليهم من العقوبات السماوية ما هو معروف، كان من أجل هذا الأمر، وأعتقد أن المسلمين ليسوا هم وحدهم من ينكر هذا الأمر. المسيحيون المتدنيون أيضا ينكرون هذا الأمر، «بابا» المسيحين ينكر أيضا هذا الأمر، كما تنكره كتب السماء.

ليس المسلمون وحدهم، وهذا الأمر لو شاع وأصبح أمرا يفعله الناس بدون استنكار، واستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ما معنى هذا؟ معنى هذا أن تنتهي البشرية بعد جيل أو جيلين، لأن الله سبحانه وتعالى جعل بقاء البشرية بأن يلتقي الرجل بالمرأة لكي يتم الإنجاب؛ ولكي يستمر النوع البشري؛ بلقاء الرجل بالمرأة بالزواج الشرعي الذي أقرته ديانات السماء، من عهد إبراهيم ومن عهد نوح، التقاء الرجل بالمرأة ينشأ منه الأبناء، **{وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً}** [النحل: 72] كيف يأتي؟ يأتي بالزواج.

اللواط لا يأتي منه أبناء ولا أحفاد. ومعنى هذا فناء البشرية، هل يسعى

الناس إلى فناءهم بأيديهم وإرادتهم؟! إذا كان هذا شهوة بشرية فلا ينبغي للناس أن يتبعوا شهواتهم، استسلام الإنسان لشهواته ولغرائزه البحتة دون ضابط من دين أو إيمان أو أخلاق عملية خطيرة على البشرية، هلاك للنوع البشري، الإنسان ليس هذا الغلاف، مجرد الجسم والعظم والدم والغرائز هذه، الإنسان هو الكائن الداخلي؛ الروح الفؤاد الضمير ... الإنسان هو هذا، فكيف نعلي الشهوة على الضمير، ونعلي الجسد على الروح، ونستسلم لهذا؟ ونقول: إن هذا خلاف بين المسلمين وغير المسلمين. لا. هذا خلاف بين الأخلاق وبين عدم الأخلاق، بين حياة الضمير وحياة الجسد، إذا كنا نريد أن نمجد الأنبياء العظام والرسل العظام الذين قادوا البشرية خلال التاريخ الطويل فهم كلهم ينكرون هذا الأمر.

س: قضية المرأة بناتك تعلمن وأصبحن أساتذة، هل ترى أن هناك نواحي في الحياة للرجال فيها سلطان على النساء أم أن النساء والرجال سواسية في كل شيء؟

الأصل أن الرجل والمرأة كلاهما مخلوق لله تعالى، وكلاهما مكلف بعبادة الله ومستخلف في الأرض، وقد قال القرآن عن علاقة الرجال بالنساء **{بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ}** [آل عمران: 195]، أي المرأة من الرجل والرجل من المرأة أي لا يستغني بعضهم عن الآخر، والله يقول: **{وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ}** [التوبة: 71]، وقال الرسول صصص: **«إنما النساء شقائق الرجال»**[100] هذا هو الأصل كل ما فرضه الإسلام أن في حالة الزوجية القوامة قوامة البيت ومسئولية البيت بيد الرجل، هذه شركة والشركة لا بد لها

(100) سبق تخريجه.

من مدير، إذا تركت بدون إدارة تكون فوضى، إذ كان فيها مديران متكافئان في السلطة، «المركب التي فيها رئيسان تغرق»، الرجل هو الأقدر على الإدارة خصوصًا إسلاميًا، الرجل هو الذي يغرم في تأسيس الأسرة، هو الذي عليه أن يدفع مهرًا للمرأة، هو الذي عليه أن يؤسس البيت، هو الذي عليه النفقة، ومقابل هذا عليه المسئولية وهذا هو السلطان الوحيد، ولا يعني هذا أن بالقوامة تصبح المرأة كمًا مهملًا. لا، لا بد أن يشاورها ويأخذ رأيها في الأمور، حتى أن النبي صصص شاور بعض نسائه في الأمور العامة، ليس الأمور المنزلية، كما شاور أم سلمة وأشارت عليه وأخذ برأيها[101].

س: قضية ضرب النساء كيف نفهمها في هذا السياق؟

هذه القضية أساء كثير من الناس فهمها لأن الإسلام لم يدعو إلى ضرب المرأة ولم يحبذ ضرب المرأة، بل لا يحبذ ضرب أي أنسان قط، لا يعتبر الضرب أمرًا مستحبًا، ولكن هذا الأمر ضرورة اقتضته الضرورة في بعض الأحوال ولبعض النساء وفي حدود معينة وذلك في حالة النشوز، نشوز المرأة.

* * *

(101) قصة الحديبية ومشاورة أم سلمة للرسول صصص ذكرها البخاري بالتفصيل في الشروط (2731، 2732) عن المسور بن مخرمة.

(3)

بين القرضاوي والـ «بي بي سي»

أجرت الإذاعة العربية في الـ «بي بي سي» لقاء مع فضيلة الشيخ القرضاوي خلال زيارته للندن العاصمة البريطانية بدعوة من الرابطة الإسلامية في بريطانيا 2003م، لإلقاء عدد من المحاضرات، ولعقد لقاءات إعلامية مكثفة الهدف منها: هو تصحيح المفاهيم المغلوطة التي غابت معها وسطية الإسلام وسماحته.

أجرى اللقاء المقدم زين العابدين توفيق؛ الذي حاور الشيخ القرضاوي حول عدة مواضيع منها الحرب الوشيكة على العراق، وبما يسمي بصدام الحضارات، وفيما يلي نص الحوار:

حكم مساندة العدوان على العراق

س: المسلمون الآن يواجهون تحديات عدة، وآخر هذه التحديات الهجوم المتوقع على العراق، وتحدثت فضيلتكم أكثر من مرة عن دور المسلمين في التضامن مع الشعبين العراقي والفلسطيني، وماذا عن الحكومات العربية والإسلامية، يعني ما حكم من يقف إلى جوار المهاجمين في هذه المسألة؟

ج: بسم الرحمن الرحيم ... الحمد لله وأزكى صلوات الله وتسليماته على أنبيائه ورسله، وعلى خاتمهم محمد الذي أرسله ربه رحمة للعالمين: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107].

بداية فأنا أدين كل من يساند العدوان، سواء كان على المسلمين أم كان على غير المسلمين، لأن من شأن المسلم ألا يظلم وألا يكون عونًا للظالم فمعاونة الظالمين في الإسلام هي أيضًا بمثابة الظلم. وعندنا من المأثورات الإسلامية ما يمنع من هذا، حكماء الأمة يقولون: «من مشى مع ظالم ليقويه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»، ويقول بعضهم: «من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه»، يعني عندما يقولون: «يطول عمرك» أي يطول عمر الفساد والظلم.

فلذلك لا ينبغي لأي مسلم أن يساعد على ظلم، فكيف إذا كان الظلم هذا يشمل شعوبًا، ظلم الفرد محرم فكيف بظلم الشعوب، ظلم يترتب عليه موت وخراب وهلاك، فلهذا لا يقبل الإسلام الظلم لأي إنسان بل لا يقبل ظلم الحيوان، لا يقبل لإنسان أن يعذب حيوانًا بغير حق، وفي الحديث قال صصص: «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[102].

فإذا كان هذا الظلم على شعب مسلم وعلى وطن مسلم يكون أشد في الإثم؛ لأن المفروض أن يكون المسلم مناصرًا لأخيه المسلم، «**المسلم أخو المسلم. لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله**»[103] و«**المسلمون أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[104] فأنا أنتظر منك أن تنصرني

(102) رواه البخاري في بدء الخلق (3318) عن ابن عمر، ومسلم في البر والصلة (2619) عن أبي هريرة، وهذا لفظ البخاري.

(103) رواه البخاري في المظالم (2442)، ومسلم في البر والصلة (2580) عن ابن عمر.

(104) رواه أبو داود في الجهاد (2751)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب القيامة (6911)، وابن ماجة في الديات (2683)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»

وتساعدني فتأتي مع عدوي لتضربني وتحطمني؟ هذا لا يقبل.

س: البعض يقول: بأن تخليص العراق من الحكومة الحالية، ومن النظام الحالي هي خير للعراق، وخير للمسلمين. وقد يجد بذلك مبررًا للوقوف بجانب من يريدون تغير النظام في العراق.

ج: هذا كلام في الحقيقة يراد به تغليف الأهداف العدوانية بغلاف مُحسن و «مرزوق»، ولكن الحقيقة: هل المقصود من هذا هو تخليص العراق من صدام؟

ومن الذي يخلص أمريكا؟!

أمريكا هي التي ساندت صدام في مراحل طويلة من حياته، ساندته لضرب إيران، ضرب الثورة الإسلامية في إيران في نشأتها، ومدته بالسلاح، السلاح الذي تنكره اليوم أمريكا هي التي أمدت به عراق صدام، أو صدام العراق، ولم تنكره حينما ضرب به الإيرانيين ولم تنكره حينما ضرب به الأكراد في بلده منطقة «حلبشة» المعروفة، كان حلالًا في ذلك الوقت، أصبح حرامًا **{يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا}** [التوبة: 37]، أمريكا ساندته سنوات طويلة في حياته ثم الآن تتنكر له.

بل من المعروف أن أمريكا هي التي أغرت صدام بغزو الكويت، حينما سأل السفيرة الأمريكية: ماذا لو حدث شيء بالنسبة للكويت؟ فقالت: ليس بيننا وبين الكويت معاهدة دفاع ولا شيء من هذا. هذا معناها الطريق مفتوح لك، فليس المقصود التخلص من صدام، ثم إذا كان يراد التخلص من صدام ... فلا

(2390).

بد أن يتخلص منه الشعب العراقي ليختار البديل بنفسه، أما أن يفرض على الشعب العراقي حاكم عميل بديل للحاكم الدكتاتور أنا عندي أن الدكتاتور على ظلمه وسوءه، خير من العميل الخائن لبلده، المنضم لعدوه.

صدام الحضارات:

س: فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي ... كنت قد قمت بزيارة إلى الفاتيكان وفيما عرف بالحوار الإسلامي المسيحي، قبل ذلك أسامة بن لادن قسم العالم قال: إن أحداث سبتمبر قسمت العالم إلى فسطاطين ... فسطاط إيمان وفسطاط كفر ... هل ترى هذه التحركات الأمريكية في المنطقة والتحركات البريطانية معها مقدمة لصراع حضارات كما تحدث عنها صامويل هنتجتون؟

ج: أولًا: نحن نؤمن بحوار الحضارات وحوار الأديان، وإمكان التفاهم بين المختلفين، والإسلام يأمرنا بالحوار، يعني نحن ليس مخيرين في الحوار، نحن مأمورون بأن نحاور مخالفينا **{وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ}** [النحل: 125]، ونحن لسنا مع نظرية صامويل هنتجتون هذا بصراع الحضارات أو صدام الحضارات، فالتفاهم ممكن، وإن كان هو يخفي في كلامه عن صراع الحضارات أنه في الحقيقة صراع الأديان، فهو قسم الحضارات السبع أو الثماني مثل: الحضارة الإسلامية، والحضارة الكونفوشيوسية، والحضارة الأرثوذوكسية، والحضارة اللاتينية، يعني كلها تحمل عنصرًا دينيًا خفيًا، وإن كان هو يقول الحضارة الأرثوذوكسية الروسية، وحضارة أمريكا اللاتينية فهو يخفي العنصر الديني.

هو يرى أن كل الحضارات يمكن التفاهم معها، ما عدا الحضارة

الإسلامية، حتى الحضارة الكونفوشيوسية. وهو يعبر بها عن الحضارة الصينية يقول: إنه يمكن التفاهم معها، ولكن الحضارة الإسلامية هذه الحضارة الناشزة التي يصعب التفاهم معها، نحن نخالفه وإن كان يعتبر من التبريرات الفلسفية للسياسة الأمريكية، ولكن نحن لا نأخذ هذه التحليلات مسلمة، نرى أن هناك شوائب كثيرة تشوبها.

س: ألا يلتقي كلامه عن الصدام مع الحضارة الإسلامية بالذات مع ما يقال أيضًا في الجانب الإسلامي عن أن الكفر ملة واحدة، أي أن كل الملل الأخرى في كفة والإسلام في كفة أخرى؟

ج: لا. الإسلام ينظر إلى الملل الأخرى في كفة والإسلام في كفة على أساس: أنه له وجهة غير وجهتنا، وله فلسفة غير فلسفتها، وإن كان الإسلام يرى: أن أهل الكتاب أقرب إليه من غيرهم، ولهذا أجاز مصاهرة أهل الكتاب، وهذا في قمة التسامح، يعني أهل الكتاب لا يجيزون هذا ولكن الإسلام أجاز أن يتزوج المسلم مسيحية أو يهودية، ومعنى هذا أنها تكون ربة بيته وشريكة حياته وتكون أم أولاده، ومعنى هذا أن يكون أبوها يصبح جد أولاده، وأمها تصبح جدتهم، وأختها تصبح خالتهم، وأخوها يصبح خالهم، أصبحت هناك رحم مشتركة، وأصبحت هناك حقوق ذوي القربى. هذا قمة في التسامح.

ومع هذا الإسلام يرى أن اختلاف الناس في الأديان واقع بمشيئة الله. وأن الله حينما خلق الإنسان وأعطاه العقل والإرادة فمعنى هذا: أعطاه حرية التغاير مع الآخرين. ولهذا قال: **{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 118 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}** [هود: 118، 119]

المفسرون يقولون: لذلك «أي للاختلاف خلقهم» لأنه خلقهم بعقول ... كل واحد له عقله وله إرادته وله اختياره؛ فلا بد أن يتغايروا، ولا بد أن يختلفوا[105].

موضوع الردة:

س: فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي ... ذكرت الاختلاف وإذا كان الإسلام يسمح بالاختلاف بين المسلمين وغير المسلمين ... هل يسمح بالاختلاف بين المسلمين أنفسهم، وكما نعلم أنك من المجتهدين، وتفتح باب الاجتهاد لكثير من العلماء كلام كثير قيل عما يسمى في الإسلام بالردة، هل إذا رأى المسلم نفسه مولودًا مسلمًا ورأى طريقًا آخر غير الإسلام هل أيضًا يحكم بقتله كما هو الحال؟

ج: موضوع الردة كبير. وأنا قدمت فيه رسالة اسمها «جريمة الردة وعقوبة المرتد» حتى عقوبة القتل هذه ليس متفقًا عليها، هناك من العلماء من يقول: إن المرتد يستتاب أبدًا. يعني يناقش دائمًا. وهذا رأي الإمام النخعي من فقهاء التابعين، والإمام الثوري - وهو نظير الإمام أبي حنيفة، وكان له مذهب استمر مدة طويلة - ولذلك ليس هذا الأمر متفقًا عليه.

ثم ليست الردة كلها من نوع واحد، يعني هناك واحد ارتد اقتنع بشيء آخر؛ فذهب إلى جهنم، ومثلما قال القرآن الكريم: **{وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ}** [البقرة: 217].

---

(105) راجع ما ذكرناه في كتابنا «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم».

إنما الخطر حينما يصبح المرتد داعيًا لدينه الجديد، ومهاجمًا للدين القديم، ويدعو المسلمين إلى الخروج عن دينهم، ويفتنهم في عقيدتهم، هنا يصبح الخطر لأنه يهدد الأمة في كيانها المعنوي، وكل نظام من الأنظمة عنده أشياء أساسيات لا يقبل الاختلاف فيها ... وهذه الردة والدعوة إليها من الممكن أن تكون خطورة هائلة، وأنا أضرب لك مثلًا:

أتعرف ماذا حدث لأفغانستان؟ الذي حدث لأفغانستان منذ أكثر من عشرين سنة إلى اليوم سببه جماعة ذاهبوا إلى روسيا، هؤلاء حينما أخذوا الحكم أرادوا أن يفرضوا هذا الدين الجديد أو المذهب الجديد على الشعب الأفغاني، الذي رفض لتمسكه بدينه، هؤلاء استعانوا على الشعب الأفغاني بالسوفيت، بالدبابات السوفيتية، والطائرات السوفيتية تدك البلد، واستمرت الحرب إلى اليوم، كل ما يجري في أفغانستان إلى اليوم سببه هؤلاء المرتدون؛ الذين أرادوا أن يفرضوا الردة على الأمة.

فالردة ليست جريمة هينة، ليست مجرد خلاف فكري، لا. هذا إنسان يغير ولاؤه من أمة إلى أمة، ومن وطن إلى وطن آخر، هل يقبل أي داعية وطني الآن الخيانة الوطنية؟

هل يقبل واحد يقول لك: أن أرى أن أفضل شيء لمصر أن يحكمها البريطانيون، ويدعو إلى هذا؟ ماذا تسمى هذا؟

نسميه: خائن، خيانة عظمى، ويستحق القتل والإعدام. أحيانًا الردة تكون بمثابة الخيانة العظمى لأنها تكون عمل ضد الأمة، ولكن إذا كان هناك شخص يقف موقفًا؛ وهو في نفسه لا يكون خطرًا على الأمة فهو وما يرى.

الغرب والتعامل مع فوائد البنوك:

س: هناك قضايا كثيرة تطرأ كل يوم، وتتجدد فيه أكثر بكثير مما تجدد خلال القرون والعقود الماضية، المسلمون في الغرب مثلًا يجدون صعوبة شديدة في تفادي مسألة الفائدة في البنوك، والتعامل مع النظام المصرفي، وهو نظام بعضه يشبه بعضًا، فلا فكاك لهم في التعامل مع هذه التعاملات ... هل تفتي المسلمين هنا في أوروبا وأنت رئيس مجلس الفتوى الأوروبي بالتعامل مع هذه الأشياء؛ على أن لا يجوز لهم ذلك إذا عادوا إلى بلادهم العربية والإسلامية؟

ج: المجلس الأوروبي للإفتاء أفتى للأقليات الإسلامية في أوروبا، أفتى لهم بجواز شراء البيوت بالقرض من البنك بفائدة واعتبر هذا حاجة من الحاجات للفرد المسلم، وللأسرة المسلمة، وصدرت فتوى من المجلس بهذا الأمر ... وطبعًا هناك من شنوا علينا الغارة بالتهاون في الدين، ونحلل الحرام ونعمل كذا ... ولكن من منطلق رعاية القواعد ورعاية المقاصد للشريعة، وأن الشريعة لا تريد إعنات الناس وإنما تريد رفع الحرج عنهم **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}** [الحج: 78]، **{يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ}** [البقرة: 185] من هذا المنطلق - وقد قال الفقهاء: إن الحاجة تنزل منزلة الضرورة - ولا شك أن السكن للإنسان حاجة، فأفتينا بجواز هذا في البلاد التي يعيش فيها المسلمون أقليات ويحتاجون إلى السكنى، وقد يفضي عدم إجازة هذا إلى حرج ومشقات كثيرة للفرد المسلم وللأسر المسلمة[106].

---

(106) راجع الفتوى بالتفصيل في كتابنا «في فقه الأقليات المسلمة» (ص154) وما بعدها، و «فتاوى معاصرة» (3 / 625) وما بعدها.

الرجوع عن الفتوى:

س: فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي ... كم مرة حدث ورجعت عن فتوى أفتيت بها في وقت سابق؟

ج: هذ هذه من الأشياء التي رجعت عنها، فقد كنت أفتي بتحريم هذا منذ مدة طويلة، ثم بدا لي أن أغير رأيي، ربما كان الإنسان حينما يبلغ الشيخوخة يكون أرق قلبًا، وأرفق بعباد الله، أو ربما كان نضج الإنسان عن طريق القراءة والتجربة والاطلاع لعله أيضًا السبب في تغيير الفتوى.

الإمام الشافعي كان له فتاوى وله فقه قبل أن يستقر في مصر، وبعد أن استقر في مصر أصبح له مذهب آخر، العلماء يقولون: قال الشافعي في القديم «يعني في المذهب القديم»، وقال في الجديد، أي في المذهب الجديد وأصبح هذا معروفًا عند الناس، لأنه في مصر رأى ما لم يكن قد رأى، وسمع ما لم يكن قد سمع، ثم أنه قد نضج فكره، حيث أصبح في الخمسين أو فوق الخمسين، فهذا يمكن للإنسان أن يراجع أفكاره واجتهاداته ويغيرها.

ومن الأشياء التي غيرت فيها أيضًا ويتعلق بالأقليات الإسلامية حينما تسلم المرأة ويبقى زوجها على دينه كنت أفتى بأن هذا لا يجوز وأنه يجب التفريق بينهما، ثم بعد أن زاد اطلاعي في هذه القضية وجدت الإمام ابن القيم يقول في أحد كتبه وهو كتاب «أحكام أهل الذمة» يقول: إن في المسألة تسعة أقوال، ويذكر هذه الأقوال، فاخترنا منها أيضًا - المجلس الأوروبي للإفتاء - القول الذي روى عن سيدنا عمر: أنها تخير في الفراق أو بقائها مع زوجها، وسيدنا علي نفسه روى عنه هذا وأن بعض السلف قالوا: هما على نكاحها ما لم يفرق بينهما سلطان يعني ما لم يصدر حكم قضائي، فيبقى العقد الأول

معمولا به، أخذنا هذا بالتيسير أيضًا؛ لأن إسلام النساء في الغرب كثير جدًا، أكثر من إسلام الرجال، وبعضهن متزوجات، وبعضهن على علاقة طيبة مع زوجها، وزوجها لا يمنعها من الإسلام، ولا يحجر عليها، ولا يضيق عليها، فلماذا نصر على التفريق؟[107].

وجدنا في هذا حلًا لهذه المشكلة.

الحجاب في الغرب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر:

س: بعض النساء في الغرب خلعن الحجاب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وقيل بأن هنالك من أفتى لهن بخلع هذا الحجاب حفظًا للنفس، على أساس أن النفس حفظها مقدم على أداء فريضة الحجاب ... هل توافق على هذا الرأي؟

ج: أنا أوافق عليه مؤقتًا، يعني إلى أن تستقر الأمور، وتعود الحياة إلى طبيعتها؛ لأن مثل هذه الأشياء لا تدوم، يعني أحيانًا تكون القبضة شديدة، ثم تهدأ العاصفة ويعود الناس إلى الحياة الطبيعية، ففي مواجهة العاصفة يمكن أن تتخلى ... نحن عندنا قاعدة تقول: الضرورات تبيح المحظورات، ولكن هذه القاعدة تكملها وتضبطها قاعدة أخرى هي: ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها، يعني لا نتوسع في الضرورة، لا تصبح الضرورة أصلًا، تظل الضرورة استثناء من القاعدة، ويظل الإنسان مشدودًا إلى القاعدة عندما تتاح الفرصة.

---

(107) راجع الفتوى بالتفصيل في «في فقه الأقليات المسلمة» (ص106) وما بعدها، و «فتاوى معاصرة (3 / 621) وما بعدها.

فالمسلمة مثلًا عندما نقول لها: اخلعي الحجاب الحجاب مثلًا وتلبس الجابونيز ... كلا، تخلع الرأس فقط، حتى بعض المسلمات خلعن الخمار ولبسن برنيطة يعني تغطى الرأس للتحايل، ثم إذا خلعتها أثناء العمل الذي يعرفها الناس فيه فتخلعه، وفي الأماكن الأخرى تلبسه وهكذا، فهذه الأمور لها ضوابط بحيث يظل الإنسان مشدودًا إلى الأصل الشرعي غير حائد عنه.

الاستنساخ البشري:

س: ذكرت فضيلتكم أن العلم عندنا دين والدين عندنا علم، هنا يطرح الاستنساخ نفسه على ملك رأيًا في الاستنساخ البشري: هل يمكن أن يتغير هذا الرأي لضرورات مستقبلية؟ يعني مثلًا: أسرة لا تنجب تريد أن تنجب طفلًا أو طفلة، هل يجري عليها التحريم أيضًا؟

ج: الأصل في هذا هو التحريم من غير شك، إنما يمكن أن يباح الاستنساخ الجزئي، استنساخ عضو معين، بعض الناس يحتاجون إلى عضو ... في علاج خلايا معينة مصابة بالسرطان ومصابة بكذا ... وممكن الاستنساخ من هذا ... إنما استنساخ البشر ينبغي أن نغلق الباب في هذا الأمر ... حتى لا تحدث الفوضى.

والإسلام يريد للإنسان أن ينشأ نشأة طبيعية بين أبوين وفي حضانة أسرة ... تعرف أن الطفولة الإنسانية هي أطول الطفولات، لأن الإنسان في حاجة إلى حضانة طويلة الأمد، في حاجة إلى تربية مستمرة، فهو في حاجة إلى أبوة راعية، وإلى أمومة حانية، وإلى أخوة عاطفة، يريد أن يعيش في هذا الجو، فلا بد أن نوفره له، فلا ينبغي أن نتوسع في هذا حتى لا يفتح الباب بعد ذلك على مصراعيه.

متى يضحك الشيخ القرضاوي ملء فيه؟

سؤال أخير فضيلة الدكتور ... متى يضحك الدكتور القرضاوي ملء فيه؟

الشيخ القرضاوي يضحك ... ثم يقول: أنا يا أخي لست إنسانًا عابسًا ... كان النبي صصص كما وصفه الصحابة ووصفه الصحابي عبد الله بن الحارث الزبيدي - وهو دفين قرينتا وهي قرية في الغربية اسمها صفت تراب مركز المحلة الكبرى، وهو آخر من مات من الصحابة بمصر كان من صغار الصحابة وكان مع عبد الله بن عمرو بن العاص، وتزوج في بلدنا واستقر بها ومات بها - روى عن النبي صصص يقول: «ما رأيت أكثر تبسمًا من النبي صصص»[108] فأنا لا أحب العبوس ولا التكشير، ولي فتوى طويلة اسمها «الدين والضحك»[109] حتى أننا نقول: الإنسان حيوان ضاحك فالضحك هو الأصل ... ولكني كما أضحك كذلك أحزن وأبكي ... وفي حالتنا هذه أعتقد أن الحزن والبكاء هو الواجب علينا لما تعانيه أمتنا.

كان الشاعر محمود غنيم - وهو شاعر له قصائد معروفة - قال في أحد الأعياد:

قالوا عجبنا ما لشعرك باكيًا في العيد ما هذا بشعر معيد
ما حيلة العصفور قصوا ريشه ورموه في قفص وقالوا غرد

فأنا أريد أن أضحك ولكن تبكيني هموم الأمة، نسأل الله أن يفرج عنها همومها، ويكشف غمتها ... اللهم آمين.

---

(108) رواه أحمد «المسند» (17704) وقال مخرجوه: حديث حسن، ورواه ابن المبارك في الزهد (145)، والترمذي في «السنن» (3641).

(109) «فتاوى معاصرة» (2 / 455 - 458).

المقدم: شكرا جزيلًا فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي.

الشيخ القرضاوي: شكرًا لك يا أخ زين العابدين، وفرصة طيبة إن شاء الله.

* * *

أسئلة من سويسرا

من الكاتب: ثابت عيد

* * *

تمهيد

ثابت عيد: باحث مصري يعيش في مدينة زيورخ بسويسرا منذ سنين، وهو معني بالبحث في أمور العقيدة والفلسفة والفكر، في تراثنا الإسلامي، وعلاقة ذلك بالفكر المعاصر. وله دراسات وبحوث جيدة في هذا المجال.

بعض وقد تعرض للاستشراق والمستشرقين بالنقد في بعض مقالاته، فقوبل بهجوم كاسح، شن عليه من يمين وشمال، وحوصر من كل جانب، وعوقوا مسيرته للحصول على الدكتوراه التي عمل لها منذ فترة طويلة. ولكنه ظل «ثابتًا» على ثغرته، صابرًا مصابرًا مرابطًا، متابعًا قضايا الأمة، ولا سيما العلاقة بين الإسلام والغرب.

وقد أقلقه ما يقرأه في الصحف الغربية (بعد أحداث 11 سبتمبر) وما تبثه وسائل الإعلام من حديث من حديث عن الإسلام ورسالته ومصادره وأمته، وعن واقع المسلمين، واتهامهم جزافًا بغير بينة.

وهذا ما حركة ليبعث إلي بهذه الأسئلة لأرد عليها. لينشرها هناك ما استطاع. وهذه هي الأسئلة، وبها إجابتها وبالله التوفيق.

س1: ما هي مآخذك على السياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط؟

ج: آخذ على السياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط تحيزها الكامل، بل تأييدها المطلق للسياسة الإسرائيلية، ووقوفها إلى جانب الإرهاب الصهيوني، فهي تقف بجانب إسرائيل وتمدها وتؤيدها بالمال الأمريكي، والسلاح الأمريكي، والفتيو الأمريكي. حتى آخر «فيتو» أمريكي كان ضد

إرسال مراقبين دوليين يساهمون في تهدئة المنطقة. حتى هذا رفضته أمريكا، لتنفذ إسرائيل ما تريد.

كما آخذ على السياسة الأمريكية غرورها بقوتها العسكرية والاقتصادية والعلمية، ومحاولة أن تفرض رأيها وسياستها على الناس، بمنطق القوة، لا بقوة المنطق.

وآخذ عليها كذلك: أن فلاسفة الفكر السياسي عندها رشحوا لها الإسلام «عدوًا» جديدًا، بديلًا للاتحاد السوفيتي الذي سماه ريجان «دولة الشر» وأخذوا يخوفون من «الخطر الأخضر» المنتظر، يعنون به «الخطر الإسلامي» بعد أن سقط «الخطر الأحمر» وحدث التقارب مع «الخطر الأصفر»، في حين تعاون المسلمون معها في محاربة السوفيت في أفغانستان، وذهب كثير من أبناء المسلمين إلى جامعاتها ومعاهدها ليتعلموا فيها، وإلى مستشفياتها ليعالجوا فيها، وهاجر كثير من أبناء المسلمين إليها، وكثير من نوابغهم استقروا فيها.

وفي أثناء الصراع بين المعسكرين: الغربي والشرقي، أو الرأسمالي والشيوعي، كان الاتجاه الاسلامي أميل إلى المعسكر الغربي - على مظالمه - من المعسكر الشرقي، لأن المعسكر الغربي محسوب على المسيحية، وهي دين سماوي في الأصل، والمسيحيون أهل كتاب في نظر المسلمين، في حين أن المعسكر الشرقي محسوب على الإلحاد والمادية، وإنكار الألوهية والوحي.

والصراع بين الفريقين أشبه بما كان من صراع بين الروم والفرس في

فجر الإسلام، ونزلت آيات القرآن في سورة الروم تنتصر للروم ضد الفرس، وتبشر بانتصارهم عن قريب، وتقول: **{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ ٱللَّهِ}** [الروم: 4، 5].

إن اعتبار أمريكا الإسلام هو العدل البديل للاتحاد السوفيتي يمثل نظرة خاطئة في جوهرها للإسلام وأمته، وموقفه من أهل الكتاب عامة ومن النصارى خاصة، ولهذا وقف بعض الأساتذة النابهين من العقلاء والمنصفين ضد هذه الحملة، واعتبروا الخطر الإسلامي وهمًا لا حقيقة، منهم البروفيسور إسبوزيتو، وغيره.

كما آخذ على السياسة الأمريكية موقفها في محاربة ما سموه «الإرهاب» الذي رفضوا أن يحددوه بمعايير علمية موضوعية، بل تركوه مفهومًا هلاميًا رجراجًا، ليحددوا على هواهم، ويدخلوا فيه كل جماعات المقاومة المشروعة، ثم يقولون: من ليس معنا فهو مع الإرهاب.

إن مواقف أمريكا المختلفة من المسلمين تدل على أنها لا تضمر خيرًا لهم، ولا لدينهم، ربما أنها تعتبره «ناشزًا» يستعصي على الاستسلام لها، والإذعان لإدارتها. أو لأن «اللوبي» الصهيوني المسيطر على الجانب الأكبر من سياستها وتوجهاتها، جهارًا أو من وراء ستار: يؤثر عليها، ويوحي لها بهذه المواقف.

وإلا فما سر هذا العداء والحصار - لسنوات عدة - للسودان، ولإيران وللعراق؛ الذي يموت أطفاله بمئات الألوف، من قلة الغذاء، أو فقد الدواء نتيجة الحصار الأمريكي؟ وما سر هذا الصلف الأمريكي في الإصرار على

ضرب العراق[110]، رغم قبوله لعودة المفتشين الدوليين بلا قيد ولا شرط؟

وما سر هذه الحملة ضد المملكة السعودية، وقد برئت من ابن لادن وجردته من جنسيته، ووضعته في القائمة السوداء؟

على أن العرب والمسلمين ليسوا هو وحدهم الذين يكرهون أمريكا، إن معظم شعوب العالم تكره أمريكا، وهذا ظهر بجلاء في مؤتمر ديربان في جنوب إفريقيا، فقد وجدت أمريكا نفسها محاصرة بكراهية عالمية ... وهي كراهية ليست من صنع روسيا ولا من صنع الصين ولا أحد، إنما صنعتها أمريكا لنفسها، فالناس عادة تكره الفراعنة والجبابرة المستكبرين في الأرض بغير الحق، وإن كانوا يذعنون لهم، ويخضعون لأوامرهم في الظاهر.

إن أمريكا تريد أن تعيد استعمار باسم جديد، هو «العولمة»[111] فحقيقة العولمة هي «الأمركة» سواء كانت عولمة السياسة أم عولمة الاقتصاد، أم عولمة الثقافة، بل حتى «عولمة الدين».

والآن تريد أمريكا «عولمة الأمن» تحت اسم «محاربة الإرهاب» تريد أن تتدخل في كل شيء؛ في أخص الشئون الداخلية للدول، حتى مناهج تعليمها الديني، وحتى تبرعات أفرادها لأعمال الخير.

تكاد أمريكا أن تراقب عقول الناس إذا فكروا، وعواطف الناس إذا أحبوا أو كرهوا، وسلوك الناس إذا تدينوا أو فسقوا. وهي تطمئن إلى المسلمين إذا

---

(110) كانت الإجابة عن هذه الأسئلة قبل غزو العراق في أبريل 2004م.

(111) للمزيد راجع ما ذكرناه في كتابنا «المسلمون والعولمة» ط. دار التوزيع والنشر الإسلامية.

فسقوا أو أعرضوا عن الله، ولا تطمئن إليهم إذا اهتدوا أو استمسكوا بالعروة الوثقى، كما ذكر القرآن عن المشركين: **{وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}** [الزمر: 45].

س2: ما هو موقفك من الحضارة الغربية؟

ج: الحضارة الغربية ليست شيئًا واحدًا، بحيث تقول عنه: خير أو شر. بل الحضارة مفهوم مركب من عناصر عدة، فلا عجب أن يكون فيها جوانب إيجابية تثمر خيرًا، كما فيها جوانب سلبية تنتج شرًا.

وموقفي هنا - وهو موقف كل مسلم، بل كل عاقل - أن أحتفي بالخير، وأرحب به، وأستفيد به، وأن أتجنب الشر، وأحذر منه.

في الحضارة الغربية نجد جانب العلم بتطبيقاته المختلفة «التكنولوجية والصناعية» وهذا يجب علينا أن نستفيد منه، لأنه عالمي بطبيعته، بل هو في أصله مقتبس من الحضارة الإسلامية التي منحت أوربا المنهج العلمي والتجريبي، الذي أخذه روجر بيكون، وفرنسيس بيكون من المسلمين، كما شهد بذلك مؤرخو العلم أمثال: بريفولوت، وغوستاف لوبون، وجورج سارتون وغيرهم. فهي في الواقع بضاعتنا ردت إلينا.

ولكن لا ننكر - ولا يجوز لنا - أن الغرب نمى ما اقتبسه من المسلمين وطوره حتى صار شيئًا هائلًا، وانتهى إلى الثورات التكنولوجية والبيولوجية والإلكترونية والفضائية والاتصالاتية والمعلوماتية. وهي وثبات هائلة، حققت في أواخر القرن العشرين ما لم تصل إليه البشرية في عشرات القرون.

وهذه كلها مكاسب للبشر جميعًا مسيحيين كانوا أم مسلمين أم وثنيين أم

ملحدين.

ولكن المهم: فيم تستخدم هذه الثورات العلمية كلها؟ في البناء أم في الهدم؟ في الحق أم في الباطل؟ في الإحياء أم في القتل؟

لهذا كان من المهم أن نربط الحضارة بأهداف إيمانية عظمى، ومثل أخلاقية عليا، تضبط سلوك الإنسان، وتجعله يستخدم إمكاناته الهائلة فيما فيه صلاح البشرية وخيرها.

ولكن مما يعاب على الحضارة الغربية عدة أمور:

أولًا: اتجاهها المادي الحسي، واحتقارها للغيبيات وكل ما وراء المادة.

ثانيًا: الاتجاه النفعي واللذي في أخلاقيات الحضارة الغربية.

ثالثًا: في الحضارة الغربية نزعة استعلاء كامنة في أعماقها، كأنما أخذتها من اليهود الذين يزعمون: أنهم - وحدهم - شعب الله المختار[112].

وأعتقد أن البشرية اليوم في حاجة إلى حضارة موازنة متكاملة، تعطيها الدين ولا تفقدها العلم. وتمنحها الإيمان، ولا تسلبها العقل. وتهبها الروح، ولا تحرمها المادة. وتذكرها بالآخرة، ولا تحرم عليها الدنيا. وتعطيها الحق ولا تمنعها القوة. وتصلها بالسماء، ولا تنزعها من الأرض، وتلك هي حضارة الإسلام إذا فهمت على وجهها الصحيح، وأخذت من منابعها الصافية، لا من واقع المسلمين المؤسف، الذي بعد كثيرًا عن حقائق الإسلام فهمًا وتطبيقًا.

ومع هذا الاختلاف في التوجه بين الحضارة الغربية والإسلامية، لا أقول

---

(112) بينت هذه المآخذ الثلاثة سابقًا فلتراجع في موضعها.

بحتمية صراع الحضارات، فيمكن للحضارات أن تتفاهم، وأن تتعايش وتتحاور، وأن يلقح بعضها بعضًا، ويأخذ بعضها من بعض أفضل ما عنده.

وخصوصًا أن في داخل حضارة الغرب فلاسفة ومفكرين وعلماء وأدباء وفنانين ينقدونها، ويدقون أجراس الإنذار، محذرين من تجاوزاتها، ولا سيما المادية المجحفة، والإباحية المسرفة. وهذا ما يتيح لهذه الحضارة أن تصلح كثيرًا من أخطائها بنفسها.

وقد حاول الاستعمار من قديم إنشاء نحل مثل «القاديانية» تنادي بفكرة «إلغاء الجهاد» ولكنها أخفقت، ولم تقدر على تغيير جوهر الأمة.

س3: ما رأيك فيما يمارسه الغرب من تشويه للإسلام اليوم؟

ج: تشويه الغرب للإسلام ليس وليد اليوم، ولا ابن الأمس، إنه أمر قديم قدم الصراع بين الإسلام والمسيحية الأوربية، منذ عهد الحروب الصليبية، بل منذ عهد فتح الأندلس، ومعركة بواتيه وغيرها.

ومن المعروف أن الغربيين قد شاهوا صورة الإسلام عمدًا بعد الحروب الصليبية، تشويهًا شمل العقيدة والشريعة والأخلاق والآداب، والقرآن والسنة وشخصية الرسول والصحابة، وتاريخ الإسلام وحضارته.

وظلت هذه الصورة الزائفة تعمل عملها في العقل الغربي - بوعي وبغير وعي - إلى اليوم، برغم اتصال الغرب بالمسلمين، ومعرفة البعض منهم الكثير عن الإسلام. ولكن العقل العام في الغرب أسير ثقافة غير محايدة - أو قل: غير صحيحة إن أردنا التخفيف - عن الإسلام.

وهذه الثقافة المغلوطة موجودة في كتب ومناهج التعليم العام، وفي

المراجع الجامعية، وفي الموسوعات ودوائر المعارف، وفي حلقات وندوات خاصة تعقد عن الإسلام وحضارته وأمته.

وفيما يعرضه الإعلام الغربي بصفة عامة، وكل هذه الموارد التربوية والتثقيفية والإعلامية ولا بد أن يكون لها أثرها في تحديد المواقف من الإسلام والمسلمين.

وقد اجتهد أحد علماء المسلمين الذين عاشوا في ألمانيا، وهو الأستاذ عبد الجواد فلاتوري - الإيراني الأصل - أن ينقي المناهج والكتب الدراسية في مراحل التعليم العام في ألمانيا من الأغلاط والمغالطات التي تحتويها خاصة بالإسلام وتعاليمه وأمته وحضارته. وقد وجد في ذلك كمًا هائلًا، أصدره في عدة كتب، وأبلغ الجهات المسئولة عن التعليم، وقد علمنا منه أنها رحبت بهذه الملاحظات والتصحيحات، وأنها ستعمل على رعايتها، وتفادي الأخطاء التي نبهت عليها.

وهذا ولا شك موقف إيجابي، وخطوة يحمد عليها المسئولون عن التعليم في ألمانيا، وقد كان الأستاذ الفلاتوري ينوي أن يقوم بمثل هذا العمل في البلاد الأوربية الأخرى، وبدأ فعلًا ببريطانيا، ولكن وافاه الأجل قبل أن يكمل حلمه.

على أن هذا إنما يعالج من كان سبب تشويه الإسلام عنده هو الجهل بحقيقة الإسلام، وقد قال العرب: من جهل شيئًا عاداه. وقال القرآن: **{بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ}** [يونس: 39].

ولكن المشكلة تكمن فيمن يتعمد تشويه الإسلام، فيزيف الأحداث،

ويتجاهل الحقائق، ويزور التاريخ، وينكر الشمس في رابعة النهار، فهذا لا حيلة لنا فيه.

من كان يكره الإسلام، أو يحقد على أمته، فماذا نملك أن نصنع له، إلا أن ندعو الله تعالى: أن يشرح صدره للحق، وأن ينزع من قلبه الغل والحقد.

وعلينا نحن أن نبذل ما نستطيع في بيان حقائق ديننا والرد على أباطيل خصومه، ومد أيدينا لكل من يسالمنا، فإن الله لم ينهنا عن الذين لم يقاتلونا في الدين، أو يخرجونا من ديارنا: أن نبرهم ونقسط إليهم والله يحب المقسطين.

س4: ما هي مآخذك على الطريقة التي يعالج بها الغرب قضية الإسلام الآن؟

ج: إن الغرب الآن قد تجسد في أمريكا، وكل الغرب تبع لها، إذا قالت أمريكا سمع، وإذا أمرت أطاع، وإذا دعت أمن على دعائها.

وأمريكا الآن قد تألهت في الأرض، تقول ما قال نمروذ لإبراهيم، حين قال: ربي الذي يحيي ويميت، قال نمروذ: أنا أحيي وأميت.

أمريكا أعلنت الحرب على الإسلام وأهله وشعوبه كلها باسم الحرب على الإرهاب. ولكنها لم ترد أن تحدد الإرهاب تحديدًا واضحًا، لتدخل فيه من تشاء من الدول، كما ذكرت الآن إيران والعراق ضمن «محور الشر» ومن تشاء من الجماعات والمنظمات التي تجاهد لاسترداد حقوقها، الدفاع عن حرماتها ومقدساتها، مثل منظمة «حماس» و «الجهاد الإسلامي» و «كتائب الأقصى» في فلسطين، و «حزب الله» في لبنان، و «جماعة مجاهدي كشمير» وغير ذلك. إنها تريد أن تقضي على كل مقاومة إسلامية باسم

محاربة الإرهاب. وهذه مؤامرة خبيثة تريد إخماد جذوة الصحوة الإسلامية، وإضعاف شوكة الأمة الإسلامية، وخلع كل مخالبها وأنيابها لتبقى بعد ذلك فريسة سهلة لكل طامع فيها.

وأكثر من ذلك: أنها أعلنت الحرب على العمل الخيري، وأصبحت كل الأعمال الخيرية في البلاد الإسلامية في حالة حصار أو تجميد.

وهي لم تكتف بذلك، فهي تريد أن تتدخل في مناهج التعليم، وخصوصًا التعليم الديني في البلاد الإسلامية: في السعودية، وفي باكستان، وفي غيرهما من بلاد المسلمين.

لقد قال الرئيس بوش في أول أيام الحرب: إنها حملة صليبية جديدة، ثم نبهه من حوله إلى خطورة هذه العبارة، فقال: أنا لا أقصد بها المعنى التاريخي للكلمة. ولكن أحد حكماء أمتنا - وهو علي بن أبي طالب - يقول: غش القلوب يظهر على فلتات الألسن وصفحات الوجوه. والقرآن يقول: **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ}** [محمد: 30].

وكنا نتوقع من «الاتحاد الأوربي» ألا يسير في ركاب أمريكا، ويساندها في تنفيذ كل رغباتها في تركيع المسلمين، وإرغام حكامهم على أن يؤيدها طوعًا أو كرهًا، وإلا سلط عليهم سيف الجبروت الأمريكي، الذي يقول بكل تبجح: «من ليس معنا فهو مع الإرهاب».

ما ذنب الشعب الأفغاني حتى تدمر كل بنيته التحتية، وأن يقتل منه من قتل، وأن يحيا في فزع من القصف المستمر، بحثًا عن بضع مئات أو ألوف من تنظيم القاعدة؟!

ولكنه منطق الجبابرة الفراعنة، الذين قضى الله ألا يفلحوا في النهاية، كما قال القرآن: **{وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}** [إبراهيم: 15].

إن الطريقة التي تتعامل بها أمريكا اليوم مع قضية الإسلام والمسلمين: لن تترك سوى المرارة في النفوس، والأحقاد في الصدور، والكراهية في القلوب، ولا يجوز لأمريكا ولا للغرب معها أن يتوقع غير هذا، فمن يزرع الشوك لا يحصد العنب. وهي بهذا تنشئ لها أعداء دائمين، يذهب ابن لادن، ويأتي بدله أبناء لادن آخرون.

س5: بماذا تدافع عن الإسلام؟ وما هي محاسن الإسلام؟

ج: الإسلام ليس في قفص الاتهام حتى أدافع عنه. الإسلام هو الرسالة الخاتمة، التي تميز بخلود مصادرها، كما تميزت بغايتها الربانية، ووجهتها الأخلاقية، ونزعتها الإنسانية، ودعوتها العالمية، وهي التي تذيب الحواجز بين البشر بعضهم وبعض، فتؤاخي بين الأبيض والأسود، وبين الغني والفقير، وبين الحاكم والمحكوم.

الإسلام هو الرسالة القادرة على بناء إنسان مؤمن قوي، متوازن متكامل الشخصية، يمشي على الأرض ويتطلع إلى السماء ... يعايش الواقع، ويرنو إلى المثال ... يعمل للدنيا، ولا ينسى الآخرة ... يجمع المال، ولا ينسى الحساب ... يأخذ الحق، ولا ينسى الواجب ... يتعامل مع الخلق، ولا ينسى الخالق. يعتز بماضيه ولا ينسى حاضره ومستقبله ... يحب قومه، ولا ينسى بني الإنسان ... يصلح نفسه، ولا ينسى إصلاح غيره.

إنسان تبني فكره وضميره عقيدة التوحيد والإيمان بالله، وتغذي روحه

العبادات الشعائرية؛ من الصلوات الخمس اليومية التي تقربه إلى ربه، والزكاة التي تزكى نفسه، وتطهر ماله، والصيام الذي يحرمه من شهوات بطنه وفرجه شهرًا من كل عام، والحج الذي يوجب عليه الهجرة من بلده إلى الأرض المقدسة مرة في عمره، في رحلة سلام وتجرد ومساواة كاملة مع خلق الله. كما تضبط سلوكه الأخلاق والآداب الإسلامية، التي تشمل مجالات الحياة كلها.

الإسلام هو الرسالة القادرة على بناء أسرة متماسكة؛ زوجية تقوم على السكون والمودة والرحمة، وأبوة راعية مسئولة عن رعيتها، وأمومة حانية حقها بعد حق الله تعالى، وبنوة بارة تتقرب إلى الله بالإحسان بوالديها، وخصوصًا عند الكبر، وهي الأسرة الممتدة، التي تشمل الإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات من أولي القربى وذوي الأرحام، الذين أمر الله تعالى بإيتائهم حقوقهم، واتقاء الله فيهم.

والإسلام هو الرسالة القادرة على إنشاء القادرة على إنشاء المجتمع الصالح، الذي لا يقوم على أساس عنصري ولا لوني، ولا إقليمي ولا طبقي، إنما يقوم على العقيدة المتسامحة مع الآخرين، المتفتحة على المخالفين، وأداء الواجبات. ولا يتم إيمان الفرد فيه حتى يجب لأخيه ما يحب لنفسه.

والحديث عن محاسن الإسلام يحتاج إلى كتب، ولنا فيه كتب عدة مثل: «الإيمان والحياة»، و «العبادة في الإسلام»، و «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي»، و «الحلال والحرام في الإسلام»، و «ملامح المجتمع المسلم»، و «مركز المرأة في الحياة الإسلامية»، و «الإسلام حضارة الغد»، و «الخصائص العامة للإسلام»،

ولعل أقربها: «مدخل إلى معرفة الإسلام».

س6: هل تميل إلى التشديد على أوجه الخلاف بين الإسلام والغرب؟ أم تؤكد أوجه التشابه والاتفاق؟

ج: يقول العرب: لكل مقام مقال.

وأنا أقول: في مقام البحث والدراسة تذكر الحقائق مجردة من كل دين، بما له من خصائص تميزه عن غيره، ولكن بأسلوب علمي رصين، بعيد عن السب والإثارة والاستفزاز، فقد قال تعالى في شأن المشركين: **{وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ}** [الأنعام: 108]. فنهى عن سب أصنامهم، حتى لا يردوا على ذلك بسبب الله تعالى.

وأما في مقام الحوار والتفاهم، فيكون التركيز على نقاط الاتفاق، والقواسم المشتركة، وليس على نقاط التمايز والاختلاف، محاولة لإزالة الجفوة، وتهيئة النفوس للتقارب، وهو داخل في الجدل بالتي هي أحسن، الذي أمر به القرآن في منهج الدعوة مع المخالفين بصفة عامة، وفي جدال أهل الكتاب بصفة خاصة، كما قال تعالى: **{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ}** [العنكبوت: 46].

فذكر هنا ما يؤمن به المسلمون؛ بقدسية ما أنزل الله على أهل الكتاب من عند الله، مثل التوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، ولهذا سماهم «أهل الكتاب» لأنهم - في الأصل - أهل كتاب سماوي.

كما أن إيمان المسلمين بأن إله الفريقين واحد، وهو الله تتت يقرب بين

الجميع.

ومن أجل هذا أركز على القواسم المشتركة مع أهل الكتاب عامة، ومع المسيحين خاصة، فهم أقرب مودة إلى المسلمين بنص القرآن(113).

س7: هل توجه أي نقد إلى أنظمة الحكم الفاسدة في العالم الإسلامي؟

ج: نعم أوجه النقد إلى أنظمة الحكم الفاسدة في العالم الإسلامي، فهذا واجب المسلم - كل مسلم - بصفة عامة، وواجب العالم المسلم بصفة خاصة. وفي الإسلام فريضة دينية مقدسة لعلها لا توجد في ديانة أخرى بهذه القوة، وهذا الوضوح، اسمها: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وقد جعلها القرآن من أسباب تميز الأمة المسلمة **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران: 110] فقدم الأمر بالمعروف على الإيمان، إيذانًا بأهميته.

وذكر القرآن أن بني إسرائيل - في بعض الفترات من تاريخهم - لعنوا على لسان بعض أنبيائهم مثل: داود وعيسى ابن مريم، لأنهم **{كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}** [المائدة: 79].

وهذه الفريضة الاجتماعية العظيمة توجب على المسلم إذا رأي خيرًا ضائعًا أن يأمر به، وإذا رأى شرًا ذائعًا أن ينهي عنه، وإذا رأى عوجًا قومه، أو خطأ صححه، حتى يبرئ ذمته أمام الله، وأمام الناس، وهذا في حدود استطاعته.

---

(113) راجع ما ذكرناه في كتابنا «ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق» ط. دار الشروق (ص52) وما بعدها.

وهذا ليس مجرد حق للمسلم يمكنه أن يتنازل عنه، بل هو واجب ديني عليه، يسخط الله تعالى عليه إذا تركه.

وهذا واجب على المسلم العادي بقدر وسعه، وهو أوجب على العالم المسلم الداعية أكثر من غيره، كما قال تعالى في شأن اليهود: **{لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}** [المائدة: 63].

ومن هنا أنقد الأنظمة الفاسدة الشائعة في عالمنا العربي والإسلامي، سواء كان فسادها أخلاقيًا، بمعنى أنها تضيع الصلوات وتتبع الشهوات وتشيع الانحلال، وتحل ما حرم الله، كما ترحم ما أحل الله، وتسقط ما فرض الله، وتشرع ما لم يأذن به الله، في حين تعطل شرائع الله، وأحكام الله، ولا تقيم حدود الله. أم كان فسادها ناشئًا من تجبرها على الشعوب، وقهرها للجماهير، واستئثارها بالسلطة والثروة، والأكثرية لا تكاد تجد القوت الضروري إلا بشق الأنفس، وذلك بسبب الدكتاتورية المستبدة، السافرة أو المقنعة: الديكتاتورية القائمة على الانفراد بالرأي، وإلغاء الآراء الأخرى، ومصادرة الحريات، وتكميم الأفواه، تلك الديكتاتورية التي لا تحب أن تسمع إلا الثناء عليها، والتمجيد لبطولاتها، سواء أخطأت أم أصابت. وقد علمنا الإسلام أن نصوب للإمام في الصلاة خطأة، فهذا في عبادة كالصلاة، فكيف بالحاكم؟

كما آخذ على بعض الحكام في عالمنا الإسلامي اضطهادهم لدعاة الإسلام، ومصادرة حرياتهم، وإغلاق الأبواب كلها دونهم، وعدم تمكينهم من حرية الدعوة مثل غيرهم، واستجابتهم لوساوس القوى المعادية للإسلام في التخويف من ظهور الإسلام. والتضييق على الفكر الوسطي المعتدل، مما

أتاح لفكر الغلو والعنف أن يعمل في السراديب تحت الأرض، حيث لا يحاكم ولا يناقش. ولو عمل تحت سمع القانون وبصره لكان أفضل وأهدى.

على أني أُفرق في نقدي لأنظمة الحكم الفاسدة في العالم الإسلامي، بين نوعين من الحكام في ديار الإسلام:

النوع الأول: هو الذي يعترف بالإسلام دينًا للدولة، وبالشريعة مصدرًا للقوانين، ولكنه مفرط في تطبيق الشريعة في بعض الجوانب، فهذا أشبه بالمسلم الذي يشهد أن لا إله الله وأن محمدًا رسول الله، ويلتزم بأحكام الإسلام عامة، ولكنه يرتكب بعض الكبائر؛ من فعل محظور، أو ترك مأمور، فالخوارج ومن وافقهم يكفرونه، وأهل السنة وجمهور المسلمين يعتبرونه مسلمًا عاصيًا، غير خارج من الملة، ما لم يستحل ذلك، أو ينكر معلومًا من الدين بالضرورة.

والنوع الثاني: هو العلماني المتطرف، الذي يجاهر بالعداوة لشريعة الإسلام، ويسخر منها، ويعتبرها مناقضة للحضارة والتقدم، فهو يرفض الشريعة رفضًا، فهو أشبه بإبليس الذي رفض أمر الله بالسجود لآدم، ووصفه القرآن بأنه **{أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ}** [البقرة: 34].

فهذا النوع هو الذي يتوجه جل نقدي إليه، وهو يعتبر من يصلي في المسجد متطرفًا، ومن تلبس الخمار على رأسها متطرفة، ومن لا يشرب الخمر ولا يزني ولا يراقص النساء الأجنبيات عنه متطرفًا. وقد تحدثت عن هذا في كتابي: «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام».

س8: هل تمارس نقدًا ذاتيًا في إطار المجتمع الإسلامي؟ أو بعبارة أخرى:

ما هو النقد الذي توجهه اليوم للمجتمع الإسلامي؟

ج: إن النقد الذاتي أمر سبق إليه الإسلام الحضارات السابقة، وعلمنا الإسلام أن نحاسب أنفسنا أولًا بأول، فيما يسميه الغرب: «النقد الذاتي» يسميه ديننا: محاسبة النفس.

كما علمنا الإسلام الشجاعة في نقد الذات، ومراجعة الأفكار والمواقف، حتى اشتهرت في تراثنا الحكمة القائلة: الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

ولقد مارست النقد الذاتي للأمة الإسلامية، وللحركة الإسلامية، وللصحوة الإسلامية في عدة كتب لي منها: «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» و «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» و «أين الخلل؟» و «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة» وغيرها.

ووقفت مؤخرًا مع الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي وقفة على رأس القرن الحادي والعشرين، لبيان ما أنجزناه وما أخفقنا في تحقيقه، وذلك في كتاب أسميته «أمتنا بين قرنين: إنجازات وإخفاقات وتحديات».

وفي المطبعة الآن كتاب[114] مهم لنقد الصحوة الإسلامية المعاصرة على ما لها من فضل في يقظة العقول والمشاعر والإرادات والسلوك والدعوة، والتأثير في سائر الأصعدة: الثقافة والاقتصادية والسياسية وغيرها. ولكني طالبتها بأن تنتقل من الشكل والمظهر إلى الحقيقة والجوهر، ومن الكلام

(114) هو كتاب: «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد»، وقد طبعته دار الشروق في القاهرة.

والجدل إلى العطاء والعمل، ومن الفروع والذيول إلى الرؤوس والأصول، ومن العاطفية والغوغائية إلى العقلانية والعلمية، ومن الغلو والانحلال إلى الوسطية والاعتدال، ومن التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير، ومن الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد، ومن التعصب والانغلاق إلى التسامح والانطلاق، ومن العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة، ومن الاختلاف والتشاحن إلى الائتلاف والتعاون.

أما عن نقدي للمجتمع الإسلامي: فأنا آخذ على المجتمع الإسلامي أنه أصابه الخلل في ترتيب أولوياته، فهم يقبلون الأمور، فيجعلون معاليها في مؤخرة اهتمامهم، ويجعلون سفاسفها في مقدمتها[115].

كما آخذ على المجتمع الإسلامي وقوعه في كثير من القضايا الكبيرة بين طرفي الغلو والتفريط، كما نرى ذلك في قضايا المرأة، فقوم أمسوا أسرى الغزو الثقافي والاجتماعي الغربي الحديث، حتى سلخوا المرأة من هويتها. يقابلهم قوم أصبحوا أسرى الأفكار والتقاليد الموروثة من عهود التراجع والتخلف الحضاري، وبين تفريط هؤلاء وإفراط أولئك ضاع المنهج الوسط الذي يمثل حقيقة الإسلام.

وأعيب على المجتمع الإسلامي استسلامه لأسباب التخلف الحضاري، ورضاه بأن يبقى في ذيل القافلة، وعدم تفقهه في سنن الله الثابتة في الكون والمجتمع، ونظام الأسباب والمسببات، وشيوع القيم السلبية التي روجتها

(115) راجع ما كتبناه في كتاب «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة»، وكتاب «من فقه الأولويات».

الصوفية المنحرفة، والاتجاهات الدينية المشبوهة.

وأعيب على المجتمع الإسلامي تفرقه وتشرذمه، وذلك على حساب وحدته وتجمعه صفًا واحدًا، رغم أن الإسلام ركز على شيئين مهمين هما: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة.

س9: ما رأيك في غياب الديمقراطية عن العالم الإسلامي؟

ج: رأيي أن مشكلة العالم الإسلامي الأولى واليوم هي: غياب الحريات العامة، وحقوق الإنسان، وسوق الناس بعصا القهر وسيف السلطان، أو سلطان السيف إلى ما تريده طائفة قليلة من الحكام، والمنتفعين من ورائهم من ذوى الثراء الفاحش الذي تكون من عرق الجماهير. وهو التحالف الذي ذكره القرآن من قديم بين فرعون وقارون وهامان، ففرعون يمثل السلطة المتألهة المستكبرة في الأرض، وقارون يمثل الرأسمالية الكانزة المستغلة لمالها في الإفساد في الأرض، وهامان يمثل الطبقة السياسية الخادمة للفئتين، ويستطيع هذا الثلاثي أن يضلل الشعب أحيانًا فيمشي في ركابه، حتى تأتيه رسالة تفتح عينيه، وتنير بصيرته، وتجمعه على كلمة سواء.

لقد ابتليت بلاد العرب والمسلمين بالديمقراطيات الليبرالية، التي لم تسند ظهرها بشرعية إسلامية، وعملت لخدمة الطبقات العليا أكثر من عملها للجماهير والطبقات الدنيا، ولعبت بها الأهواء والشهوات، فثارت عليها أنظمة تنتسب إلى اليسار وسمت نفسها: «الاشتراكية الثورية» وأضاعت الحرية من أجل العدالة، فخسرت الشعوب الحرية، ولكنها لم تحقق العدالة.

وفرضوا على الشعوب دكتاتورية «الحزب الواحد» والاستفتاء على

الطريقة الاشتراكية المعروفة، التي وصفها أحدهم، حين قال: إنه سباق يعدو فيه حصان واحد!

وعرف الناس في بلادنا العربية الرئيس الذي ينال من الأصوات 99.99%!!

وأسوأ شيء في ديمقراطيتنا: هو توريث الرياسة للأبناء، فلا يكفي الرئيس أن يبقى في الحكم عشرين أو ثلاثين سنة أو أكثر، حتى يهيئ الأسباب ليرثه ابنه. وبهذا ظهر في بلادنا العربية وحدها نظام جديد غير مكتوب، هو: الجمهورية الوراثية.

إن آفة بلادنا ومجتمعاتنا هي الاستبداد والقهر، أو قل: هي غياب الحرية والديمقراطية الحقيقية. التي يستطيع كل إنسان في ظلها أن يقول: نعم. أو: لا. كما يريد، لا كما يراد له. وأن يختار النظام الذي ينشده، والحاكم الذي يؤيده ويبايعه عن رضا، إننا نريد انتخابات حرة نزيهة، تأتي ببرلمانات حرة من اختيار الشعب حقيقة، ونريد صحافة لا موجهة، ونريد معارضة حقيقية قادرة على أن تتداول السلطة.

إن الإسلام يقيم نظام حكم على الشورى والبيعة والتراضي والنصيحة، والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يرضى أن يؤم الرجل قومًا وهم له كارهون في الصلاة، فكيف في الإمامة الكبرى؟ ويقاوم كل جبار عنيد، ويحذر من الركون إلى الظالمين، واتباع الجبابرة والمستكبرين.

وقد كتبت في أكثر من كتاب لي بحوثًا وفتاوى، تبين أن جوهر الديمقراطية أقرب ما يكون إلى روح الإسلام، وأن الإسلام يجيز التعددية في

الدولة الإسلامية، وأنه يحافظ على حقوق الأقليات وحرماتها، ويمكن الرجوع إلى كتابي: «من فقه الدولة في الإسلام» وإلى كتابي: «فتاوى معاصرة» الجزء الثاني، وغيرها ليستبين موقفي من الديمقراطية.

ومن المؤسف: أن الغرب عامة - وأمريكا خاصة - يدعو إلى الديمقراطية ويساندها ماديًا وأدبيًا - وأحيانًا: عسكريًا - في العالم كله، إلا في بلاد الإسلام، فإنه يؤيد الدكتاتورية، ويشد أزرها سرًا وعلانية، ما دامت تتخذ موقفًا غير موال لدعوة الإسلام وصحوته. كما هو ظاهر للعيان في تأييد تركيا العلمانية المسنودة بحكم العسكر، وتونس العلمانية التي أعلنت عن فلسفتها في تجفيف منابع التدين في تعليمها وإعلامها، وكما وقفت مع السلطة العسكرية الجزائرية ضد الانتخابات الحرة التي جرت في الجزائر، وفاز فيها الإسلاميون بالأغلبية الساحقة، في حين أن الحكومة التي أجرت الانتخابات لم تكن موالية لهم.

س12: ما رأيك في وضع المرأة في المجتمعات الإسلامية؟

ج: لا يوجد دين كالإسلام كرم المرأة وأنصفها في كل موقع، وكل مجال؛ كرمها إنسانًا، وكرمها أنثى، وكرمها بنتًا، وكرمها زوجة، وكرمها أمًا، وكرمها عضوًا في المجتمع[116].

وحسبنا قوله تعالى: **{فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ}** [آل عمران: 195].

---

(116) راجع ما ذكرناه في كتابنا «ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده» (ص321) وما بعدها.

أي أن المرأة من الرجل، والرجل من المرأة، هو يكملها، وهي تكمله فليست خصمًا له، ولا هو خصم لها.

وقال تعالى: **{وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ}** [التوبة: 71].

وقال صصص: **«إنما النساء شقائق الرجال»**[117].

وكانت المرأة في عصر الرسالة، وصدر الإسلام لها منزلتها ومشاركتها في الحياة العامة، حتى قاتلت في بعض الغزوات. ومعروف موقف عائشة في معركة الجمل.

ولكن المسلمين في العصور الأخيرة أساء كثير منهم فهم الإلام في قضية المرأة، وأساءوا تطبيقه، خصوصًا في المدن لا في القرى والريف. فمنهم من يزوجها بغير رضاها، وهو باطل شرعًا، ومنهم من يحرمها حقها في الميراث، ومنهم من يحرمها حقها في التعليم، ومنهم من يحرمها حقها في العمل، ومنهم من يحرمها حقها في المشاركة الاجتماعية والسياسية، حتى رأينا في بعض البلاد - مثل الكويت - تتحالف فيه النزعة القبلية المحافظة، مع النزعة الدينية المتشددة، لتحرم المرأة من التصويت ومن الترشيح.

ولكن أكبر حركة إسلامية معاصرة - وهي حركة الإخوان المسلمين - قد أنصفت المرأة في هذا الجانب، ورشحت إحدى الأخوات في الإسكندرية،

---

(117) رواه أحمد (26195) وقال مخرجو «المسند»: حسن لغيره، ورواه أبو داود (236)، والترمذي (113)، وابن ماجه (622)، والبيهقي في «الكبرى» (1 / 268)، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (1983).

التي طبعت فتواى في حق المرأة في الترشيح وزعت منها عشرات الألوف.

والحق أن الفقه الخاص بالمرأة والأسرة قد تطور تطورًا كبيرًا، وتطورت معه قوانين الأحوال الشخصية منذ عهد الشيخ المراغي - شيخ الأزهر الأكبر - إلى اليوم. وفي عهد الوحدة بين مصر وسوريا أعد قانون متطور للأسرة قام عليه الشيخ مصطفى الزرقا ومجموعة من العلماء الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة، ولكن لم يقدر له أن يصدر، لفشل مشروع الوحدة. ولكنه صدر أخيرًا في صورة كتاب ينبغي أن يستفاد به في إصلاح قوانين الأسرة.

وقد صدرت عدة دراسات تنويرية إسلامية حول قضايا المرأة، قام بها علماء كبار، مثل البهي الخولي ومحمد الغزالي، وقد ساهمت بنصيب في كتبي الثلاثة من «فتاوى معاصرة» وفي كتابي «مركز المرأة في الحياة الإسلامية» من رسائل ترشيد الصحوة.

وعلى رأس هذه الدراسات التنويرية: كتاب «تحرير المرأة في عصر الرسالة» الذي صنفه أخونا وصديقنا الأستاذ عبد الحليم أبو شقه ححح، في ستة أجزاء.

إن مشكلة المرأة المسلمة: ضياعها بين المتشددين ممن يدعون «السلفية» وأمثالهم - والسلفية وممثلوها الحقيقيون منهم براء - وبين المتسببين الذين يتبعون سنن الغرب، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، ويريدون للمسلمة أن تصبح نسخة من المرأة الغربية.

ولهذا نحن نقف ضد هذين التيارين: التيار الذي يريد سجن المرأة في

بيتها، والتيار الذي يريد أن يطلقها بلا ضابط ولا رابط، كما رأينا ذلك في مؤتمر السكان في القاهرة سنة 1994م، وفي مؤتمر بكين 1995، وسائر مؤتمرات المرأة بعد، والتي تريد مسخ فطرة المرأة لتجعلها كالرجل في كل شيء.

وسيظل الصراع قائمًا بين التيارين، حتى وإن انتصر أحدهما في الظاهر كما في تركيا وتونس، حتى ينتهيا إلى حل وسط لقضية المرأة، أعتقد أنه هو ما يدعو إليه تيار الوسطية الإسلامية الذي أتبناه وأدعو إليه. وصدق الله إذا يقول: **{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ}** [الرعد: 17].

* * *

أسئلة مجلة المصور

* * *

أولًا: ما معنى الكفر في الإسلام؟ وما هو معناه اليوم؟

ج: الكفر له عدة معان، فمن معانيه: «الإلحاد» أي الجحود بوجد الله تعالى، وبرسالات السماء، وبالدار الآخرة، وهذا ما يؤمن به الماديون الذين لا يؤمنون بما وراء الحس، ويقولون: لا إله، والحياة مادة فقط، فهم ينكرون أن للكون إلهًا، وأن للإنسان روحًا، ويقول قائلهم: ليس صوابًا أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق «الله»! أي أن «الألوهية» فكرة اختلقها الإنسان.

وهؤلاء يسمون «الدهريين» وقد حكى القرآن قولهم: **{مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ}** [الجاثية: 24].

وهناك كفر آخر هو كفر «الشرك» بالله تعالى، وأصحابه لا يؤمنون بوحدانية الله تعالى، بل يقرون بتعدد الآلهة مع الله أو دون الله، ويتخذون مع الله آلهة أخرى من الأفلاك كالشمس والقمر، أو من الحيوانات كالبقر، أو من لنبات كالشجر، أو الجن والبشر، أو من الوثن والحجر. وهذا هو الذي شاع في أمم شتى، وأرسل الله الرسل ليحرر البشر منه. ولهذا كان النداء الأول في كل رسالة **{يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ}** [الأعراف: 59].

وكان العرب في الجاهلية على هذا الشرك قبل أن يؤمنوا برسالة التوحيد التي بعث بها محمد صصص.

وهناك الكفر بدين الإسلام، وبرسالة محمد صصص، فكل من لم يؤمن بأن محمدًا صصص رسول من عند الله، وأن القرآن كلام الله المنزل عليه من ربه، فهو كافر برسالة محمد، وبالقرآن وبدين الإسلام، وإن كان من أهل الكتاب، أي يهوديًا أو نصرانيًا، فكفره هنا ليس بمعنى أنه وثني مشرك، ولا بمعنى أنه جاحد ملحد، ولكن بمعنى كفره بدين محمد. فهو من أهل الكتاب حقيقة، ولكنه من الذين كفروا من أهل الكتاب، كما قال تعالى: **{لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ}** [البينة: 1].

وكل ذي دين يعتبر المخالف لدينه كافرًا به، وهذا من حقه، ولا حرج عليه. ومن المعلوم أن الفاتيكان لا يعترف إلى اليوم بأن الإسلام دين سماوي.

وفي مؤتمر الحوار الإسلامي المسيحي الذي عقد في القاهرة منذ أسابيع

رفض بعض الإخوة المشاركين اعتبار الإسلام ضمن الأديان السماوية، واعتبار قيمه ضمن القيم الربانية.

ثانيًا: تردد وصف بلاد الغرب عمومًا بالكفر وأهله بالكفار، وتحديدًا الولايات المتحدة، فهل الأمريكان كفار؟

ج: إذا عرفنا مفهوم الكفر بأحد المعاني الثلاثة السابقة، استطعنا أن نحكم على الغرب وأهله - وخصوصًا الولايات المتحدة - بما يناسبها من الكفر الذي ذكرناه. فهو ليسوا كفارًا بمعنى أنهم ملحدون، وليسوا كفارًا بمعنى أنهم وثنيون. ولكنهم كفار بدين محمد. وهذه حقيقة لا أحسبهم يجحدونها، وإلا لآمنوا به وبكتابه.

قال تعالى: **{وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ}** [آل عمران: 110]. وأعتقد أن ما يجري من نزاع بين كثير المسلمين والولايات المتحدة، ليس بسبب الكفر، بل بسبب الظلم، فهم يصفون الأمريكيين بأنهم ظالمون منحازون للصهيونية، مستكبرون في الأرض بغير الحق، كما نراهم اليوم في موقفهم في محاربة ما سموه «الإرهاب» الذي يحددونه على هواهم، ويدخلون فيه كل جماعات المقاومة المشروعة، ثم يقولون: من ليس معنا فهو مع الإرهاب.

ثالثًا: إذا كان لا بد من مسلمين وكفار، فكيف تكون علاقة المسلمين بهؤلاء الذين كفروا بدينهم؟ أهي علاقة حوار أم علاقة صراع؟ أهي علاقة سلم أم علاقة حرب؟ أهي علاقة تعصب أم علاقة تسامح؟

أود أولًا أن أقرر أن القرآن لم يناد أحدًا من مخالفيه بصيغة «الكفار» بل

كان ينادي مشركي مكة بعبارة «يا أيها الناس» وينادي اليهود والنصارى بعبارة «يا أهل الكتاب» باستثناء مرة واحدة نادى فيها المشركين بلفظ الكفر، لقطع المساومات في عبادة غير الله، كما كانوا يعرضون على النبي صصص، فقال: **{قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ 1 لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ 2 وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ 3 وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ 4 وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ 5 لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون: 1 - 6]. وبهذا جمعت السورة بين نهاية التمسك بالتوحيد والرفض للشرك، ونهاية التسامح بختامها **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون: 6].

وأنا شخصيًا لا أستعمل في كتاباتي ومحاضراتي كلمة «الكفار» بل أوثر دائمًا أن أستخدم بدلها «غير المسلمين». وهذا من الجدال بالتي هي أحسن، الذي أمرنا به.

ثم أقول ثانيًا: إن علاقة المسلم بمخالفيه في الدين هي علاقة حوار وتسامح وسلام. فالمسلم مأمور بحوار غيره بالحسنى في قوله تعالى: **{وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل: 125]، كما أنه مطالب بالتسامح مع الآخرين، ومن المعروف أن الإسلام يتسامح مع أهل الكتاب أكثر من غيرهم، حتى إنه أجاز مصاهرتهم والتزوج من نسائهم، كما أعلن القرآن أن النصارى أقرب مودة للمسلمين من غيرهم. كما قال الرسول صصص في حديثه: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة»**[118].

وهناك جملة اعتبارات عقدية وفكرية وخلقية تجعل المسلم رحب الأفق،

---

(118) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1526)، رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3443)، ومسلم في الفضائل رقم (2365) عن أبي هريرة.

عظيم التسامح مع مخالفيه. منها:

أ - اعتبار أن اختلاف الخلق في الدين واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته، كما قال تعالى: **{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** [يونس: 99].

ب - أن الذي سيحاسب الكافرين على كفرهم ويجازيهم عليه، هو خالفهم سبحانه، وليس الإنسان، وموعده في الآخر، وليس في الدنيا، ولذا قال القرآن: **{وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ 68 ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}** [الحج: 68، 69]، **{ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ}** [الشورى: 15].

جـ - أن الإسلام يحترم الإنسان ويؤمن بكرامته من حيث هو آدمي، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ}** [الإسراء: 70]. وروى الشيخان عن سهل بن حنيف أنهم مروا على رسول الله صصص بجنازة «ميت» فقام لها واقفًا، فقالوا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! فقال: «**أليست نفسًا**»[119] فما أروع الموقف، وما أروع التعليل!

رابعًا: هل بالضرورة تكون علاقتنا بالكفار علاقة قتال وحروب؟ وهل ذلك يبرر القيام بعمليات إرهابية ضد تلك الدول وأهلها من المدنيين؟

فليس بالضرورة إذن أن تكون علاقتنا مع الكفار علاقة قتال وحرب، ما داموا لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا على

(119) متفق عليه. رواه البخاري في الجنائز (1312)، ومسلم في الجنائز (961) عن سهل بن حنيف.

إخراجنا. وقد قال تعالى: **{فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا}** [النساء: 90]. وهذا النص يفيد تحريم قتالهم في هذه الحالة.

إنما يقاتل المسلمون من يقاتلونهم ويعتدون على أرضهم وحرماتهم، كما قال تعالى: **{وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ}** [البقرة: 190].

والقتال في الإسلام له آدابه وأخلاقياته وضوابطه الشرعية، فلا يقتل إلا من يقاتل، ولهذا حين رأى النبي صصص، في إحدى المعارك امرأة مقتولة، أنكر ذلك، فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»[120]، ونهى عن قتل النساء والصبيات والشيوخ الكبار، كما نهى خلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر عن قتل الرهبان في الصوامع، وعن قتل الحراثين الذين لا ينصبون لهم الحرب، وعن قتل التجار وأمثالهم من المدنيين.

خامسًا: هل تستعاد الحقوق بمثل هذه العمليات؟

ج: لا تستعاد حقوق المسلمين بالعمليات الإرهابية التي يقتل فيها المدنيون البراء، الذين لا ناقة لهم في السياسة ولا جمل، بل ربما ألبت الناس على المسلمين ومن خصائص الإسلام: أنه لا يقبل مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة، ولا يرضى الوصول إلى الغاية الشريفة إلا بالوسيلة النظيفة.

ولقد أصدرت فتوى منذ بضعة عشر عامًا حرمت فيها خطف الطائرات،

---

(120) رواه أحمد في «المسند» (15992) عن حنظلة الكاتب، وقال مخرجو «المسند»: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن، ورواه النسائي في «الكبرى» (8628)، وابن ماجه (2842)، وأبو يعلى (1546).

ولو من أجل نصرة قضية عادلة، لأنك تروع براء لا ذنب لهم، وتعاقب أقوامًا بجرائم غيرهم، ولا تزر وازره وزر أخرى. ولكن من المهم هنا أن نفرق بين ما حدث في تفجيرات نيويورك وما يحدث من عمليات استشهادية ضد الكيان الصهيوني في إسرائيل. فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع عسكري كله، رجاله ونساؤه مجندون، ثم إن الفلسطيني يقاوم الغزاة المحتلين، وحق الدفاع عن الوطن حق مشروع بلا ريب، ثم هو لا يستخدم أحدًا في الهجوم على الأعداء، ولكن يُضحي بنفسه، ليرهب عدو الله وعدوه. وهو مضطر لاستخدام هذه الوسيلة لمواجهة جبروت عدوه وظلمه وقسوته التي فاقت كل تصور.

سادسًا: هل تنطبق معايير الكفر وتوجه إلى أفراد أو جماعات داخل المجتمعات الإسلامية من أصحاب الأفكار السياسية المخالفة، أو من أهل الديانات الأخرى؟

ج: قضية تكفير الأفراد والمجتمعات قضية في غاية الخطورة، وقد حذر الرسول الكريم من التكفير أشد التحذير، فلا يجوز أن يتهم أحد من المسلمين بالكفر إلا بأدلة قاطعة، لأن إسلامه ثابت بيقين، واليقين لا يزال بالشك، والاحتمال يفسر لمصلحة إسلام المسلم، والحكم بالردة والكفر على أي مسلم إنما هو من اختصاص القضاء وحده. فلا يجوز لأحد أن يجعل من نفسه مفتيًا وقاضيًا ومنفذًا، فيفتي بكفر الشخص، ويصدر حكمه عليه بالقتل، ويتولى تنفيذه.

أما غير المسلمين في الوطن الإسلامي، فهم من أهل دار الإسلام، كما قرر الفقهاء ... أي بتعبيرنا المعاصر: مواطنون، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

ودماؤهم وأموالهم معصومة، وحرماتهم وأعراضهم مصونة، فلا يجوز لأحد الاعتداء عليهم بغير حق، ومن فعل ذلك استحق عقوبة الدنيا، وعذاب الآخرة.

* * *

القمة الإسلامية المسيحية الأولى والثانية
في روما (أكتوبر 2001م) وفي برشلونة (أكتوبر 2004م)
لماذا يلتقي رجال الإسلام والنصرانية؟

* * *

لماذا يلتقي رجال الإسلام والنصرانية؟

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم محمد المجتبى.

وبعد ...

فنحن - المسلمين - ليس لدينا إشكال في أن يلتقي علماء الإسلام وأحبار المسيحية في إطار مشترك يبحث عن حلول لمشكلات طارئة تخص العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم الإسلامي.

ذلك لأننا - نحن المسلمين - نعترف بالإنجيل المنزل كتابًا من كتب الله التي يجب الإيمان بها، ونعترف بالمسيح رسولًا من أولى العزم من الرسل، ونعترف بأم المسيح التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين.

ولم يوجد في القرآن سورة لآمنة بنت وهب أم محمد صصص، ولا لخديجة زوج محمد صصص، ولا فاطمة الزهراء بنت محمد صصص، ولكن وجدت سورة لمريم، وسورة لأسرة المسيح «أمه وجدته» تسمى سورة آل عمران، وعمران هذا هو والد مريم **{إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ}** [آل عمران: 33].

وفي قرآننا من آيات ومعجزات المسيح ما لم يذكر في الإنجيل نفسه.

ثم إننا نحن المسلمون مأمورون بحوار من يخالفنا بالحسنى، وخصوصًا أهل الكتاب، وهو الذي يسميه القرآن الجدال بالتي هي أحسن، كما قال تعالى:

{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ} [العنكبوت: 46].

على معنى أنه لو كانت هناك طريقتان للجدال: إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، فالمسلم مأمور أن يستخدم الطريقة الأحسن والأمثل.

على أن الذي يسيء إلى العلاقة بين أصحاب الديانتين الكبيرتين يتمثل في سوء الفهم من أحدهما لموقف الآخر، أو تدخل عناصر خارجية تريد أن تتخذ من الدين مطية لخدمة أهداف غير دينية.

وفي هذا الظرف الرهيب الذي يعيشه العالم اليوم منذ 11 سبتمبر الماضي، الذي وقعت فيه التفجيرات المؤسفة في نيويورك وواشنطن - والذي قد ينذر بحرب لا يعلم عواقبها إلا الله، والتي قد يفسرها البعض - لسبب أو لآخر - بأنها مواجهة بين الإسلام والمسيحية، وأنها إحياء للحروب الصليبية القديمة، التي خلفت آثارًا وعقدًا في نفوس الفريقين لا نزال نعاني منها إلى اليوم.

والواجب على العقلاء - وخصوصًا من علماء الديانتين - أن يحولوا دون هذه المواجهة، وأن يتدخلوا بالحكمة لإطفاء النار، التي قد تأكل اليابس والأخضر.

وأحب أن أؤكد هنا أني منذ صبيحة أحداث 11 سبتمبر، أصدرت بيانًا بإنكارها وأدنت فاعليها، أيا كان دينهم أو جنسهم أو وطنهم. وشاركني في هذا كل من أعرفه من علماء المسلمين، فالإسلام - حتى في حروبه الرسمية التي تتولاها الجيوش - لا يجيز قتل من لم يقاتل بحال، وقد رأى نبي الإسلام

محمد صصص امرأة مقتولة في إحدى المعارك، فغضب وأنكر ذلك على أصحابه، وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»[121]. ونهى عن قتل النساء والصبيان والشيوخ.

وجاء خلفاؤه من بعد فأوصوا قوادهم ألا يتعرضوا للرهبان في الصوامع، ولا للحراثين في الحقول، ولا للتجار.

وكان من وصاياهم المأثورة: لا تغدروا، ولا تمثلوا «بجثث الأعداء» ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدوا بناء، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، إلا لمأكلة.

وقد أكد الإسلام حرمة النفس الإنسانية، وشرح في قتلها القصاص، وأكد القرآن مع كتب السماء **{أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا}** [المائدة: 32]. هذا في قتل نفس واحدة، فكيف بقتل عدة آلاف من المدنيين لا ذنب لهم؟

ونحن المسلمين عامة - والعرب خاصة - أشد الناس إحساسًا بمآسي القتل العدواني، وآثاره على النفس والحياة، ونحن نعاني منه يوميًا في أرضنا المقدسة فلسطين - أرض المسجد الأقصى وكنيسة القيامة - من قِبَل الكيان الصهيوني المتجبر، حيث نصبح ونمسي على أرواح تزهق، ومزارع تحرق، ومنازل تهدم، وأطفال تيتم، حتى أصبحت الحياة في فلسطين مأتمًا دائمًا.

وإني لأستبعد تمامًا أن يقوم بهذا العمل مسلم ملتزم بدينه فاهم له، وهو يعلم أن قتل النفس بغير حق من أكبر الكبائر في الإسلام، وأن الأصل في

---

(121) سبق تخريجه.

الدماء العصمة، إلا الحربيين الذين يشهرون السلاح على المسلمين، والقرآن يقول: {وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ} [البقرة: 190].

ولقد دعوت المسلمين في أمريكا أن يقوموا بواجبهم في إسعاف الجرحى، والتبرع بالدم، فهو من أعظم الصدقات عند الله.

وإننا - بقدر ما ننكر عمليات التفجير في نيويورك وواشنطن - ننكر كذلك حملات التحريض والكراهية ضد المسلمين والعرب، الذين أصبحوا يعيشون في الغرب، وكأنهم مطاردون نتيجة التهييج الإعلامي المغرض، وهم جزء لا يتجزأ من مجتمعهم، وقد أمسى بعضهم يخاف أن يخرج من منزله، وخصوصًا النساء.

نرفض الإرهاب:

إنني باسمي وباسم كل علماء المسلمين نرفض الإرهاب، الذي يعني ترويع الآمنين وقتل البراء بغير حق، ولكننا لا نعد أبدًا من الإرهاب من يدافع عن وطنه وحرماته ومقدساته، فمن الظلم أن يسمى هذا إرهابًا، بل هو دفاع مشروع.

إن الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية، والأعراف الدولية، والقيم الفطرية، كلها متفقة على مشروعية المقاومة لكل غاز يحتل الأرض حتى يجلو عن الوطن.

كما أننا ننكر نحارب الإرهاب بإرهاب مثله، يستخدم نفس منطقه، ويأخذ البريء بذنب المسيء، والمظلوم بجريرة الظالم، ولهذا نحذر هنا أن يؤخذ

شعب كامل بجريمة أفراد منه، حتى لو ثبتت الجريمة عليهم، أو يتهم دين تتبعه أمة كبرى بأنه دين العنف والإرهاب بسبب أفراد منه، وقد سبق لأفراد مسيحيين في أمريكا نفسها أن اتهموا بجرائم إرهابية، وحوكموا عليها وأدينوا فيها، كما في حادث أوكلاهوما سيتي الشهير، الذي قام به مسيحي أمريكي بدوافع خاصة، فلم تتهم - بسببه - أمريكا كلها - ولا العالم المسيحي، ولا الديانة المسيحية.

يجب أن نتعامل مع الإرهابيين على أساس من معرفة دوافعهم، ودراسة نفسياتهم، فالإرهابي إنسان مغلق على نفسه، شديد التعصب لفكرته التي يؤمن بها، ويرى من خلالها العالم والحياة والإنسان، على غير ما يراها الآخرون، ويرى نفسه هو المصيب، وكل الآخرين مخطئين، أو منحرفين. فهو صاحب قضية يعمل من أجلها، وليس من أجل مصلحة نفسه، وهو مستعد أن يضحي بنفسه من أجل قضيته. وآفته ليست في ضميره، بل في رأسه وفكره.

ولهذا يجب أن يقاوم أول ما يقاوم بتصحيح فكرته الخاطئة، ومفاهيمه المغلوطة، ولا يقاوم عنفه بعنف مضاد، إلا بمقدار ما تمليه الضرورة، فإن هذا العنف لا يزيده إلا تصلبًا وإصرارًا على موقفه.

ثم إن جرائم الإرهاب عادة إنما هي جرائم أفراد أو مجموعات صغيرة، ومثلها لا يقاوم بشن حرب كبيرة عليها، لأنها قد تصيب غيرهم ولا تصيبهم، إنما يقاوم هؤلاء بما يقاوم به كل المجرمين، وهو تقديمهم لمحاكمة عادلة تعاقبهم بما يستحقون وفق الشرائع والقوانين المرضية.

كما أن محاربة الإرهاب حقًا إنما تتم بمحاربة أسبابه، ومنها إزالة المظالم، وحل القضايا المعلقة، ومنها قضية فلسطين التي شرد أهلها، وأخرجوا من ديارهم بغير حق.

ومن ذلك: أن يترك للمسلمين حريتهم وحقهم في أن يحكموا أنفسهم وفق عقائدهم التي آمنوا بها، ولا يفرض عليهم نظام لا يرضونه.

علاقة المسلم بغير المسلم:

أيها السادة الأحبار والضيوف: إن الإسلام يعتبر البشرية كلها أسرة واحدة، تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما أعلنه رسول الله صصص أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: «**أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى**»[122].

ثم إن الإسلام قد حدد العلاقة مع غير المسلمين في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: **{لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ 8 إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [الممتحنة: 8، 9].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين، ولكن الإسلام أفرد «أهل

(122) رواه أحمد في «المسند» (23289) عن رجل من أصحاب النبي صصص، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

الكتاب» بمعاملة خاصة، حتى أجاز مصاهرتهم والتزوج من نسائهم، ومعنى هذا أنه أجاز للمسلم أن تكون زوجته وشريكة حياته، وأم أولاده كتابية «مسيحية أو يهودية». ومقتضى هذا أن يكون أهلها أصهاره، وهم كذلك أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء لهم حقوق أولي الأرحام وذوي القربى.

كما أن الإسلام اعتبر النصارى أقرب مودة للمسلمين من غيرهم، يقول تعالى: **{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}** [المائدة: 82]، كما قال نبي الإسلام أيضًا: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة»**[123].

نؤمن بالحوار:

إننا نحن المسلمين نؤمن بالحوار، لأننا مأمورون به شرعًا، وقرآننا مليء بالحوارات بين رسل الله وقومهم، بل بين الله تعالى وبعض عباده، حتى إنه سبحانه حاور شر خلقه إبليس.

ولهذا نحن نرحب بثقافة «الحوار» بدل ثقافة «الصراع» سواء بين الحضارات أم بين الديانات.

ولا نوافق على منطق بعض المثقفين الغربيين عامة، والأمريكيين خاصة الذين يؤمنون بحتمية الصدام بين الحضارات، وخصوصًا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

---

(123) سبق تخريجه.

ولماذا لا تتفاعل الحضارتان وتتكاملان، ويقتبس كل منهما من الآخر ما تفوق فيه؟

ماذا نريد من الغرب:

إننا نريد من الغرب أن يتحرر من عقدة الخوف من الإسلام، واعتباره الخطر القادم، «الخطر الأخضر» كما سماه بعضهم، وترشيحه ليكون العدو البديل بعد سقوط «الخطر الأحمر» الاتحاد السوفيتي الذي سماه ريجان «دولة الشر»، وبعد التقارب مع الخطر الأصفر «الخطر الصيني».

كما نريد من الغرب أن يتحرر من عقدة الحقد القديمة الموروثة من الحرب التي سماها الغرب «صليبية» وسماها مؤرخونا «حروب الفرنجة». فنحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس، ولسنا الذين بدأنا هذه الحروب، بل نحن الذين شنت عليهم.

ونريد منه كذلك أن يتحرر من نظرة الاستعلاء، التي ينظر بها العالم نظرة السيد إلى عبده، فهذه النظرة من شأنها أن تثير الآخرين وتستفزهم.

مجالات مشتركة للتعاون الإسلامي المسيحي:

ونحن لدينا مجالات مشتركة يمكننا أن نلتقي عليها، ونتفاهم حولها، ونتعاون على توسيعها وتعميقها.

التركيز على القواسم المشتركة:

1 - التركيز على القواسم المشتركة بيننا وبين أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى:

{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ}

[العنكبوت: 46].

ففي مجال التقريب والحوار بالتي هي أحسن: ينبغي ذكر نقاط الاتفاق، لا نقاط التمايز والاختلاف.

وهناك من المسلمين المتشددين من يزعم أنه لا يوجد بيننا وبين اليهود والنصارى أية جوامع مشتركة، ما دمنا نحكم عليهم بالكفر، وأنهم حرفوا وبدلوا كلام الله.

وهذا فهم خاطئ للموقف الإسلامي من القوم. فلماذا أباح الله تعالى مؤاكلتهم ومصاهرتهم؟

ولماذا حزن المسلمون حين انتصر الفرس - وهم مجوس يعبدون النار - على الروم، وهم نصارى أهل كتاب؟ حتى أنزل الله قرآنًا يبشر المسلمين بأن الروم سينتصرون في المستقبل القريب **{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ ٱللَّهِ}** [الروم: 4، 5] كما جاء في أول سورة الروم.

وهذا يدل على أن أهل الكتاب - وإن كفروا برسالة محمد صصص - أقرب إلى المسلمين من غيرهم من الجاحدين أو الوثنيين.

التعاون لمواجهة الإلحاد والإباحية:

2 - الوقوف معًا لمواجهة أعداء الإيمان الديني، ودعاة الإلحاد في العقيدة والإباحية في السلوك، من أنصار المادية، ودعاة العري، والتحلل الجنسي، والإجهاض، والشذوذ الجنسي، وزواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء.

فينبغي أن يقف أهل الكتاب في جبهة واحدة، ضد هؤلاء الذين يريدون دمار البشرية بدعاواهم المضللة، وسلوكياتهم الغاوية، وأن يهبطوا بها من أفق الإنسانية إلى درك الحيوانية: {**أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا 43 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**} [الفرقان: 43، 44].

وقد رأينا الأزهر في مصر، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وجمهورية إيران الإسلامية، والفاتيكان في روما يقفون في «مؤتمر السكان» في القاهرة سنة 1994م وفي مؤتمر المرأة في بكين 1995م في صف واحد، لمواجهة دعاة الإباحية.

مناصرة قضايا العدل والشعوب المستضعفة:

3 - الوقوف معًا لنصرة قضايا العدل، وتأييد المستضعفين والمظلومين في العالم، مثل: قضية فلسطين، والبوسنة والهرسك، وكوسوفا، وكشمير، واضطهاد السود والملونين في أمريكا وفي غيرها، ومساندة الشعوب المقهورة ضد الظالمين والمستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين يريدون أن يتخذوا عباد الله عبادًا لهم.

فالإسلام يقاوم الظلم، ويناصر المظلومين، من أي شعب، ومن أي جنس، ومن أي دين.

والرسول صصص ذكر حلف الفضول الذي شارك فيه في شبابه في الجاهلية، وكان حلفًا لنصرة المظلومين، والمطالبة بحقوقهم، ولو كانت عند أشراف القوم وسراتهم، وقال صصص: «**لو دُعيت إلى مثله في الإسلام**

أجبت»[124].

إشاعة روح التسامح لا التعصب:

4 - ومما ينبغي أن تتضمنه هذه الدعوة: إشاعة روح السماحة والرحمة والرفق في التعامل بين أهل الأديان، لا روح التعصب والقسوة والعنف.

فقد خاطب الله تعالى رسوله محمدًا بقوله: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107].

وقال صصص عن نفسه: **«إنما أنا رحمة مهداة»**[125].

وذم بني إسرائيل بقوله في مخاطبتهم: **{ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ}** [البقرة: 74].

وقال لزوجه عائشة: **«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»**[126].

الأساس العقائدي لتسامح المسلم مع مخالفيه:

وأحب أن أعرض هنا لقضية حساسة لدى كل ذي دين، فهو يعتقد أنه على

---

(124) رواه ابن إسحاق في «السيرة» كما في ابن هشام (1 / 29) من الطبعة الجمالية، وصححه الألباني في «تخريج فقه السيرة» للشيخ الغزالي (ص67) ط. دار القلم - دمشق.

(125) رواه الحاكم (1 / 35) عن أبي هريرة وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الترمذي في «العلل» (685)، والبيهقي في «الشعب» (1446)، ورواه ابن سعد (1 / 192)، والبيهقي في «السنن» مرسلًا عن أبي صالح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (882)

(126) متفق عليه: كما في «اللؤلؤ والمرجان» (1400)، رواه البخاري في الأدب (6024)، ومسلم في السلام (2165) عن عائشة.

حق، وأن غيره على باطل، وأنه هو الذي يملك الهدى، وهذا الاعتقاد قد يؤدي إلى التعصب. ولكن هناك عناصر أخرى مهمة تخفف من هذا الأمر في فكر المسلم وضميره.

أيها السادة الأحبار والضيوف:

إن الغلاة والمتطرفين موجودون في كل أمة، وفي أتباع كل دين، وقد يكون وجودهم رد فعل لتطرف أو غلو معاكس، فكثيرًا ما يكون الغلو الديني نتيجة الغلو اللاديني.

ولا يمكن أن تحاكم أمة كبرى أو حضارة عظمى، بوجود بعض الغلاة أو دعاة العنف فيها، وإلا لحاكمنا الحضارة الغربية بوجود النازية والفاشية والثورة البلشفية فيها، وبالحروب التي سقط فيها عشرات الملايين.

عندنا غلاة وعندكم غلاة، وهؤلاء لا يمكن أن يلتقوا أو يتحاوروا، فهم لا يؤمنون بجدوى الحوار؛ بل ولا بمشروعية الحوار.

إنما العمدة هم أهل الاعتدال من الفريقين، فهم الذين يناط بهم الأمل في اللقاء والحوار والتفاهم والتعاون في المتفق عليه، والتسامح في المختلف فيه.

أيها السادة:

إن العالم قد تقارب وتقارب حتى بعضهم «قريتنا الكبرى».

وأنا أقول: إنه أصبح قرية صغرى. وواجب أهل هذه القرية أن يلتقوا ويتحاوروا ويتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، ها نحن نمد أيدينا إليكم لندعوكم إلى ما دعا إليه القرآن أهل الكتاب منذ أربعة عشر قرنًا حين قال: **{يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا**

نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ} [آل عمران: 64].

كما يجب أن نقف جميعًا ضد الحرب الظالمة، التي يطغى فيها القوى على الضعيف، والتي تدفع فيها الشعوب الثمن من دمائها وحرماتها وضروريات حياتها، وكفى البشرية ما قدمته من ملايين في أتون الحروب.

يجب على أهل الدين والإيمان أن يقفوا مع قضايا العدل ضد الظلم، وأن يقفوا مع الإنسانية ضد العنصرية، ومع الأخلاقية ضد الإباحية، ومع الحق الأعزل ضد الباطل المدجج بالسلاح، ومع المستضعفين في الأرض ضد المتألهين المستكبرين، وبهذا ننصف أنفسنا وننصف الدين الذي نتكلم باسمه.

إن الحضارة المعاصرة استطاعت أن تضع أقدام الإنسان على سطح القمر، ولكنها عجزت أن تحقق له السكينة والسعادة على سطح الأرض، وإنما يتحقق ذلك بالإيمان الصادق الذي يقدمه الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

كلمة في ملتقى برشلونة أكتوبر 2004م
من مجالات التعاون بين الإسلام والمسيحية:
محاربة الظلم

أيها الإخوة أحبار الكنيسة ...

أيها الإخوة المعنيون بالصلة بين الأرض والسماء ...

أيها الإخوة المعنيون بأمر الإنسان ...

أيها الإخوة الحضور في هذا اللقاء من مشاركين وضيوف وإعلاميين.

أحييكم بتحية الإسلام، وتحية الإسلام: السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأشكر للإخوة في جمعية «سانت أجيدو» أن أهيأوا لنا فرصة اللقاء والحوار مرة أخرى، لنتفاهم ونتدارس، ويقترب بعضنا من بعض، ونتباحث معًا فيما يحيي شجرة الإيمان بالله والدار الآخرة، ويدفع عنها الآفات، ويقاوم موجات المادية العاتية التي تريد للإنسان أن يعيش عيشة الحيوان؛ لا يفكر في مبدئه ولا مصيره، ولا يحاول أن يجيب عن الأسئلة الكبيرة التي تلح عليه أبدًا: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟

وقد كنت في لقائنا الماضي ذكرت مجالات ثلاثة مفتوحة لتعاون رجال المسيحية ودعاة الإسلام، وينبغي أن تحظى باهتمامهم ونشاطهم، ويركزوا عليها جهودهم:

المجال الأول: يتعلق بعقيدة الإيمان، ونشرها وتثبيتها، والتدليل عليها، والدفاع عنها أمام الماديين والملحدين، وبيان ثمراتها في النفس والحياة، في الفرد والمجتمع على السواء. ومقاومة الفكرة المادية، التي تقول: ليس صوابًا أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله!

والمجال الثاني: يتعلق بالقيم الأخلاقية، وهي منبثقة عن الإيمان، كما تنبثق الثمرة من الشجرة، ولا بد من نشر هذه القيم وتثبيتها والدعوة إليها في كل المجالات: في العلم، والعمل، والاقتصاد، والسياسة، والحرب. ومقاومة تيار الإباحة والتحلل الذي يناهض الأديان جميعًا. وقد قال المسيح سسس: لقد كان قبلكم يقولون: لا تزن، والحق أقول لكم: من نظر بعينه فقد زنى!

وهذا المعنى نفسه أكده رسول الله الإسلام في أحاديثه.

ويجب على أهل الدين عمومًا: أن يتشبثوا بالفضيلة في كل مجال، وفي كل حال، ويرفضوا النظرية القائلة بأن الغاية تبرر الوسيلة. فالواجب علينا أن نتمسك بالغاية الشريفة، والوسيلة النظيفة معًا، ولا يجوز أن نصل إلى الحق بطريق الباطل. وعندنا في الإسلام لا يجوز أن تكسب المال الحرام لتتصدق به على فقير، أو تبني به مسجدًا.

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»[127] ورُوي في الحديث: «**إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو بالخبيث**»[128].

---

(127) رواه مسلم في الزكاة (1015) عن أبي هريرة.

(128) جزء من حديث رواه أحمد (3672) عن ابن مسعود، وقال مخرجوه: إسناد ضعيف

والمجال الثالث: هو مجال حقوق الإنسان، وحقوق الشعوب في الحرية والكرامة والاستقلال وتقرير المصير، والدفاع عن نفسها أمام هجمات الآخرين عليها.

فهذا المجال الإنساني في غاية الأهمية، وخصوصًا في عصرنا هذا الذي طغى فيه الأقوياء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، ومن يملكون على من لا يملكون.

وأمسى العالم غابة يفترس فيها القوي ذو الظفر والناب الضعيف الذي لا ظفر له ولا ناب!

بل ربما كان عالم الغابة أو عالم الوحوش أكثر رحمة ورقة من عالم الإنسان اليوم. فالمعروف أن الوحوش لا تفترس من ضعاف الحيوان إلا بقدر ما تحتاج إليه. لا تزيد على ذلك، ولكن الإنسان إذا طغى واستكبر لا يقف عند حد، ولا يبالي بمن يذبح ويقتل من بني الإنسان!

وهذا من الظلم الذي ينذر بالويل والخراب والعقوبة القدرية العاجلة من السماء، كما قال تعالى: **{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا۟}** [النمل: 52]، **{فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}** [الأنعام: 45]، **{وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}** [هود: 102].

وعن هذا المجال الثالث كتبت ورقتي؛ لأكشف عن خطورة الظلم الذي شاع في الأرض اليوم، ولا زال يصيب شعوبًا وأممًا وأديانًا، وكلما ازداد

لضعف الصباح بن محمد، وقال الذهبي: رفع حديثين هما من قول عبد الله. قال الشيخ شعيب: هما هذا والذي قبله، قال الدار قطني في «العلل»: والصحيح موقوف.

ازداد الشر في الأرض، وأنذر الناس بسوء العاقبة، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

هدف الرسالة السماوية العدل:

إن البشرية لن تسعد من شقاء، ولن تأمن من خوف، إلا بتحقيق العدل، ورفع الظلم بين الناس. وإن القرآن الكريم يقرر أن الهدف من الرسلات السماوية، التي بعث الله بها رسله، وأنزل بها كتبه إقامة العدل بين الناس. وهو ما قررته هذه الآية الكريمة: **{لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ}** [الحديد: 25] والقسط هو العدل.

ومن أسماء الله الحسنى - المحفوظة عند المسلمين والمعروفة بين خاصتهم وعامتهم - اسم «العدل» فهو سبحانه «الحكم العدل». وهو منزه عن الظلم بكل معانيه، كما قال تعالى: **{وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا}** [الكهف: 49]، **{وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ}** [آل عمران: 182]، **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ}** [النساء: 40]، **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ}** [يونس: 44].

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر عن النبي صصص فيما يرويه عن ربه ززز أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»[(129)].

فهو تتت لا يظلم أحدًا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يجازي الناس إلا بما عملوا، كما قال تعالى: **{وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ}** [الشورى: 30].

---

(129) رواه مسلم في البر والصلة (2577) عن أبي ذر.

وفي الآخرة يُجزى كل امرئ بما سطر في كتابه، وما حكم به ميزانه **{وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ}** [الأنبياء: 47].

وإذا كان المطلوب من المسلم أن يتخلق بأخلاق الله، ويقتبس من كمالاته العليا، فإن العدل هو أحد هذه الكمالات التي ينبغي أن ترنو إليها عين كل مسلم، ويتطلع إليه قلبه، وتتعلق بها أشواقه. كما يحب أن يتنزه عن الظلم الذي حرمه الله على نفسه.

العدل مطلوب في كل مجال:

وقد أمر الله المسلمين بالعدل في كل شيء:

في القول: **{وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ}** [الأنعام: 152].

في الشهادة: **{وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ}** [الطلاق: 2].

في الحكم: **{وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ}** [النساء: 58].

في الإصلاح بين الخصوم: **{فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ}** [الحجرات: 9].

وأرشد القرآن في وجوب العدل ولو على حساب من يحبه الإنسان **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ}** [النساء: 135].

ومثل ذلك العدل مع من يكره: **{وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ}** [المائدة: 8].

ويطلب الإسلام العدل في حالة الحرب كما يطلبه في حالة السلم: **{وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ}** [البقرة: 190]. والاعتداء هو الظلم.

ومن هذا الاعتداء المحرم: قتل الأطفال والنساء والشيوخ والكبار، وكل من لا يقاتل من الرهبان أو الزراع أو التجار أو غيرهم.

والعدل في الإسلام مطلوب للمسلمين وغير المسلمين، كما قال تعالى: **{لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ}** [الممتحنة: 8].

فلم يكتف في معاملة هؤلاء المسالمين من غير المسلمين بالحث على الإقساط إليهم، أي إقامة العدل معهم، بل دعا إلى برهم أيضًا، والبر أمر فوق العدل.

العدل: أن تعطي الحق لمن يستحق. والبر: أن تزيد عليه أكثر مما يستحق.
العدل: أن تأخذ حقك، ولا تزيد عليه. والبر: أن تتنازل عن بعض حقك.

الإسلام يكره الظلم ويحاربه في كل مجال:

وإذا كان العدل - بكل أنواعه ومستوياته - له هذه القيمة والمنزلة في الإسلام، فهو تعالى يكره الظلم بكل أنواعه ومستوياته كذلك، سواء كان الظلم من الحكام للمحكومين وهو «الظلم السياسي».

أم من الأغنياء للفقراء أو من أرباب العمل للعمال، أو من الملاك للمستأجرين، وهو «الظلم الاجتماعي أو الاقتصادي».

أم ظلم القضاة للمختصمين إليهم، بحيث يحابي من يحب أو يحيف على من يكره، أو يقبل الرشوة، أو يخضع لضغط الأمراء، أو غير ذلك، وهو «الظلم القضائي».

أم كان الظلم بين الدول بعضها وبعض، وبين الأمم بعضها وبعض **{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ}** [النحل: 92] وهو «الظلم الدولي».

كما أن الظلم المحرم في الإسلام لا يقف عند حدود ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، بل يشمل ظلم الإنسان للحيوان الأعجم، الذي سخره لبني آدم، وأمرهم بالإحسان إليه ورعاية حاجاته، وقد أخبر رسول الإسلام: أن امرأة دخلت النار بسبب هرة حبستها وأهملتها، حتى ماتت جوعًا[130]! فكيف بمن يحبس الناس بالألوف، ولا يبالي عاشوا أم ماتوا؟!

بل يشمل الظلم المحرم ظلم الإنسان لبيئته الطبيعية التي يعيش فيها، فيجور عليها، أو يغير من فطرتها. حتى يقول الرسول الكريم: **«من قطع سدرة «شجرة سدر» صوب الله رأسه للنار»**[131].

فكيف بمن يقطعون ألوف الأشجار، ويزيلون غابات كاملة، كان لها أثرها في حفظ التوازن البيئي، ولا يعبأون بما يترتب عليها من آثار؟!

وكيف بمن لا يبالون في حروبهم بما أحرقوا من أشجار، وما خربوا من

---

(130) إشارة إلى حديث: **«دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»** رواه البخاري في بدء الخلق عن ابن عمر، ومسلم في التوبة (2619) عن أبي هريرة.

(131) رواه أبو داود في الأدب (5239)، والنسائي في «الكبرى» (8557)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (614).

مزارع، وما لوثوا من بيئة، وما دمروا من البني التحتية التي هي ضرورية لحياة الإنسان؟.

أعوان الظلمة مع الظلمة في النار:

إن القرآن الكريم يجرم الظلم بكل صوره ومعانيه بأعلى درجاته ومستوياته، وبأدنى درجاته ومستوياته، ويدين الظالم الكبير، والظالم الصغير، حتى يقطع دابر الظلم من الأرض، فهو يندد بظلم فرعون المستكبر الجبار الذي قال للناس: أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيري، وكذلك وزيره هامان الذي كان ذراعه اليمنى في تأييد الباطل، ونشر المظالم.

ومع هذا لم يعف جنود فرعون وهامان من المسئولية، فهم القوة المادية التي يضربون بها الناس، ويذلون بها الجماهير، ويخرسون بها كل لسان يريد أن ينطق، ويقطعون بها كل رأس يريد أن يرتفع، يقول القرآن: **{إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ}** [القصص: 8]، **{فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ}** [القصص: 40].

فأعوان الظلمة هم أدواته في البطش والإيذاء والعدوان على حرمات الناس، وهم شركاؤه في الإثم، وإن تفاوتت المراتب في الشر، فالجندي ليس كالقائد، والقائد الصغير ليس كالقائد الكبير، وإن كانوا كلهم ظالمين.

وقد روت كتب التاريخ أن الإمام الرباني الكبير أحمد بن حنبل، حين أصابه ما أصابه من البلاء والسجن والتعذيب في «محنة خلق القرآن» الشهيرة سأله سجانه يومًا، قائلًا: يا أبا عبد الله! ما رأيك في الأحاديث التي رويت في ذم أعوان الظلمة، وما جاء فيهم من وعيد؟

قال: هي أحاديث صحيحة.

قال له: وهل تراني من أعوان الظلمة؟

قال: لا. أعوان الظلمة من يخيط لك ثوبك، أو يطهر لك طعامك، أو يقضي لك حاجتك، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم!

ومعنى هذا: أن الإسلام لا يكتفي بأن يحرم الظلم، ولكنه يحرم - كذلك - المعاونة على الظلم والمساندة للظالم بأي وجه من الوجوه. فهو يقول للمسلم: لا تكن ظالمًا، ولا تكن عونًا لظالم. بل إن القرآن ينهى عن مجرد الركون - أي الميل - للظالمين، كما قال تعالى: **{وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ}** [هود: 113].

الأخذ على يد الظالم:

ويوجب الإسلام على الفرد المسلم، وعلى المجتمع المسلم أن يأخذ على يد الظالم، ويمنعه من الظلم، فإن الظلم خطر عليه في الدنيا والآخرة.

ويقول رسول الإسلام: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا!**»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «**تحجزهُ - أو تمنعه من الظلم؛ فإن ذلك نصره**»[132].

كان العرب في الجاهلية يطلقون هذه الكلمة على ما يفيده ظاهرها، «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» يعنون: انصر ابن القبيلة في الحق والباطل، ولكن الرسول الكريم غير مفهومها بما ذكرناه.

---

(132) رواه البخاري في الإكراه (6952) عن أنس.

وبين الرسول عليه الصلاة والسلام واجب المجتمع من الظالم فيقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**»[133].

ويحذر الأمة من تهيب الظالمين، وأن تصدع في وجوههم بكلمة الحق، وإن جلبت عليهم ما جلبت، واقرأ هذه الأحاديث:

«**إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تُودع منهم، إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم فقد تودع منهم**»[134].

«**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائز**»[135].

«**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله**»[136].

---

(133) رواه أحمد في «مسنده» (1) عن أبي بكر، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه أبو داود في الملاحم (4338)، والترمذي في التفسير (3059)، وابن حبان في «صحيحه» (304)

(134) رواه أحمد (6776، 6784) عن عبد الله بن عمرو، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، ورواه الحاكم (4 / 96)، والبيهقي في «الشعب» (7546).

(135) رواه النسائي في كتاب البيعة (7 / 161) عن طارق بن شهاب، وصححه المنذري في «الترغيب والترهيب»، والنووي في «رياض الصالحين»، وانظر «المنتقى من الترغيب والترهيب» (1346).

(136) رواه الحاكم في «مستدركه»، وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بأن في إسناده الصفار، لا يدري من هو (3 / 195)، وصححه الألباني في «الصحيحة» من طريق رواها الخطيب في «تاريخه» (374).

جل مآسي عالمنا بسبب الظلم:

إن كل ما يعانيه عالمنا اليوم إنما هو من جراء الظلم.

فالحروف التي تقع في أنحاء كثيرة من العالم، سببها الأساسي هو: الظلم.

والمآسي التي تقع في كثير من البلاد، سببها الأساسي هو: الظلم.

والخلل والتلوث والفساد الذي يقع في البيئة من حولنا، سببها الأساسي هو: الظلم.

والصراعات التي تحدث في كثير من البلاد، سببها الأساسي هو: الظلم.

وجرائم الإرهاب التي تقع في كثير من البلاد، سببها الأساسي هو: الظلم.

وشر أنواع الظلم هو ما ينشب فيه القوي المستكبر في الأرض أظافره في العاجز المستضعف الذي لا سند ولا ناصر من الناس. فهذا ما يعجل بنقمة السماء على أهل الأرض، من الظلمة والجبارين: **{ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ 11 فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ 12 فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ 13 إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ}** [الفجر: 11 - 14].

وفي بعض الأحاديث الإلهية: «**اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرًا غيري**»[137].

وفي عصرنا نرى القوى المتجبرة في الأرض تهدد الشعوب المستضعفة

---

(137) رواه الطبراني في «الصغير» (1 / 61)، وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني في «الصغير» و «الأوسط» وفيه مسعر بن الحجاج كذا هو في الطبراني، ولم أجد إلا مسعر بن يحيي النهدي، ضعفه الذهبي بخبر ذكره له. والله أعلم (4 / 372).

بما تملك من ترسانة حربية هائلة، وما تملك من قوة اقتصادية ضخمة، وما يسندها من قوة علمية وتكنولوجية خارقة. وتتصرف في الأرض وكأنها إله لا يسأل عما يفعل، وتقول كما قال قوم عاد من قبل: من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟!

ولا دواء لما يشكو منه عالمنا اليوم من أدواء ومآسي، إلا بالتعاون على رفع المظالم عن أهلها، والوقوف في وجه الطغاة والفراعنة. ويتأكد ذلك على أهل الدين، وممثلي رسالات السماء، من كل الأديان، ولا سيما من المسيحين الذين هم سادة الحضارة وقادة العالم اليوم، وبعضهم يرتكب ما يرتكب باسم المسيح سسس، وهم الذين يسمونهم: اليمين المسيحي المتطرف، وأعتقد أن المسيح منهم براء، فقد كان يقابل الظلم بالتسامح والصفح، وهؤلاء يبدأون الناس بالظلم والجبروت غير مكترثين ولا متلومين.

قضية الشعب الفلسطيني مثل صارخ للظلم:

إن قضية شعب فلسطين مثل بارز يتجسد فيه الظلم البين من الإنسان لأخيه الإنسان، وهو يحظى بتأييد قُوى كبرى له، وسكوت قوى أخرى عنه، والساكت عن الحق كالناطق بالباطل، وقد سمي في التراث الإسلامي: الشيطان الأخرس.

شعب أُخرج من وطنه، وشرد من أرضه ليحتلها شعب آخر، ويطرده منها، ويحل محله، ويحصره في قطعة ضيقة من أرضه، ثم يحتلها هي الأخرى، ولا يدعه يهنأ فيها أو يستريح، بل يظل يلاحقه ويحاصره، ويضربه بالطائرات من فوق، وبالدبابات من تحت، وبالصواريخ من كل جانب، يسفك

دماءه، ويروع أبناءه، ويدنس مقدساته، وينتهك حرماته، ويدمر منازله، ويجرف أرضه، ويحرق مزارعه، ويقتلع أشجاره، ويغتصب أملاكه، جهرة علانية، ليقيم عليها جداره العازل يمزق أهل القرية الواحدة بعضهم عن بعض، ويباعد بينهم وبين ما بقى من مزارعهم وبياراتهم وأشجارهم، ويعزلهم عن كل ما يحتاجون إليه.

يفعل ذلك الغازي المحتل جهارًا نهارًا، والعالم يسمع ويرى، ولكنه لا يحرك ساكنًا، ولا ينبه غافلًا، حسبه أن يقول للمضروب: لا تصرخ، بدل أن يقول للضارب: كف يدك!

إننا نقدر للبابا يوحنا بولس الثاني وقفته مع الشعب الفلسطيني والمناداة برفع المعاناة عنه، لكننا أيها الإخوة لا زلنا نرجو المزيد من وقفة أصرح وأقوى، ضد هذه المظالم والمآسي اليومية، التي لا تنتهي، ففي كل يوم أرواح تزهق، وأطفال تيتم، ونساء ترمل، وأمهات تثكل، وبيوت تهدم، وأسر تشرد، وأكباد تجوع، ومن وراء ذلك كله صدور تغلي بالكراهية والحقد على من أنزل بها هذا البلاء الكبير، والشر المستطير.

لا بد لأهل الإيمان أن يقفوا بجانب المظلوم، ليمسحوا دمعته، ويفرجوا كربته، ويردعوا ظالمه، حتى يكسبوا رضا الله عنهم، فهو سبحانه وتعالى مع المظلوم الذي يمد إليه يديه بالدعاء، وهو سبحانه يرفع دعوته فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرك ولو بعيد حين.

* * *

أسئلة من ألمانيا

* * *

أسئلة من ألمانيا[138]

بداية نشكر سيادتكم على إتاحة هذه الفرصة لنا، لأننا نعلم أنكم من أكثر علماء المسلمين شهرة وتأثيرًا الآن.

س: ألا يحتاج الإسلام إلى مرجعية مركزية واحدة تجمع المسلمين على فتوى موحدة، بدل هذا التشتت والتضارب - أحيانًا - في الفتاوى بين العلماء بعضهم وبعض؟

الحمد لله وأزكى صلوات الله وتسليماته على أنبيائه ورسله، وعلى خاتمهم محمد الذي أرسله ربه رحمة للعالمين: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107].

بالنسبة لحاجة الإسلام إلى مرجعية مركزية موحدة هذا أمر يتمناه الكثيرون من المسلمين حتى لا تضطرب الفتاوى، وتناقض الآراء المختلفة، ولكن هناك حوائل دون هذا.

أولا: الإسلام ليس فيه باباوية مركزية، ليس فيه سلطة دينية كهنوتية، ولكن هناك علماء خبراء متخصصون في معرفة الشريعة وأحكامها ومقاصدها، يطلب من جماهير الناس أن تلجأ إلى هؤلاء العلماء لاستفتائهم واستشارتهم **{فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ}** [الأنبياء: 7].

---

(138) تم الحوار بمكتب فضيلة الشيخ بجامعة قطر في يوم الأربعاء 21 / 9 / 2005م، الساعة (12) ظهرًا وقام بمحاورة الشيخ صحفيان أحدهما يجيد العربية واللهجة المصرية، ومن الطريف أنه قال: سأحتفل غدًا (22 / 9) بمرور (50) سنة له في مصر.

ثانيًا: هناك اختلاف المذاهب وخصوصًا المذاهب المفصلية الكبرى: السنة، الشيعة الزيدية الإباضية، فهؤلاء لهم مذاهبهم ولهم مراجعهم.

كل ما نستطيع أن نعمله هو: أن نجمع أكبر عدد من العلماء، ليقفوا موقفًا موحدًا في القضايا الكبرى مثل: الاحتلال، المقاومة، الجهاد، الإرهاب ... وهذا ما نحمد الله أن وفقنا لإقامته بإنشاء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

وهذا الاتحاد يمثل الاتجاهات والمذاهب المختلفة، وقد شرفني الإخوة في الجمعية العامة باختياري رئيسًا لهذا الاتحاد، وتم اختيار ثلاث نواب لي: أحدهم من أهل السنة، والثاني من الشيعة، والثالث من الإباضة.

س: نلاحظ أن ما يحدث تقريبًا أي إنسان، يتخذ لنفسه الحق في أن يفتي وأحيانًا تأتي بعض الفتاوى المتضاربة، مثل فتاوى: أسامة بن لادن، أبي حمزة المصري، وأبي مصعب الزرقاوي، ومتني قبلان ـ شيخ تركي، يقول: إنه خليفة ـ فما هي أدوات ومؤهلات المفتي؟

ج: ليس من حق أي أنسان أن يتعرض للفتوى خصوصًا في المسائل العويصة، والمفتي في نظر العلماء: هو المجتهد الذي يملك مؤهلات الاجتهاد وشروط الاجتهاد.

هناك شروط علمية، وشروط أخلاقية للاجتهاد، اتفق عليها الأصوليون والفقهاء[139].

المؤهلات العلمية: أن يكون محيطًا بالقرآن، والسنة، واللغة، وأصول

(139) راجع هذه الشروط بالتفصيل في كتابنا «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» طبعة مكتبة القلم الكويت (ص17 - 55).

الفقه، ومعرفة القياس وعلله وشروطه، وأن يكون مطلعًا على مواضع الاختلاف والاتفاق، حتى تتكون عنده ملكة الفقه.

وهناك مؤهلات أخلاقية: ومنها أن يكون محمودًا في سيرته، مؤتمنًا في أخلاقه، وأن يكون مرضيًا عند الناس.

س: نأخذ مثال أسامة بن لادن كيف استطاع أن يصرح بما يصرح به، ألا يمكن إدانته؟

ج: جمهور علماء المسلمين أدان أعمال أسامة بن لادن، والقليلون هم الذين أيدوه، ولكن الذي أيد أسامة بن لادن أكثر هو المظالم التي وقعت ولا زالت تقع على المسلمين في بلاد مختلفة، وخصوصًا من الصهاينة ومؤيديهم من الأمريكان، موقف الأمريكان من إسرائيل والصهيونية وتأييدها المطلق لكل ما يفعل الإسرائيليون، هو الذي جعل طوائف كثيرة وخصوصًا من الشباب يتعاطفون مع أسامة بن لادن.

فلولا السلاح الأمريكي، والفيتو الأمريكي، والمال الأمريكي، لما استطاعت إسرائيل أن تفعل بالفلسطينيين كل يوم من قتل وذبح، وتشريد وتعذيب، وتهديم وتخريب.

وخصوصًا أن أمريكا كانت مع بن لادن والمجاهدين حين كان يقاتل السوفييت، كانت تنوه بشأنهم، وتقوي ظهرهم لأنهم مستفيدون، وتصفهم بالمجاهدين. فلما تغير الأمر؛ أصبح مجاهدو الأمس مجرمي اليوم!!

أنا أدنت أعمال بن لادن في 11 سبتمبر، وأصدرت أول بيان إسلامي لاستنكار أحداث 11 سبتمبر، دون أن يعرف الفاعل، دنت الفاعل مهما كان

دينه أو وطنه أو جنسيته، ولما سألني بعض الصحفيين الأمريكان: إذا كنت تجيز العمليات الاستشهادية في فلسطين، فما الفرق بينها وبين عمليات 11 سبتمبر؟

قلت: إن هناك فرقًا كبيرًا في الغاية والوسيلة بين الأمرين، بين العمليات الاستشهادية التي تقع في فلسطين وبين هذه التفجيرات. في نيويورك العمليات الاستشهادية في فلسطين الفاعل وضع روحه على كفه ويضحي بها للمستضعفين في وطنه، أما في 11 سبتمبر استخدام الفاعل الطائرات المدنية كأنها صواريخ، وقتل لا ذنب له من مسلمين وغيرهم، وكان في البرجين مسلمين وغير مسلمين، عرب وغير عرب.

س: هل علماء الدين يدينون أسامة في هذه الأفعال، ويقولون: إنه لا يعتبر مسلمًا؟

ولكن لا يقولون: إنه ليس بمسلم أو أنه كافر، لا. هذه قضية خطيرة، لأن أساس الغلو هو: قضية التكفير، فلا نريد أن نقع في ما وقع فيه أسامة بن لادن وجماعته، ولكن نقول: هذا عمل غير مشروع، والإسلام حريص كل الحرص على عصمة الدماء، لأن لها عصمتها في السلم والحرب. وعلماء المسلمين لم يكفروا الخوارج برغم استباحتهم دماء المسلمين.

س: أبرزت التمييز بين المقاومة والإرهاب. ولكن نأخذ مثلًا الطفل الصغير الذي يقع ضحية إذ قتل من المقاومة سواء في القدس أو في ألمانيا مثلًا ما حكمه، وما ذنبه؟

ج: أولًا: الإسلام حتى في حروبه الرسمية الشرعية التي تتواجد فيها

الجيوش كما حدث مع المشركين والفرس، الإسلام في هذه الحروب لا يجيز أن يذهب المسلم إلى قتل من لا يقاتل، هناك دستور أخلاقي للحرب في الإسلام، فهو لا يجيز قتل النساء، النبي صصص رأى امرأة مقتولة فغضب وقال: «**ما كانت هذه تقاتل**»[140]، ونهى عن قتل النساء والصبيان وحينما كان يرسل بعض القادة لبعض المعارك يوصيهم: «بتقوى الله لا تقتلوا وليدًا «طفلًا» ولا امرأة، ولا تغدروا «أوفوا بالعهود» ولا تمثلوا «لا تشوهوا»[141] وكانت هذه وصية الخلفاء الراشدين، إنها حرف نظيفة، ويقول: لا تقطعوا شجرًا، وتهدموا بناء، ولا تقتلوا حيوانًا إلا لمأكلة، وستجدون رجالًا فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، ولا تقتلوا الحراث ولا التجار، ما نسميهم نحن المدنيين.

إذا كان هذا في الحرب الرسمية، فما بالنا بغيرها؟

ولكن قد يحدث بالذات في «تل أبيب» فيقتل طفل، وهذا خطأ غير مقصود، هم يعمدون إلى تجمعات الجنود فيحدث هذا دون قصد.

س: ألمانيا بعد الحرب حاكمت بعض المسئولين من «مجرمي الحرب» هل هناك بعض علماء المسلمين لمحاكمة أسامة ومن معه لارتكابهم بعض الجرائم؟

ج: لم تثر هذه القضية بعد، ولكن يمكن أن تهدأ الأمور أن تحدث محاكمة، لكن ستكون هناك ضوابط، ولكن من الذي يحاكم؟ ومتى؟ وأين؟ لا بد أن

---

(140) سبق تخريجه.

(141) سبق تخريجه.

يحاكم أمام محكمة إسلامية مكونة من علماء مسلمين. ومن حق أسامة أن يدافع عن نفسه، ويقول: إن معه فتوى من مشايخ وعلماء ونحو ذلك.

س: بالنسبة لسلمان رشدي وبعض الشخصيات الأخرى، بعض من يصدر الفتاوى قاموا بقتله وإعدامه. لماذا لم يحدث هذا لمثل أسامة بن لادن؟

ج: سلمان رشدي أساء إلى بيت النبوي، هناك أشياء تمس مشاعر المسلمين، رجل اعتدى على القرآن والرسول وأهل بيته فهيج مشاعر المسلمين، فكيف يقارن بأسامة بن لادن.

س: الزرقاوي الآن بطريقته وتصرفه وقتله للناس ألم يسيء إلى الإسلام، ومشاعر المسلمين؟

ج: أساء إلى الإسلام أشد الإساءة، وإخواننا في العراق يقولون: إنه يؤذينا، وهو يكفر العلماء والحزب الإسلامي. فئة قليلة فقط هي المسلمة عنده، والباقي كله كفار.

س: هل ترون أن من أجل التواصل بالنسبة لـ «للخبطة» في الفتاوى التي صدرها غير مؤهلين، هل يمكن أن يكون هناك نوع من الإصلاح كما حصل في أوروبا؟

ج: هناك نوع من أنواع التثقيف والتوعية الإسلامية، هناك تيار الآن نسميه تيار: الوسطية الإسلامية، لأن مشكلة المسلمين في هذا العصر: ضياعهم بين الإفراط والتفريط، تيار الغلو والتطرف، وتيار الانحلال والتسيب، فهذا التيار الوسطي، يقف الموقف الوسط «الصراط المستقيم» يدعو للإصلاح في المجال الفقهي، يدعو إلى الاجتهاد والتجديد، ولكن هذا

التيار ليس له سلطة، والسلطة تكون من الخلافة لأنها تجمع بين الدين والدنيا، سلطة روحية وسلطة زمنية، ولكن المسلمين منذ سقطت الخلافة وليس لهم سلطة دينية ولا دنيوية لم يعد في مقدور هذا التيار أن يصل إلى كل ما يريد، وهذه خطورة الدعوة للعلمانية في بلاد المسلمين؛ لأن العلمانية في بلاد المسيحية حين تهيمن على السلطة الدنيوية تبقي للمسيحين سلطة دينية، ولكن عند المسلمين تضيع السلطة الدينية والدنيوية معًا.

س: في أي المجالات تنقدون القيم الغربية؟

ج: الحضارة الغربية لها أصولها ومواريثها ومن الأصول التي استمدت منها: الحضارة الإسلامية: حتى المنهج التجريبي الاستقرائي الذي ينسب إلى «روجر بيكون» مؤرخو العلم قالوا: إنها أخذت من الحضارة الغربية الإسلامية، فنحن نقر بما في الحضارة الغربية من اتجاهات علمية متطورة، حتى أحدثت هذه الثورات والإنجازات: العلمية كالثورة الفضائية والإلكترونية والبيولوجية والاتصالات والمعلومات ... نقر كل هذه الثورات وانتفاع البشرية بها؛ ونقر ما وصلت إليه من رقي في جانب الإدارة، حتى صار العالم الآن قرية كبرى، وأنا أقول: قرية صغرى.

ولكنا نعيب على الحضارة الغربية ما يلي:

1 - النزعة المادية: التي تكاد لا يذكر فيها الله، ولا الدار الآخرة، ولا القيم الروحية، وهذا أول ما نأخذه على الحضارة الغربية.

2 - الإسراف في النزعة الإباحية، والتحلل من فضائل الإحصان والعفاف التي جاءت بها كل الأديان، الوصايا العشر فيها: «لا تزني» الحضارة

الغربية تقول: هذا شيء عادي، المسيح كان يقول: «من نظر إلى امرأة بشهوة فقد زنى» الحضارة الغربية أسرفت في هذا، وأباحت الشذوذ الجنسي: أن يستمتع الرجل بالرجل، المرأة بالمرأة، وأكثر من هذا فأباحت الزواج، وقد جاء في التوراة أن الله أخذ قوم لوط بهذا الفعل، مبالغة الحضارة الغربية تقف الأديان كلها ضد هذا الإسلام والنصرانية واليهودية. في الصيف الماضي حصلت ضدي مظاهرات أرادوا أن يخرجوني من لندن، ومما أخذ علي أنني ضد الشذوذ الجنسي، وقلت: ليس هذا موقفي؛ بل هو موقف البابا، والمسيح، وموسى، وموقف كل الأنبياء.

3 - أن الحضارة الغربية برغم أنها عنيت بالحرية وحقوق الإنسان لكنها ما زالت وخصوصًا القوى العظمى التي يغلب عليها ما نسميه الازدواجية في المعايير، وهذا يسميه القرآن **{يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا}** [التوبة: 37] فتجيز لإسرائيل ما تحرمه على غيرها، أمريكا تحمي إسرائيل بالفيتو ولا تدينها أبدًا، العالم كله لا يجوز له أن يمتلك أسلحة الدمار الشامل، وهذا يسيء للحضارة الغربية المعاصرة، لأن معنى ذلك أن تستخدم القوة في فرض أرائها، وفي حماية المظالم.

من الذي يمثل الحضارة الغربية الآن: أمريكا، وهي الآن تتأله، أنا أسميه «التأله»، أمريكا «لا تسأل عما تفعل».

س: هل تعتبر إسرائيل لها حق في الوجود؟

ج: أصبحنا مضطرين أن نعترف بها، وفرضت نفسها بالحديد والنار

والآن أصبحنا نعترف بوجود إسرائيل، وإسرائيل قد اعترفنا بها منذ 67، بعد ذلك قالوا نزيل آثار العدوان، ومع هذا لم نستطيع أن نزيل آثار العدوان، ولم يقف معنا العالم، ما زالت إسرائيل تحتل الجولان والضفة الغربية، وتجرف الأرض، حتى القدس الشرقية لا تريد أن تبقيها، وتريد أن تأخذ الأرض من حولها تحت الحديد والنار والعنف، والدم، الجدار العازل هذا، التي تريد أن تقيمه، كل هذا بمنطلق القوة.

س: في الصيف الماضي آثار أحد الأئمة في ألمانيا: أن غير المسلم لن يدخل الجنة، فما رأيكم في هذا؟

ج: هذا الإطلاق غير مقبول، هذه الأشياء لها قيودها وضوابطها، نحن نعتقد أن الأديان السماوية السابقة، اليهودية والنصرانية، دينان سماويان، ونؤمن بالتوراة والإنجيل، وعقيدتنا الإسلامية لا تصح إلا إذا آمنا بكل كتاب أنزل وكل نبي أرسل، وأباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بالكتابية، وتصبح أم أولاده ويصبح أهلها أصهاره.

ولكن هناك حقيقية: أن الإسلام رسالة عالمية، وأن محمدًا أرسل إلى الناس كافة **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ}** [الأنبياء: 107]، **{لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان: 1]، **{إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا}** [الأعراف: 158] رسالة محمد صصص عامة، ولكن على المسلمين أن يبذلوا جهدهم أن تصل هذه الرسالة صحيحة مشوقة إلى العالم، فمن وصلت إليه هذه الرسالة ورفض أن يتبع هذا الرسول الذي بشرت التوراة به وبشر به الإنجيل، ولكن رفض أن يتبعها لا لشبهة ولكن حرصًا على الدنيا والمصالح المادية هذا لن يدخل الجنة.

وكل صاحب دين يعتقد أنه صاحب الحق، وأن عنده الحقيقة المطلقة فكذلك اليهود عندهم أن النصارى لا يدخلون الجنة، وكذلك النصارى، وكذلك المسلمون، ولكن عندنا نحن المسلمين، لا بد من شروط، منها أن يأتيه الهدى ويتبين له، قال تعالى: {**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ**} [النساء: 115].

س: هل غاندي يدخل الجنة؟

ج: إذا لم يأتيه الهدى واضحًا دون شبهة.

س: هناك كلام عن المرشد العام الأسبق، أن المسلمين من الأفضل أن يعيشوا في دولة إسلامية كبرى، فما رأيكم؟

ج: هدف توحيد المسلمين هدف إسلامي عام، لأن الإسلام يعتبر المسلمين أمة واحدة، جمعتهم العقيدة الواحدة والشريعة الواحدة والقبلة الواحدة والأخوة المشتركة {**نَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ**} [الحجرات: 10] حتى مصالحهم تحثهم أن يتجمعوا.

س: هل في إطار دولة؟

ج: نعم في إطار دولة لها طبيعة خاصة فدرالية، كنفدرالية، كل قطر له استقلاله الخاص وتجمع الجميع العقيدة والمصلحة العامة، ألستم تريدون جهة توحد الفتوى؟ هذا لا يكون إلا في وجود دولة وإمام، فإذا قم شخص مثل الزرقاوي أو غيره بارتكاب أعمال لا تقرها الشريعة، يصدر بيان من الإمام أو الخليفة بشأنه فتنبذه الأمة كلها.

س: الآن في العراق السنة والشيعة كيف يتصرف المسلم؟ السنة في

العراق تخلى عن المشاركة في الدستورية، هل عليهم أن يتواصلوا؟ ماذا عليهم؟

ج: ما يجري في العراق محنة كبرى لهذا البلد العزيز، وهذا الشعب العريق، هذه المحنة سببها «الاحتلال الأمريكي» أود أن أقول: إنني لم أكن من أنصار صدام يوما ما، كنت ضد حزب البعث وضد صدام، أقام صدام مؤتمرات ودعا كل علماء المسلمين من كل البلاد ودعاني السفير العراقي في الدوحة بكل إلحاح فرفضت، وقالوا: إن هناك عالمين تخلفا، كل العلماء ذهبوا ما عدا الندوى من الهند والقرضاوي من قطر، وكنت أعلى الأصوات التي عارضت احتلال الكويت وألقيت خطبة هنا في الدوحة وكانت إذاعة الكويت الخارجية تذيعها كل ساعتين، ولكني أيضا وقفت ضد الحرب على العراق.

س: وكذلك وقفنا في ألمانيا؟

ج: وأنا أريد أن أثمن هذا موقف ألمانيا، لأنها لم تتبع السياسة الأمريكية وكذلك فرنسا، وكذلك أقدر موقف الشعوب كما في بريطانيا وإيطاليا ومدريد، فخرجت المظاهرات بالملايين، وكنت ضد احتلال العراق وحرب العراق، لأني أراه احتلالا ظالما، وكل دولة قوية تحتل دولة ضعيفة أنا ضده، وأرى أن أمريكا لم يكن لها أي مبرر سوى العراق، أسلحة الدمار الشامل تبين أنها أكذوبة، الحقيقة أنها أرادت أن تستولي على المنطقة لما فيها من نفط، كما أرادت أن تتحكم في المنطقة كلها لتغييرها من الداخل، حتى التعليم الديني، ثم كان احتلال العراق حماية لإسرائيل ولذلك أرى أن سبب ما يحدث في العراق هو الاحتلال، هذه المصائب يسأل عنها الاحتلال الأمريكي بوش، واليمين المسيحي، للأسف أنهم ينسبون هذا إلى المسيح، والمسيح من هذا

براء، والمسيحية من هذا براء.

مما أثلج صدري ما جاء في جريدة الحياة: أن القساوسة في الكنيسة الأنجليكانية أعلنوا الندم والاعتذار للمسلمين لما جرى في العراق، وهذا موقف طيب وإن كانوا قالوا: لا يمكن أن تطالب الحكومة البريطانية بالخروج في هذه الظروف.

ما يجري في العراق أنكره ... أنكر هذه الأحداث التي يفعلها الزرقاوي وأتباعه من اختطاف الناس لا ذنب ولا حول لهم، وأكثر من مرة ناشدت الإفراج عن المختطفين، وفي اتحاد العلماء المسلمين أصدرنا بيانا حول هذا الأمر ودعونا للإفراج لأن القرآن يقول: **{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً}** [محمد: 4]؛ لأن هذه الأشياء تضر بالمسلمين وأرى أن يتم التحذير كل التحذير من تمزيق العراق، هناك مؤامرة لتمزيق العراق، يجب أن يبقى العراق شعبا واحدا، ووطنا واحدًا.

س: الواقع أننا نرصد أن السنة لا تشارك؟

ج: اضطر أهل السنة لهذا، قالوا: وفروا جوا للأمن ولكن هناك ظروفا لا تسمح.

س: الآن؟!

ج: الآن غيب أهل السنة، وأصحوا قلة، ويفرض عليهم أن يرضوا بالواقع.

س: هل المطلوب أن يدخلوا الانتخابات؟

ج: هم يريدون أشياء قبل الانتخابات، هذا الدستور يتم الاتفاق عليه

بالتوافق، لا أغلبية ولا إجماع، وهم حريصون على عدة أشياء أن يتضمنها الدستور.

1 - هوية العراق الدستور يجب أن يقول: الشعب العراقي جزء من الأمة العربية، العراق بلد مؤسس للجامعة العربية، الدستور الجزائري يقول: الجزائر جزء من الأمة العربية، الدستور المغربي يقول: المغرب جزء من الأمة العربية، والعروبة ليست عرقا هي لسان وثقافة، الرسول يقول: «**من تكلم العربية فهو عربي**»[142] الآن رئيس العراق هو عربي لأنه يتكلم العربية وإن كان كرديا.

لا بد أن يبقى العراق عربيا ولو كان فيه أجناس أخرى أقول: مصر جزء من الأمة العربية، وإن كان فيها أقباط.

2 - قضية الفدرالية، وافق أهل السنة أن يكون للأكراد وطن خاص وهم مميزون بأرض، ولغة، وأصبح لهم علم، وبرلمان، وكيان، يترك هذا، ويكون في العراق اتحاد، أما أن يأخذ الشيعة وضعًا في الجنوب ووضعًا في الوسط، والفدرالية تعني أن يكون لكل جزء حرسه، أهل السنة يقولون ما سيبقى، والشيعة.

أهل السنة يحملون الجمهور الإيرانية مسئولية هذا الأمر، وأنا الحقيقة بيني وبين الإخوة في إيران علاقة طيبة، وأنا أتمنى منهم أن ينصحوا الحكيم وغيره أن يتخلوا عن هذه الفدرالية، ويبقى العراق كيانا واحدا وإلا تمزق

---

(142) رواه ابن عساكر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلًا، وذكره الألباني في «السلسلة الضعيفة» (926).

العراق.

3 - أيضا هناك كلام حول توزيع الثروة وهناك ثروات أخرى غير البترول.

العلاقة بين السلطة والأقاليم، حتى في توزيع الثروة تشترك السلطة في المحافظة مع مجلس البلدية.

4 - قضية تعديل الدستور أهل السنة يقولون كيف لا يعدل الدستور إلا بعد (8) سنوات، ممكن بعد أربع سنوات ويقولون: أي دستور لا بد أن يستفتى الشعب. هذا أمر أنا لا أستريح له، أن تستفتى الشعب والجماهير؟!! وممكن تعارض أشياء فيقبل البعض ويرفض الآخر.

س: بما تنصحون العراقيين؟

ج: أنصح أهل السنة والشيعة، أن ينظروا إلى العراق على أنه شعب واحد ووطن واحد، مصلحة العراق في أن يظل شعبًا واحدًا، ولا يتركوا البلد ليمزق.

لا ينبغي أن تتغلب المصلحة الفردية والطائفية والآنية على المصلحة العامة والمستقبلية.

س: سؤال صريح: هل ينصحون للمسلم المقيم في أوروبا أن يلتزم بالقوانين الوضعية بدون استثناء؟

ج: نحن أنشأنا مجلسًا سميناه «المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث»، وأنا أتشرف برئاسته، وقد عقدناه مرة في ألمانيا، ويعقد دائما في إحدى العواصم الأوروبية، وفي كل مرة تكون مهمة المجلس أن يعالج قضايا المسلمين، في ضوء الشرع والواقع والعصر، ونرجح أبدا التيسير على التعسير للمسلمين،

وفي كل دورة تبدأ البيان الختامي بتوصيات عامة منها:

1 - أن يحترموا النظام العام والقوانين العامة للبلاد التي يعيشون فيها لأن هذا مقتضى الالتزام بالعقد الذي وقعوا عليه عند دخولهم البلاد.

2 - أن يحترموا مال كل ذي مال أي سلعة يشتريها المسلم لا بد أن يدفع ثمنها، أي منفعة لا بد أن يدفع أجرتها، وأن يتعاملوا مع هذا المجتمع ويتفاعلوا معه تفاعلا إيجابيا، ولا يتخلوا عن هويتهم وعقيدتهم.

هذه وصايانا في كل مرة، وأحيانا يحضر معنا أساتذة من الدراسات الإسلامية في الجامعات الأوروبية وحضر معنا أستاذ الدراسات الإسلامية في هولندا.

س: صديقي هذا الصحفي عدة ثلاث بنات توائم مسلمات، هل يحق لهم الاشتراك في السباحة؟

ج: نعم بحيث لا يراهن الرجال، وأوصي النساء دائما بالرياضة، وأنا أتحدثت عن مأخذي على الحضارة الغربية ومنها نظرتها الإباحية.

س: نحن نتقارب منكم، وهذه فرصة أن مرجعًا إسلاميًا مشهورًا مثلكم، وهذه الأسئلة أخذنا منكم حتى تقترب منكم، فما موقفكم؟

ج: أنا موقفي واضح عن طريق برنامجي «الشريعة والحياة»، وخطبي، وموقع إسلام أون لاين نت، وموقع القرضاوي، وكتبي أكثر من (140) ترجم معظمها إلى لغات شتى، ألمانيا أرى موقفها مني غير واضح، وأنا أشبه ممنوع من دخول ألمانيا، حين كنت مدعو في قمة سانت جديو الثانية في برشلونة، وتقدمت لإيطاليا لأخذ تأشيرة قالوا: إن دولة متوقفة قد عرفت أنها

ألمانيا، وأخذت تأشيرة لمدة (6) أشهر، ولا أدري لماذا.

س: سمعت أنه عرض عليكم أن تكون مرشدا للإخوان المسلمين فلماذا رفضت؟

ج: لأنني أريد أن أكون مرشدًا للناس كل الناس، للمسلمين جميعًا، لا لفئة واحدة منهم.

* * *